مواهب الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

عُني بنشره

محمد على القره داغي

المجلد الرابع

الطبعة الثانية

الجزء التاسع

﴿قَـالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِـهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـا شُـعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَـا قَـالَ أَوَلَـوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُـدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْـدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُـونُ لَنَـا أَنْ نَعُـودَ فِيهَـا إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُـلَّ شَـيْءٍ عِلْمًـا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَـا رَبَّنَـا افْتَحْ بَيْنَنَـا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: جملة مستأنفة لجواب سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل: فماذا قال كبراء قوم شُعيب له بعد أن أعلَن أنه لا ينفك عما هو عليه ويعد أتباعه ويتهدد أعداءه؟ فأجيب بأنه ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ ولهم المجلس والمقام والقوة والكلام بصراحة ووقاحة: والله ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ ولا نبقي منكم أحدا، فلابد اما ان تخرجوا منها ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ كلكم ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ وآدابنا المعلومة مِن عبادة الأوثان ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري، والواو حالية. ومعناها: وهل يجب أن نعود إلى ملتكم الباطلة، والحال أنا لها كارهون ولا يمكن اجتماع الكره للشيء مع العود إليه بإيمان وإذعان؟ !

والحاصل: إن إخراجكم لنا والخروج منا عن البلدة أمر ممكن معقول، ولكن العود إلى ملتكم مع الكره لها ممتنع. ثم اكد ذلك بقوله ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ ونور قلوبنا بأنوار الإيمان بوجود الباري ووحدته وصفاته، لأنا بعد هذا التنوير والتبصير إذا عبدنا الأوثان وقلنا: إن الله راض بعبادتها معه فقد جئنا بكذب مُفترىً عليه سبحانه وتعالى علوا كبيراً ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ وما يصح وما يقع ﴿أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ أي في تلك الملة الفاسدة في حال من الأحوال أو وقتٍ من الأوقات ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أن يضلّنا بعد أن هدانا للإيمان فإنه مالِك الملك وملك الملوك لا يسأل عما يفعل ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهو أعلمُ العالمين وأحكم الحاكمين و﴿عَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في تثبيتنا على ما نحن عليه من الإيمان وحفظنا عن الركون إلى أهل الكفر والعدوان.

ثم لما تكدر قلبه واغبر صدره بهذه المناقشات مع الملأ المستكبرين من القوم الكافرين رجعَ إلى ربه بالدعاء والابتهال وقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ أي أفصل بيننا وبينهم ﴿بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ بين الصالحين والطالحين والحمد لك يا رب العالمين.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)﴾

قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ يحتمل أن يكون الملأ فيه عين الملأ المذكور، وأعلن عنهم سابقاً بالاستكبار الذي ينشأ منه الكفر والدمار، ولاحقاً بما نتج من استكبارهم وهو الكفر بالله الواحد القهار، ويحتمل أن يكون غير ما مر. وعلى كل فالكفر ملة واحدة. وخلاصة قولهم إعلان البراءة من شعيب ودينه، حيث أقسموا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ في هذا الاتباع الشبيه بالابتياع باستبدالكم الضلالة بالهدى. ولما استقاموا على هذا الضلال ولم يبق مجال لاتباع شعيب عليه السلام أصْدَر اللهُ امراً بإبادتهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وأتتهم الزلزلة، وانهدمت عليهم بيوتهم، وانقلب المكانُ غير المكان. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هامدين أجساداً لا حياة فيها ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم لم يقيموا في دورهم حيث ماتوا وانقطع ربطهم بها ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي لقد جاهدت واجتهدت بمقدار طاقتي في إبلاغ رسالات الله، ووعظتكم ونصحت لكم، ولكن كفرتم بما ألقيته لكم فلم يبق لي وسيلة إلا صرفتها في إرشادكم وما أثرت فيكم لكفركم فكيف آسى وأتأسف على قوم كافرين؟

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (100) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ

عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101) وَمَا وَجَـدْنَا لِأَكْثَـرِهِمْ مِنْ عَهْـدٍ وَإِنْ
وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102)

<7>

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ بيان إجمالي لأحوال الأمم العادية الطاغية التي أرسل الله اليها الرسل لإرشادها وردها من الغي الى الرشاد، ومن الضلال إلى الهدى أنه لم يفاجئها بالإهلاك والتدمير، بل أرشدها ونورها، وعند كفرها وإعلانها العناد عاجلها بمحن دون الاستئصال فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ اين كانت القرية ومتى ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾ بعد التمرد ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ أي البؤس والفقر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي بالضرر والمرض ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ويبتهلون إلى الله تعالى، ويتوبون ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ ثم بدلنا البؤس والمرض بالمال والصحة ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أي ازدادوا في أنفسهم وأموالهم، ﴿وَقَالُوا﴾ بدل أن يقولوا الحمد لله على هذا التبديل الجميل والفضل الجزيل: ﴿قَدْ مَسَّ آَبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ على ما جرت به العادة في أهل الأرض من سالِفِ الأزمان ﴿فلَمَّا﴾ أدركنا منهم

ذلك اللجاج واللوم وكفران نعمة الصحة والمال بعد الفقر والمرض وسوء الحال ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ ألزمناهم البلاء المبيد مفاجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، ولا يتصورونه قطعاً.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا﴾ بما أنزل على أنبيائهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ وجوه الشقاوة ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لفتحنا عليهم نزول الأمطار الوابلة وسائر الأرزاق النازلة كالمن والسلوى، وأخرجنا لهم من الأرض أنواع الناميات للاقتيات والتفكه ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ولما علمتم بسنتنا السنية في الخليقة. ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ الباقية الغير المدمرة أو المعمورة بعد التدمير ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿بَيَاتًا﴾ أي وقت بيات ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي لا مجال لأهل العقل والمعرفة أن يتمرد ويصر على تمرده ويأمن مكر الله وعذابه لا ليلاً ولا نهاراً ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم فأضاعوا فطرة العقل السليم وقبوله للإيمان بما يجب الإيمان به والتطبيق للأحكام العملية الموجبة للخلاص.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ معناه أو لم يرشد الله تعالى أنهم الذين يرثون الأرض من بعد أهلها وهم آباؤهم السابقون ان لو نشاء لاصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ النصائح حقاً حتى يستفيدوا منها.

﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ أي قرى الأمم المذكورة من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ ما يوجب العظة والاعتبار لأولي الأبصار ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي المعجزات الواضحات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ معناه فلم يصح منهم الإيمان بسبب شؤم تكذيبهم بآيات

الله من قبل رؤية تلك المعجزات ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا يدخلها النور ولا الشعور. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ يوفى به ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ معناه وإنه وجدنا أكثرهم خارجين عن إطاعة رب العالمين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَـا إِلَى فِرْعَـوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُـوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِـدِينَ (103) وَقَـالَ مُوسَـى يَـا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (104) حَقِيـقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِـلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) قَـالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآَيَـةٍ فَـأْتِ بِهَـا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَـانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ يعني بعثنا موسى بن عمران بن يصهر ﴿بِآَيَاتِنَا﴾ التسع ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وأهل مجتمعه والشعب القبطي، كما أرسلناه إلى بني إسرائيل.
وفرعون: لَقَب لكل من ملك مصر من العمالقة، كما أن كسرى لقب مَنْ ملكَ فارس، وقيصر لقبُ من ملك الروم، والنجاشي لقب من ملك الحبشة، وتُبع لقب من ملك اليمن.
واسم فرعون الوليد بن مصعب بن الريان ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي الآيات أي كَفروا بها ولم يعترفوا أنها من المعجزات المخلوقة لإثبات دعوى موسى الرسالة من الله تعالى بل جعلوها سحرا، وظلموا أنفسهم برؤيتها حيث كان الواجب الإيمان بها والاستفادة منها، فعاملوا بخلاف ذلك وتشددوا في الكفر والطغيان

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي آخر أمرهم وجاء بالإظهار في موضع الإضمار للدلالة على أن أساس سوء عاقبتهم هو الإفساد.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم، ومادام أنا رسوله المرسل إلى ملك جبار شديد ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فإن الحديد لا يفله إلا الحديد، فكلما كانت الأمة غامرة في الضلال وَجَبَ أن يكون الرسول في أوج القوة والكمال، فلا يماري ولا يجامل مجاملة توجب وهناً في الدين، وإنما يبين ما هو الحق ليفهمه الخلق ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بمعجزة شاهدة ومبينة لرسالتي ومهمتي بعد دعوتكم إلى الله أن يطلق سراح بني إسرائيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خلهم حتى يأتوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي موطن آبائهم ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ تشهد لك على دعواك ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ فأظهرها لِنُبصِرها ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أنك جئت بها ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ أي هي حيّة من الحيايا المهولة المهيبة، وتوجهت نحو فرعون فخافها وانهزم منها وانهزم الناس من حوله مزدحمين ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي من جيبه أو من تحت إبطه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَـاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيـدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُـلِّ سَـاحِرٍ عَلِيمٍ (112) وَجَـاءَ السَّـحَرَةُ فِرْعَـوْنَ قَـالُوا إِنَّ لَنَـا لَأَجْـرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَـرَّبِينَ (114) قَـالُوا يَـا مُوسَـى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُـونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قَـالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَـا إِلَى مُوسَـى أَنْ أَلْـقِ عَصَـاكَ فَـإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ في سورة الشعراء
﴿قَالَ الْمَلَأُ حَوْلَهُ﴾ وهو صريح في أن قوله ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ
عَلِيمٌ﴾ قول فرعون والآية هنا صريحة في أنه كلام الملأ وأجيب
بأن: الكلام قاله فرعون ابتداء، ثم قاله الملأ بطريق الحكاية أو
التبليغ عنه ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي موسى ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ماهِرٌ فنانٌ
﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي أرض مصر ﴿فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ﴾ أي تشيرون في امره. والآية دالة على أنّ المخاطبين
كانوا أهل المشاورة من أهل مجلس الشورى والأعيان.
﴿قَالُوا﴾ أي المستشارون لفرعون مباشرة أو بواسطة
السائلين: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخر موسى وأخاه ولا تهتم
﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ مأمورين ﴿حَاشِرِينَ﴾ للسحرة ﴿يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ في فن السحر فذهب المأمورون وجمعوا
سحرةَ البلاد ويدل قوله ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ على أنه أراد فرعون
قتلهما أولا، لكنه نهى المستشارون عن ذلك لقضاء الله
وحكمته.

تنبيه: قراءة حفص هنا ﴿أَرْجِهْ﴾ بكسر الجيم وسكون الهاء،
واصله ارجئه، أمر للمفرد المذكر المخاطب من باب الإفعال
من الإرجاء بمعنى التأخير. قلبت الهمزة ياء لسكونها وكسر ما
قبلها، ثم حذفت الياء تشبيها بالناقص، وان كان خلاف القياس،
لأن الياء المبدلة من الهمزة لا تحذف بالجازم، ولا في صيغة
الأمر كما قاله الجلال السيوطي في فريدته في بحث الإعراب
التقديري بقوله (والهمزة إن ابدل لينا). والهاء ضميرٌ منصوب
راجع الى موسى

عليه السلام، وانما أسكن مع أن هاء السكت هي التي تسكن وهاء الضمير لا تسكن تشبيها لحال الوصل بالوقف، أو لانه كانت مكسورة ولما ارتبطت بالواو العاطفة في قوله تعالى وأخاه صار (جِهِ وَ) بجيم وهاء مكسورتين بعدهما واوٌ على وزن (إِبِل) والقاعدة إذ ذاك جواز إسكان العين فكأن الجيم فاء الفعل والهاء عين الفعل والواو لام الفعل هذا.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد دعوة المأمورين بلا تردد، وإذا سألت أنهم ماذا قالوا عند لقاء فرعون؟ فالجواب: أنهم على اعتمادهم بقوة تفننهم في السحر ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي جاهاً ووجاهة منك ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ﴾ حين ذلك ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي وتعدون من ملأي ولاشك في وفرة نيلكم المادي بالطريق الأولى. فلما اطمأنت قلوبهم من جهة الأمل توجهوا إلى مجال العمل وواجهوا موسى عليه السلام و﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ ما عندك قبلنا ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ قبلك ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام كرماً واعتناءً أو ازدراء لهم وعدم مبالاة بهم ﴿أَلْقُوا﴾ ما عندكم ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي حولوا أعين الناس إلى ما أظهروه ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ بالنسبة إليهم. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ في ذلك الوقت الذي كان يرتعب منهم لولا وقايتنا: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حيّة لها حيويتها ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ وتبلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يزورونه من الأمور التي لا حقيقة لها.

روي أن سحرة فرعون ألقوا حبالاً غليظة وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي وركب بعضها بعضاً، وذلك لأنهم لونوها وجعلوا فيها زئبقاً فلما أثر تسخين الشمس فيها تحركت والتوى بعضها ببعض فتخيل الناس ما تخيلوا. ولما قابلهم موسى بإلقاء عصاه وصارت حية كبيرة تبتلع ما عملوه

أقبلت على الحاضرين فَهَربوا وازدحموا ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أي فثبت الحق ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من أسباب المعارضة ﴿فَغُلِبُوا﴾ أي سحرة فرعون ﴿هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أذلاء مبهوتين ممقوتين. ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لله تعالى وعظمته يعني فخرّوا ساجدين له تعالى. لكنه لما كان الخرور شيئا ناشئا من نفسيتهم المبهوتة، فكأنهم ألقوا على الأرض مضطرين ولما خرّوا ساجدين قالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهرون الذي يعلو ولا يعلى ويغلب ولا يغلب.

﴿وَأُلْقِيَ السَّـحَرَةُ سَـاجِدِينَ (120) قَـالُوا آَمَنَّا بِـرَبِّ الْعَـالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122) قَالَ فِرْعَوْنُ آَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَـا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْـدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) وَمَـا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِآَيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَـا أَفْـرِغْ عَلَيْنَـا صَـبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126)﴾

ولما علم فرعون بهذا البهت والمغلوبية وأطلع على سجودهم لله تعالى وكان ذلك مخالفا لهيبته المزعومة وفرعنته المشئومة ﴿قَالَ﴾ فرعون مستنكرا ذلك: ﴿آَمَنْتُمْ﴾ أيها السحرة ﴿بِهِ﴾ أي برب العالمين ﴿قَبْلَ أَنْ﴾ تطلبوا مني الرخصة و﴿آَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا﴾ الحادث الواقع أولاً وتالياً ﴿لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ومصر وما والاها ومؤامرة تآمرتم عليها ﴿لِتُخْرِجُوا﴾ أنتم ومن وافقتموه من موسى ومن معه ﴿مِنْهَا﴾ أي من المدينة ﴿أَهْلَهَا﴾ البانين المواطنين المعمرين ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ماذا أفعل بكم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾

أي من كل جانب عضواً مخالفاً لما في الجانب الآخر ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على جذوع النخل العالية ليطلع عليكم العابرون والناظرون المتفرجون تفضيحاً لكم، فانظر ماذا قالوا جواباً لهذا التهديد الشديد ﴿قَالُوا إِنَّا﴾ إذا فعلت بنا ما أوعدتنا به مُتنا و﴿إِلَى رَبِّنَا﴾ ورحمته وكرمه ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ ولاشك أنه يحسن إلينا بالعفو والمغفرة لذنوبنا وإعلاء درجاتنا، فقد ربحنا من جانب الله تعالى ﴿وَ﴾ أما من جهة عيوبنا وذنوبنا في المجتمع فكل عاقل خبير يعلم أنه ﴿مَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾ أي ما تكره منا ﴿إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِآَيَاتِ رَبِّنَا﴾ وبمعجزاته المخلوقة لنصرة رسوله ﴿لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وذلك مما يفتخر به الإنسان الكامل ولما عزمت على تحقيق ما أوعدتنا به لا مجال لنا إلا الابتهال إلى الله العليم بالدعاء: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ ينزل على قلوبنا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فإن السعادة الأبدية فوق المحنة الوقتية.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآَلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي قالوا له بعدما علموا من انتصاره وبُهتهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ أي تتركهم أحراراً يستعملون النشاط ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي مملكة مصر بتوجيه الناس إلى دينهم

وترك دينك ودين آبائك من عبادة الكواكب ﴿وَيَذَرَكَ وَآَلِهَتَكَ﴾ مهملينَ غير مَعبودين بل ومنبوذين مُحَقرين؟! ﴿قَالَ﴾ فرعون في جوابهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ على عادتنا قبل ذلك الحادث ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ الظرف خبر، وقاهرون خبر آخر، أو قاهرون هو الخبر والظرف متعلق به ومتقدم عليه للاهتمام. ولما أقر فرعون ذلك المبدأ الفاسد المؤلم ﴿قَالَ مُوسَى﴾ عليه السلام ﴿لِقَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ على قهر الأعداء ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على ما يأتيكم من البلاء ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ لا للفراعنة ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ﴾ الطيبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وأنتم منهم والحمد لله.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة عندما كنا رعايا تحت أيدي الأقباط ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ رسولاً فإن فرعون مغتاظ علينا أكثر مما كان منذ أتيته، ودعوته للإيمان وإطلاق سراح الإسرائليين. وهذا الكلام منهم إظهار ضجر من قهر فرعون وطلب دعاء لدفع البلاء ﴿قَالَ﴾ موسى لا تخافوا ولا تحزنوا: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الذي قهركم وآذاكم فلا يبقي لهم سيطرة ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ ويجعلكم خلفاء لهم في الحكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي في الأرض الموعودة ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أخيراً أم شراً؟ أعدلاً أم ظلماً؟ إيماناً أم كفراً؟

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آَيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آَيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ﴾ شروع في تفصيل أسباب الهلاك والانتقام الموعود.

و ﴿السِّنِينَ﴾: جمع سنة، والمراد بها عام القحط ويؤرخ بها، ولامها واوٌ أو هاءٌ، وقد اشتقوا منها فقالوا: أسنت القومُ، بقلب لام الفعل تاءً إذا قحطوا ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾بكثرة عاهات الثمار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتعظوا فيتركوا ما هم عليه، مع أنه لم يتذكروا واستمروا على ما هم فيه ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ كالخصب والرخاء والسلامة والعافية ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي مستحقّوها بالذات، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب أو شدّة أو مرض أو بلاء ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي كانوا يتشاءمون بهم، ويقولون: ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم، وأصل ذلك أن العرب كانت تزجر الطير فتتشاءم بالبارح وتَتَيمّن بالسانح. والسانح ما ولاك مَيامِنه، والبارح: ما ولاك مياسره. ثم إنهم سموا الشؤم طيراً وطائراً، والتشاؤم تطيراً.

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ليس شؤمهم إلا عند الله، أي من جهته وحكمه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ﴾ أي شيء تأتينا به ﴿مِنْ آَيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ مصدر كنقصان اسم لكل شيء حادث يحيط بالجهات ويعم كالماء الكثير والقتل الذريع، والموت الجارف، وقد اشتهر في طوفان الماء وثبت أنه نزل المطر عليهم أسبوعاً، وأهلك الزراعة، وأفسد العمارة، وخرب الدور، وشوّه القصور، ﴿وَالْجَرَادَ﴾ معروف واحده جرادة، فسلطه الله على زراعة الأقباط فأبادها، ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ بضم القاف وفتح المشددة <17>

صغار الجراد التي لا أجنحة لها. وتضر أكثر من ذوات الأجنحة، لأنها تأكل ولا تطير. وقيل: إنها البراغيث أو السوس التي تأكل الزراعة ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ جمع الضفدع المعروف ﴿وَالدَّمَ﴾ معروف، فسره زيد بن أسلم بالرعاف يعني ابتلاهم الله بالرعاف يعني نزيف الدم من الخشم، وأكثر أهل التفسير على أنه دم حدث في مياه المصريين. ويحتمل أن تكون الدماء النازلة مع الحليب بحيث تشوهه ولا يشرب بسلامة الطبع. حالكونها ﴿آَيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ واضحات لا يشك عاقل في أنها آيات إلهية وحقائق واقعية لا سحر ولا شعوذة، ولا تمويهات خيالية، وإنما هي بلايا أنزلها الله على تلك البرايا لاستكبارها عن قبول الحق وأنانيتها وبقاها على بطرها وطغيانها. فأنزلها الله كأجهزة تعذيب للابتلاء والتأديب وتهذيب النفوس وإنابتها إلى الله من حيث حصول العلم منها بأن الكائنات مسخرة لله وتحت أمره في الظهور والخفاء، وفي جلب المحنة والجفاء، يؤمن بكونها كذلك كل عاقل نبيه ومتفكر وجيه، وأما الغافل السفيه فيظن أنّها حوادث طبيعية، ومواليد كونية تحدث عند حصول أسبابها، وتزول عند زوالها غافلاً عن أنها لو كانت آثاراً طبيعية لأخذت مجاريها في تحديد الأوقات ومدة البقاء، وفي تفارقها وتقارنها مع أنها قد تأتي على التوالي، وقد تأتي على التفارق، وقد تجتمع في بلد وتتراكم بعضها على بعض، وغافلاً عن أنها إنما تشتدّ عند طغيان الأمة والاعتماد على قوتها وهواها، والتصامم عن آيات الحق وهداها زاعمة أنها قوية لا تُغْلَب، وأبدية لا تُفْنَى، فيأتيها العذاب من أدنى شيء كمخالفة شخص لآخر وحدوث شجار بينهما، وتوسعها إلى عداوة قوم لقوم ودولة لدولة، فتحصل الصدامات وتنزل النكبات، وقد قابل هذا الوضع الإنسان الفاهم المطالع في التواريخ، ولم يترك الله قاتلاً بغير حق إلا قتل، وماكراً للناس إلا حاق به المكر السيئ وخائناً مع الناس إلا واقعاً في شبكة المصائب والآلام، وهذه <18>

سنة الله في الكائنات، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ويكون برهاناً إلهياً على ذلك عند كل ذي عقل أمين.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أي استمروا على إجرامهم استكباراً.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ يعني ولما وقع عليهم العذاب المذكور على التفصيل ﴿قَالُوا﴾ أي فرعون وقومه في كل مرة من وقوعه: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي بعهده سبحانه وتعالى معك، وهو عهد الرسالة وتأييدها بالمعجزات.

﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ الواقع علينا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فكان يدعو موسى لكشفه ونستجيب له ونكشف ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ إلى حد من الزمان هم واصلون إليه حسب إرادتنا ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ أي ينقضون العهد ولا يهتمون به، وبما يقولون: إن ما قلنا لك يا موسى كان عن سخرية واستهزاء، فإن الأرض أرض والسماء سماء والنعمة نعمة والبلاء بلاء، ولا يخلو الزمان عما رأيت شئت أو أبيت فيتصاعدون بالجهل والعناد إلى الكفر والإلحاد. ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يعني فأردنا الانتقام منهم وأخذناهم نكال الآخرة والأولى، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ أي فرعون

وأتباعه ﴿فِي الْيَمِّ﴾ أي نهر النيل وذلك ﴿بِمَا﴾ بسبب انهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ولم ينسبوها إلى الواقع والحقيقة، بل قالوا: إنها سحر وخداع، ولم يعتقدوا أنها آيات مقدمة إلى الأمة للإيمان والسعادة، بل قابلوها بوجه الشقاوة ﴿وَكَانُوا عَنْهَا﴾ أي عن حقائقها ومغزاها ﴿غَافِلِينَ﴾ وكأنهم بها كانوا جاهلين. فأجرينا سنتنا التي مضت في عبادنا ورَبِح الرّسول ومن تبعه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أعاذنا الله من كل نقمة وبلاء، وسامحنا بفضله إنه رءوف رحيم.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ الآية معناه ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ أي أرض الشام فقد ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة المستولية عليها، وبعد

العمالقة الأقوياء. ويدل على أن المراد بالأرض أرض بيت المقدس وما والاها من الشام لا أرض مصر. اذ انه لم يسمع رجوع موسى وأتباعه إلى مصر حتى يتمكنوا فيها ويملكوها. وتوصيفها بالموصول والصلة في قوله ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ لأنه إن أريد بها البركة المعنوية بالنبوة والرسالة فهي أرض بيت المقدس والشام لا أرض مصر؛ لان محل ابراهيم شيخ الانبياء والمرسلين أرض القدس لا محل آخر، وان أريد بها البركة المادية من حسن المناخ، وطيب الهواء، والأراضي الخصبة والبساتين والأشجار والأوراد وأشجار الفواكه فكل ما ذكر كانت في أراضي الشام ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على الشدائد الجمّة ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنان، أو ما كانوا يَرفعون من البُنْيانِ.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ هذا شروع في ذكر بعض ما أحدثه بنو إسرائيل بعد أن خلصهم الله من فرعون، وبعد أتعاب موسى عليه السلام في إطلاق سراحهم، وعدم إجابته لذلك وإمداده تعالى له ولقومه بنعمة كبرى هي نقمة فرعون وأتباعه بالغرق، وبركة نجاة موسى ومن معه بالتجاوز، حتى يتبين الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أحوال الأمة وينشرح صدرُه بما حَدَث بعد ذلك. فقال: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ يعني نهر النيل، ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ كانوا ينسبون إلى لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ﴾ لهم يقيمون ويداومون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر من نحاس، ﴿قَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي شأنكم الاستمرار على الجهل والغباوة، حيث إنهم كانوا على ذكر آبائهم من يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم، وتحمل مشاق الدعوة إلى الله وتوحيده، وإنهم ابتلوا ببلايا على تلك الدعوة، فكان الحق أن تكون الدعوة إلى التوحيد من أهم مطالبهم، والتنفير عن

الإشراك من أعظم مقاصدهم، مع أنهم خالفوا ذلك وتمنوا أحقر الأشياء الروحية وهي التوثن وغاية العذر الواقعي هي أن ذلك الطلب كان من بعض شبابهم الباقين في حال المراهقة المناسبة للارتباط بالماديات والزخارف، وعلى انطباعهم بديانة الأقباط. واستدل على فساد ما مالوا إليه من عادة القوم المشرك بقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ القوم العاكفين على الأوثان ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي مُدّمَّرـ ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ من دَيْدَن الإشراك ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما استمروا عليه؛ لأن أيَّ دينٍ لم يكن على موافقة الحق والواقع لا يستحصل من ورائه إلا الرجوع إلى الوراء، وإلا الدمار والانهيار في الدنيا، والعذاب والنار في الآخرةـ ﴿قَالَ﴾ موسى مؤكداً لما أتى به من الدليل: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ﴾ الذي هداكم إلى الخير ووفق آباءكم على التوحيد، و﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في زمانكم؟

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ﴾ من إصدارهم الأمر إلى الزبانية وهم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾أي يكلفونكم به، ويعذبونكم بأنواع التعذيب بالتحقير، وتشغيل أهل الشّرف بالعمل الحقير، وبسلب الحرية عن الغني والفقير: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ من كل صوب وحدب ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ حتى لا تبقى لكم شوكة ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ حتى يكثر الفقر والعالة والضعف والهوان في زمرتكم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ التعذيب ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي فتنة كبرى وابتلاء مهم لكم من ربكم قَلَّ من يخلَصُ منه آمِناً، ويلقى ربّه مؤمنا، فكيف بعد تلك النعمة العظمى وهي الخلاص من النقمة العظمى تريدون الإشراك بربّ العالمين، وتبتغون الفساد في العالمين؟

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وَهُمْ بمصر انّه إن اهلك اللهُ عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلكَ فرعونُ سأل موسى عليه السلام رَبَّهُ الكتاب فَأمره أن يَصوم ثلاثين يوماً، وهو شهر ذي القعدة، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خُلوفَ فمه فَتَسَوّك، فقالت الملائكة كنا: نشتمّ من فيكَ رائحة المسك فأفسدته بالسواك! فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة، وذلك قوله تعالى ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

في الكشاف: هنا سؤالان: أحدهما على تفصيل الأربعين هنا إلى ثلاثين وعشر، والاقتصار في البقرة على الأربعين. والآخر ذكر أربعين مع أنه من المعلوم انّ ثلاثين وعشر أربعون.
وأجابوا بأن الثلاثين للعبادة والعشر لإزالة الخلوف. أو أن الثلاثين للتقرب والعشر لإنزال التوراة، ولما كان الوعد في الثلاثين والإتمام لعشر مطلقاً يحتمل أن يكون تعيينهما بتعيين الله أو بإرادة موسى.. أفاد قوله فتم ميقات ربه أن المراد الأول. إنتهى.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى أمر موسى عليه السلام أوّلا بصيام ثلاثين يوماً من غير أن يقول أزيد عليها أو لا، وبعد إتمام الصيام قال تعالى عشرة أخرى لحكمة من حكمه تعالى منها: أن الشهر هو الواجب المهم، والزيادة عليها لزيادة الأجر كما أن موسى خدم شعيباً عليهما السلام في المدة المقررة ثم زاد عليها لزيادة الفضل. ويمكن أن يكون الصيام للتخلّي عن أكدار ممارسة أمور بني إسرائيل بين الأقباط ورئيسهم فرعونَ، والعشرة للتحلي بالأنوار للتقوى على تبليغ التوراة. ومنها أن تختص الرسل بزيادة أيام في الصيام على سائر الأفراد، لأن العامة صيامهم شهر فقط، ويمكن أن تكون الزيادة وبلوغ العدد أربعين ليكون كل عشرة أيام في مقابلة النصفية لأحد العناصر الأربعة الموجودة في كل إنسان، وهي: الماء، والتراب، والهواء، والنار، فإنّ مُجْمَلَ العناصِرِ هذه الأربعةُ، وإن كانت هناك تركيبات أخرى كتركيب الماء من عنصرين.

وهنا سؤال آخر هو انٍ ظاهر قوله تعالى وأتممناها بعشر أن عدد ثلاثين كان ناقصاً فأتمه الله تعالى بعشر، مع أن قوله وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ليس فيه إلا بيان تقرير ثلاثين للصيام بدون إشارة إلى نقص الموعود أو الزيادة. وأجيب عنه بجوابين: الأول أن الثلاثين كان عدداً ناقصاً عما قرره الله تعالى في علمه من مدة أربعين، وأتمه بعشرة، كما يفيده قوله تعالى ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ﴾. والثاني أن الإتمام بمعنى الإبلاغ والزيادة وقوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ﴾ معناه فصارت ميقات ربه أربعين. وعليه يكون أربعين خبر القول ﴿فَتَمَّ﴾ وهو بمعنى صار. ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ عند توجهه إلى المناجاة حسب أمره تعالى ﴿لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي كن خليفتي فيهم وراقب أحوالهم حتى لا يتغيروا ولا ينحرفوا عن الدين، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أيّ خلل وقع بينهم بقدر الإمكان ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تتبع من سلك مسلك الإفساد

بغفلة نفسه عن قدسه، وكسله عن طاعته وعن تربية أتباعه على شريعته، فإن ذلك سبيل أهل الإفساد الغافلين ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ أي في وقتنا الذي وقتناه له يعني لتمام الأربعين ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير واسطة الملك، وسمع كلامه وحصل له أنس وحضور ونور ومزيد شعور وإدراك مزيد فضله ومحبته له ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي﴾ ذاتك ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ليمتزج البيان بالعيان، وتلتذ الروح بالفتوح. ﴿قَالَ﴾ الباري تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ بالمشاهدة العيانية في هذه النشأة ﴿وَلَكِنِ﴾ لا تعتقد أن فيك قابلية لها ولا أسمح لك، بل لأنه لا قابلية لأية مادة موجودة الآن لقبول التجليات الحاصلة من المشاهدة. وإن كنت في ريب من ذلك فـ ﴿انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ المعهود المحسوس الحاضر عندك عياناً وأظهر بعض تجلياتي عليه ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ﴾ الجبل ﴿مَكَانَهُ﴾ ولم يفتته التجلي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ إذا تجلّيتُ لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي ظهرت له جلوة ذاته حسب ما يليق به تعالى ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي جعل التجلي الجَبلَ المعهود مدكوكاً متفتتاً والدك والدق أخوان.

وهنا ملاحظتان:

الأولى: أنه إذا اعتبرنا الجبل مادة لا إدراك لها ولا شعور فدكه يكون كدك المواد التي تجعلها تحت المنظار المعروف بـ (المكبر) فكما أنها تحترق بوقوع أشعة الشمس عليها كذلك الجبل يحترق بوقوع تجلي الباري سبحانه وتعالى عليه، ولكن لا مناسبة ولا مشابهة، فإن إشعاع الشمس إشعاعٌ لمادة مخلوقة ملتهبة، وتجلي الحق سبحانه نور يظهر بإظهار واجب الوجود وتجلّيه عليها.

الثانية: أنه إذا اعتبرناه مادة مدركةُ مُسبحَةً تسبيحا واقعياً لائقاً كما يفصح عنها قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ فاندكاكه في مقابلة التجلّي في غاية الجلاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما تجلى منه

سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فجعله تراباً... الحديث، وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يُسْلَك فيها طريق التسليم وهو أسْلَمُ وأحْكَمُ، او التأويل بما يليقُ بجلال ذاته تعالى.

﴿وَ﴾ لما أدرك موسى عليه السلام هذا الحادث العجيب الرهيب ﴿خَرَّ مُوسَى﴾ وسقط من هول ما رآه ﴿صَعِقًا﴾ صاعقا وصائحا وغشي عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ وعاد إلى ما كان عليه قبلُ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ من كل ما يجري على القلوب من صفاتك وأحوالك، وتنزيهاً لك من مشابهة خلقك في شيء ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الإقدام على سؤال الإراءة بغير إذن ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك في هذه الأمة التي أرسلتني إليها، أو أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد بدون إذنك في هذه النشأة الدنيوية.

واستدل أهل السنة على جواز رؤية الباري سبحانه وتعالى في هذه النشأة بهذه الآية من وجهين: الأول: أنها لو لم تكن ممكنة ما سألها موسى عليه السلام؛ لأن الرسل الكرام لا يطلبون المستحيل من الله تعالى، لأن طلب المستحيل خارج عن الأدب.

والثاني: أن الله تعالى علق رؤيته لذاته العلية باستقرار الجبل عند ظهور التجلي وذلك أمر ممكن والمعلق بالممكن ممكن. والمنكرون ردوا الأول بأنه ليس من الواجب للرسل عليهم السلام العلم بدقائق الأعمال والأحوال للباري فيجوز أنه لم يكن عند ذلك عالما بالامتناع. والثاني بأنه تعليق بالاستقرار عند التجلي، والاستقرار عند التجلي ممتنع. وعورض بأن الممتنع الاستقرار بشرط التجلي لا في وقت التجلي، وهذا ممكن.

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْـطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَـالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144) وَكَتَبْنَـا لَـهُ فِي الْأَلْـوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُـلِّ شَـيْءٍ فَخُـذْهَا بِقُـوَّةٍ وَأْمُـرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145) سَأَصْـرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْـدِ لَا يَتَّخِـذُوهُ سَـبِيلًا وَإِنْ يَـرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَكَـانُوا عَنْهَـا غَـافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَلِقَـاءِ الْآخِـرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147)﴾

وبعد أن أعلم الله تعالى رسوله موسى أنّ رؤيته لا تقع، وجرى ما جرى سلّاه، وأكرمه ببيان خلعة الاصطفاء بالرسالة وتوابعها و﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي الموجودين في زمانك من بني إسرائيل ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ أي بأسفار التوراة ﴿وَبِكَلَامِي﴾ أي وبتكليمي إياك من غير واسطة. والمراد فضّلتك على غيرك بمجموع هذين الأمرين فلا ترد رسالة هرون عليه السلام لأنه وإن كان رسولا لكنه لم يتلق كلام الله تعالى بلا واسطة. وكذلك لا يرد السبعون الذين كانوا معه في هذا الميقات وسمعوا خطاب الباري سبحانه وتعالى لأنهم لم يكن لهم من الرسالة شيء ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أي ما أعطيتك من شرف الاصطفاء ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لما أنعم الله به عليك ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إليه من أحكام العقائد والحرام والحلال والمعاملات والأحوال الشخصية وغيرها من المهمات ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل من الجار والمجرور أي كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. واختلف في عدد الألواح وفي

جوهرها ومقدارها، أما عددها فقيل: إنها كانت عشرة، وقيل سبعة، وقيل لوحين. وأما جوهرها فقيل: إنها من سدر الجنة. وأما مقدارها فكان اثني عشر ذراعاً.

أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة، كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً)) ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي وقلنا له خذها بجد وحزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ الباء زائدة أي يأخذوا أحسنها كالصبر بالنسبة إلى الانتصار والعفو بالنسبة إلى الاقتصاص، أو بأحوطها كترك الشبهة خوفاً من الحرام. أو بالعزائم في الاختيار، وبالرخص في الاضطرار. والأخذ بالأحسن على هذا مندوب، أو يأخذوا بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره.

والأمر على هذا للوجوب ويؤل هذا التفسير إلى أنه يجب الأخذ بالواجب في المطلوبات المأمورات، وترك الحرام في المنهيات. وهذا سبيل من اكتفى بما يمنع العقاب عن نفسه وإن لم يكتسب ما يوجب زيادة الفضل. وقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ للتأكيد على الأخذ بالأحسن يعني إنكم إذا أخذتم بأحسنها تأوون إلى دار الصادقين وسأريكم في الآخرة دار الفاسقين وهي الجحيم وبئس المصير. أو معناه اثبُتُوا على هذا الدين القويم واعلَموا أن العاقبةَ للمتقين وسأريكم دار الفاسقين الخارجين عن الطاعة: فرعون وأتباعه خاوية على عروشها، وخالية عن فروشها، لتعتبروا بها، فإن السعيد من اتعظ بغيره ليبقى على سعادته وخيره، ولا يحلّ بهم ما حلّ بغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ الآية... استئناف سيق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لإهمال التفكر في آيات الله الواردة في الألواح. معناه: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ عن الانتفاع ﴿عَنْ آيَاتِيَ﴾ الأشخاص

﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بإطاعة هواهم الباطل ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي وان يبصروا الآيات المحسوسة بالحواس لا يؤمنوا بأنها من الله تعالى أو أنها نزلت للزجر عن معصية الله، وإن يعلموا تلك الآيات بالعقل كابتلاء قوم واستئصالهم واستيلاء قوم على مآربهم وأموالهم ومَنالهم لا يربطونها بأمر الله تعالى، أو أنّها تأنيبٌ لقوم وتحبيب لآخر ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ أي طريق الهدى والسداد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يمشون عليه فلا يهتمون به ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ والضلال وهو اتباع الهوى واجتناب الهدى ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ معناه وهذه الصفة الرذيلة صارت ملكة لهم بسبب وفور الغفلة وقلة الشعور، وحصول الرين على قلوبهم حتى كذّبوا بآيات الله وصاروا كافرين.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وسقطت عن الاعتبار ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إلّا جزاء أعمالهم، والجواب لا.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)﴾

قوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي واتخذ السّامري الصائغ الفنّان وقوم موسى على خداع السامري والموافقة معه من بعد ذهاب موسى إلى الجبل للمناجاة وأخذ التوراة ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ أي من حُليّ الإسرائيليين ﴿عِجْلًا﴾ أي هيكلاً على صورة العجل بأن صنع قالباً على شكله، ثم جاء

بالحلي المأخوذ من القوم فَأذابَهُ وصبه فيه فأخرج منه عجلاً ﴿جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ صوت كصوت العجل، فاتخذوه إلهاً بإضلال السامري لهم. والقوم في هذا الأمر كانوا على غاية من كفران النعمة والسفاهة والدناءة في الهمة ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ لا بالذات مباشرة ككلام الله تعالى مع موسى، ولا بالواسطة ككلامه تعالى مع الناس بواسطة جبريل ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ولا يعرف شيئاً ولا يعقل حقيقة حتى يهدي عباده إليها. ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ بدون أيّ داع ومبرّر وبدون أيّ دليل أو حجة تقرّر، ﴿وَكَانُوا﴾ في ذلك كافرين بمقدسهم و﴿ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم في حقوق الدنيا والدين. ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي تندموا عما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي علموا بضلالهم بسبب اتخاذ العجل لها ﴿قَالُوا﴾ داعين متضرعين ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوبة علينا ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن سيآتنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في الدنيا لإضاعتنا حلينا وذهبنا بلا فائدة، وفي الآخرة بعقاب هذا الكفر الواضح القبيح.

وجملة ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ بالفعل الماضي المجهول كناية عن شدة الندم، فإن النادم إذا اشتد ندمه عض يده بقوة حتى يظن أن بعض اسنانه سقطن في يده فكانت الأسنان ساقطة واليد مسقوطاً فيها وهو معنى سُقِط في أيديهم. وذكر بعضهم أن هذا التركيب لم يسمع قبل نزول القرآن ولم تعرفه العرب ولم يوجد في أشعارهم وكلامهم ولذا خفي معناه على الكثير. ثم هنا أمور:

الأول: إن المفسرين اختلفوا في ذلك العجل، فكثير من المفسرين قالوا بأنه كان عجلاً له حياة حقيقية، لأن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فصار حياً، وأيدوه بأن الخوار إنما يكون للبقر لا لصورته. وقليل منهم يقولون: إن العجل كان عجلاً في

الصورة، ولم يكن حياً، لأن ظهور الحياة في مادة مصوغة جامدة على يدي إنسان فاسد كالسامري لا يمكن بحال من الأحوال، لأن ظهور المعجزات على يد الكاذبين ممتنع والمراد بالخوار صوت يشبه صوت العجل، وكان من دقة صناعة السامري فإنه صنع في هيكل العجل أجواءً خالية، وجعل عليها منافذ تفتح وتسد، وكلما فتحت دخلتها الرياح وظهرت أصوات كأصوات العجل، ومثل ذلك موجود في ساعات الزمان التي تصوت كالطيور أو السباع أو غير ذلك..

ويقول في روح المعاني: وعن السدي أنه كان يخور ويمشي، وعن وهب نَفْيُ الحَرَكَةِ. والآية ساكتة عن إثباتها، وليس في الأخبار ما يعول عليها فالتوقف عن إثبات المشي أولى. وليست هذه المسألة من المهمات الاعتقادية.

الثاني: إن الحلي الذي صيغ منه العجل المشهور أنه كان حليَّ الأقباط وأخذته نساء بني إسرائيل عارية في بعض المناسبات، ولما وقع الفراق بين الفريقين صار هذا المال المنسوب إلى قوم من الكفار كالفيء العائد إلى المسلمين، على أنه يقال إن الأقباط أخذوا أموال بني إسرائيل بكثرة، فيكون الاستيلاء عليه من باب الظفر بأموال من غصب منك أموالاً ويجوز للمغصوب منه القبض على حقه ظفراً أينما وجده. وتسميتها أوزاراً من جهة أنها كانت أموالاً للظالمين مكتسبة من جهات غير مشروعة. ومنهم من قال إن الحلي من أموال بني إسرائيل لبعد أن يوافق الأقباط على إعارة ذلك المقدار من الحلي إلى قوم ممقوتين مهتوكين مستضعفين تحت أيديهم، وإنما سميت أوزاراً على هذا لأن حلي النساء المسخرات لقوم طغاة لا يخلو عن استعمالها في مناسباتهم المحرّمة، فهي كأنها اوزار.

الثالث: إنه كما يقال العجل لولد البقر يستعمل الحوارُ لولد الناقة، ومُهْر لولد الفرس، وجَحْش لولد الحمار، وَحَمل لولد الشاة، وجَدْيٌ لولد العنز، وشِبْلٌ لولد الأسد، ودغفل لولد الأسد، وجرو لولد الكلب، وخشف لولد الظبي، وغَفْرٌ لولد التيس الجبلي، وفَرْعَلُ لولد الضبع، وديسم لولد الدّبّ، وخنوص لولد الخنزير، وحريش لولد الحية، ورأل لولد النعامة، وفروج لولد الدجاجة، ودرص لولد الفأر، وحسل لولد الضب إلى غير ذلك... وكما يقال خوار لصوت العجل والبقر يقال لصوت الغنم: الثغاء، وللمعز اليعار، وللتيس النبيب، وللكلب النباح، وللأسد الزئير، وللذئب العواء والوعوعة، وللثعلب الضباح، وللخنزير القباع، وللهرة المواء، وللحمار النهيق والسحيل، وللفرس الصهيل والضبح والقنع والحمحمة، وللناقة الرغاء، وللفيل الصني، وللضبي البتغم، وللأرنب الضميب، وللظليم العرار، وللبازي الصرصرة، وللصقر القعقعة، وللنسر الصفير، وللحمام الهدير، وللقمري السجع، وللعصفور السقسقة، وللغراب النعيق والنعيب، وللديك الصقاء والزقاء، وللدجاجة النقيقة والقوقاء، وللحية الفحيح، وللضفدع النقيق، وللعقرب الصبيئ وكذا للفأرة، وللجراد الصرير. كل ذلك ذكره صاحب روح المعاني رحمه الله تعالى لمزيد اطلاع الطّالبين.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى﴾ عليه السلام أي من الطور ﴿إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ شديدَ الغَضب مما أحدَثه قومُه بعدَه ﴿قَالَ﴾ لهم مُستنكراً أعمال كلهم المحدثين من سوء ما أحدثوا وغيرهم من قلة غيرتهم وسكوتهم عن المفسدين: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ وبئس فعل لإنشاء الذم، فاعله مستتر فيه، وما نكرة موصوفة بالجملة الفعلية، والمخصوص بالذم محذوف، والتقديرُ بئسَ خِلافةً خلفتمونيها من بعدي خلافتكم. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أعجلتم عما أمركم به ربكم من انتظار رجوعي إليكم واستَطلَتم مدةَ مكثي في الطور من غير شعور بأن الرسول مأمور لا آمِرٌ.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي وضعها على الأرض كالطارح لها من شدة غضبه حميّة لدين التوحيد الذي أُرْسِلَ موسى ومَن سبقه ومَن لحقه ومَن بعده لنشره في الأمة، فإن الألواح وإن كتب عليها الأحكام من كل باب، لكن نسبتها إلى هَدَف الأنبياء والمرسلين وشرف توحيد رب العالمين نسبة الكواكب إلى الشمس، على أن القوم الذين قام موسى عليه السلام على قدم الجدّ وساق الاهتمام لتربيتهم لما ظهرت فيهم هذه النكثة الفاسدة لم يبق لسيدنا موسى أمل في الدوام على خدمتهم وتربيتهم، فإن العمامة علامة العالم، فإذا مات العالم لم يبق للعمامة اهتمام وقيمة بين الناس.

ويؤيد أن غضبه عليه السلام كان لحمية الدين ما أخرجه أحمد وغيره وعبد بن حميد، والبزار وابن أبي حاتم وابن

حيان والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يرحمُ الله موسى ليس المعاينُ كالـمُخبَر؛ أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومَه فُتِنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسّر، وأخَذَ برأس أخيه يَجُره إليه)) من فرط غيظه وغَضَبه المؤدي إلى خروجه عن الحالة الاعتيادية فسرى إليه أن هذا الحادث نشأ من كسله وعدم قيامه بواجب الرّعاية ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ بحذف حرف النداء على المنادى وإضافته إلى الأم للترقيق، وإلا فهو كان شقيقاً له، وأمَّ بالفتح لكونها بقية أما بالألف النائبة عن ياء المتكلم، أي قال هارون مخاطباً موسى عليهما السلام: يا ابن أمّي ﴿إِنَّ الْقَوْمَ﴾ الذين أحدثوا ما أحدثوا ﴿اسْتَضْعَفُونِي﴾ أي قهروني ولم يبالوا بي ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك العمل الفاسد ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ فلا تفعل بي ما يفرحون به فإني بذلت ما في طاقتي فلم ينفع ذلك ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ معدوداً في عدادهم، ولا تعتقدني واحداً من الظالمين.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام لما عاده الهدوء: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ الواسعة بزيادة ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي سعوا في صنعه وتزيينه للعبادة في ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بإحراق آلهتهم ونَسْفِه في النهر ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله بما لا يناسب قدسيته ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أية سيئة كانت ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي بعد مباشرتها ﴿وَآمَنُوا﴾ واشتغلوا بالإيمان والأعمال التابعة له ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة المقرونة بالإيمان ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وافر الرحمة مبالغ في إفاضة أنواع الرحمة عليهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ معناه لما زال عن قلب موسى التهاب القوة الغضبية باعتذار أخيه وإنابة القوم ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي وفي ما كتب فيها ﴿هُدًى﴾ إلى الأحكام ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بإرشاد الأنام ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يخافون ﴿وَ﴾ لما أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل للاعتذار عن عبادة العجل ووعدهم موعداً ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ المقرر للكلام مع الباري تعالى واعتذارهم مع موسى عليه السلام عن عبادة العجل، واختار من كل سبط من الأسباط الاثني عشر ستة، فوصل العدد اثنين وسبعين فقال عليه السلام: ليتخلف منكم رجلان. فتنازعوا فيما بينهم، فقال: لِمَن قَعَد منكم مثلُ أجْر مَن خَرَج، فقعد كالب ويوشع، ثم خرج بالسبعين إلى طور سيناء، فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى غشي الجبل كله، ودنا موسى ودخل فيه، وقال للقوم: ادنوا فدنوا، حتى إذا دخلوا الغمام وقعوا سجداً، فسمعوه وهو سبحانه

يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية فوعظهم، ولم ينفع، وألحّوا في طلبها وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي لا نصدّق بقولك أن الذي يتكلم معك هو الله حتى نراه جهرة، فأخذتهم الرجفة أي الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها. والكثير على أنهم ماتوا، والقليل على أنه أغمي عليهم بحيث ظن موسى عليه السلام أنهم ماتوا ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل رجوعي إليهم من الطور سابقاً، أو من قبل أن نصعد الجبل إليك للاعتذار ﴿وَإِيَّايَ﴾ أي أهلكتني معهم قبل الصعود إليه، فلم يكن الناس يظنون أن هلاكهم بسبب عمل صادر منّي. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ الخفاف العُقول ﴿مِنَّا﴾ من صنع العجل وعبادته ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ليس الحادثة أولاً وأخيراً إلا ابتلاء منك وامتحاناً للأمة ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ من الجاهلين بأسرار أعمالك وحكمتها ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ من العارفين ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ أي متولينا والقائم بأمورنا في الدارين ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرطنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بإفاضة آثار الرحمة علينا ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ التي ابتلينا فيها ﴿حَسَنَةً﴾ عفواً وحياة طيبة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي واكتب لنا في الآخرة حسنة وهي المثوبة الحسنى ولقاء وجهك الكريم ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني إنا رجعنا إليك للعفو والرحمة، وأنت أرحم الراحمين.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جواب دعائه: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ من عبادي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي شأنها الوسعة والشمول والاستيعاب ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي تلك الرحمة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة عليهم للمستحقين منهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا﴾ كلها ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً مستمراً بعدك في العصور الآتية، وهم أتباعك الذين

يؤمنون بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم كما آمنوا بالتوراة ثم بالإنجيل وأمة ذلك الرسول الناشئة في عصره وبعده، وينادي على هذا المعنى بوضوح قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية...

تنبيه: فسرت قوله تعالى ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ بما علمت، وحملت الميقات على الميقات المقرر من الله تعالى لاعتذار بني إسرائيل عن عبادة العجل، لأنه هو الذي اعتقده أكثر المفسرين واستقر في قلبي واطمأن به والله اعلم.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿يَأْمُرُهُمْ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم الذين، أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل ﴿الرَّسُولَ﴾ الذي أرسله الله لتبليغ الأحكام بالكتاب المختص به أو المشترك بينه وبين غيره كتوراة موسى عليه السلام ﴿النَّبِيَّ﴾ الإنسان المختار الذي رفع الله رتبته وأخبره بما قرره سواء كان له كتاب أولاً ﴿الْأُمِّيَّ﴾ الذي لا يقرأ ولا يكتب وهو منسوبٌ إلى أمة العرب، لأن الغالب عليهم ذلك، أو إلى أم القرى لأن أهلها كانوا كذلك، أو إلى الأمّ كأنه على الحالة التي ولدته أمّه عليها ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ باسمه ونعوته الشريفة،

عندهم ظرف لمكتوباً ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ اللذين يعتد بهما بنو إسرائيل ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والمعروف ما استحسنه الشرع، والمنكر ما استقبحه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ وفسر الطيبات بالأشياء التي يستطيبها الطبع السليم، والخبائث بما يستخبثها كالدم. وفسر بعضهم الطيب بما طاب في حكم الشرع، والخبيث بما خبث فيه كالربا والنشوة. وجوز بعضهم كون الطيب بمعنى ما استطابه الطبع أو الشرع والخبيث بما يستخبث طبعاً أو شرعاً ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يمنعه من الحركة لثقله، أي يخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب، أو منه ومن البدن، وإحراق الغنائم، وتحريم السبت، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعيين القصاص في العمد والخطأ، وغير ذلك من الأحكام الثقيلة ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ أي صدقوا برسالته ونبوته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عظموه ووقروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه في الدين ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي واتبعوا أحكام القرآن الذي هو كالنور في الظهور، أو القرآن الذي هو نور القلب ووسيلة بصيرته واهتدائه إلى الحق. ومعنى أنزل معه أنه أنزل مع نبوته أو إرساله عليه السلام. ومما لاشك فيه أن اتباعهم للكتاب الذي أنزل معه يوجب اتباعهم لسنته لأن فيه الأمر بإطاعة رسوله والاقتداء به في الأحكام الغير المختصة، وكذلك اتباعه يوجب اتباع الإجماع واستدلال الأئمة المجتهدين لأن في الكتاب إيجاب ذلك كما لا يخفى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ معناه اولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة هم الفائزون بالمطلوب لا الموصوفون بأضداد ذلك، وفي ترتيب الحكم على اسم الإشارة إشارة إلى علية الأوصاف المذكورة سابقا للحكم عليهم بالفلاح بل لحصر الفلاح فيهم وهو ظاهر.

تنبيه: على ما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية... قد نزل في الكتب المنزلة على الرسل عليهم السلام بشارات بظهور نور سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، لاسيما التورية والإنجيل. وذكرها يحتاج إلى اَمَد كثير وفراغ وافر. ونكتفي بنبذة مما في التورية والإنجيل اكتفاء باليسير عن الكثير. ففي الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ألف وثمانمائة وأربع وأربعين ميلادية ما يلي:

(وقال: جاء الرب من سيناء، واَشَرق لنا مِن ساعيرَ، واستعلن من جبل (فاران)، ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار) إنتهى وهذا الباب هو الباب الأخير من سفر التثنية. وفي الآية الأولى منه أن هذه البشارة قالها موسى قبل وفاته مباركا بها بني إسرائيلـ وفي التراجم الأخيرة (سعير) بدل (سنة) والمراد بالسنة الشريعة. وترجمة الجزويت عن يمينه قَبَسُ شريعة لهم، وليس فيها (ألوف الأطهار) فمجيء الرب من سيناء إعطاء التوراة لموسى عليه السلام، واشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام واستعلانه من جبل (فاران) إنزاله القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنّ فاران جبل من جبال مكة. فقد جاء في بيان حال إسماعيل عليه السلام من سفر التكوين 21-20 (وكان الله معه وسكن في البريّة وصار شابّا يرمي بالسهام ٢١، وسكن برية فاران وأخذت له أمّه امرأة من أرض مصر) ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كان سكناه بمكة.

وفي سفر سيدنا شعياء من أنبياء بني إسرائيل عليه السلام ما ترجمته:

(يا شعيا إني إرسل نبياً أمياً إلى بني آدم، وافتح به عيونَ العُمْى، وآذان الصُّمّ، وقلوبا مستورة بالغشاوة، مولده مكة ومُهاجَرُه المدينة، وقوته في الشام، وذلك الرسول عبد متوكل على الله، ومختار من الأمة، وخالدٌ

ومحبــوب، وهــو رءوف على النــاس بحيث لا يقابــل الإســاءة بالإساءة بل بالعفو والسماح، يتـأثر على طفـل يـتيم في حضـن أمه، وعلى حَمولة حِملُها ثقيل، ليس قاسياً ولا كلامه مُراً، ليس له صخب في الأسواق، ولا يتجمل بما ليس بمعروف، ولا يخرج من شـفتيه القـول البـذيء، وحيـاؤه كثـير بحيث لـو مـر على القصب لا يظهر من مروره الصـوت، أُرْسِـلهُ بشـيراً للطـائعين، ونذيراً للعاصين الذين لا يأخذون بتعاليمه. أجعل أمته خير الأمم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويخلصون للـه في تطبيق أحكامه. وتلك الأمـة يراعـون حسـاب السـنين والشـهور والأيـام والليـالي لأداء شـعائر دينهم، يوحّـدون اللـه ويسـبّحونه ويحمدونه ويكبّرونه، واَجْعَل ثنـائي في قلـوبهم، ويَصـطفّون في المساجد للعِبادة كصُفوف الملائكـة في أطـراف العـرش. تلـك الأمة أحبّائي ومُعينون لديني بهم اَنْتَقِمُ ممّن يعصـيني. ويصـلّون قياما وقعودا ابتغـاء مرضـاتي، ويركعـون ويسـجدون لإطـاعتي، ويَخْرجـون من بيـوتهم أُلُوفـاً للجهـاد في سـبيلي، أختِمُ الأديـانَ بدينهم، والكُتبَ بكتابهم، وإذا اشتدّ بهم الغضب قـالوا: لا الـه الا الله، وفي وقت العجز والملال يقولون: سبحان الله. ويغسـلون وجوههم وأطرافهم للعبادة، ويحفظون كتبهم. أجْعَلُ تلـك الأمـة أكبر الأمم والفضل لمن كـان على دينهم وآدابهم، ذلـك فضـلي نؤتيه من نشاء، والله ذو الفضل العظيم).

وفي آخر أبـواب إنجيـل يوحنـا عن الـتراجم العربيـة المطبوعـة سنة ألـف وثمانمائـة وإحـدى وعشـرين، وسـنة ألـف وثمانمائـة وإحدى وثلاثين، وسنة ألف وثمانمائـة وأربـع وأربعين في لنـدن: (إن كنتم تحبونـــني فـــاحفظوا وصـــاياي وأنـــا أطلُب من الأب فيعطيكم (فار قليط - روح القدس) ليثبت معكم إلى الأبـد روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يراه، لأنه ليس يراه ولا يعرفــه، وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهـو ثـابت فيكم). إلى آخـر مـا ذكره

هناك... ويكفي لمن آمن بالله وكتبه في تشريف سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82)﴾

ولما ذكر سبحانه وتعالى في ماتقدم بعضاً من نعوت الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف أتباعه أمَره صلى الله عليه وسلم أن يعلن رسالته على عالَم العقلاء، فقال مخاطباً له صلى الله عليه وسلم:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الأبيض والأسود والأحمر والأسمر وأول ما أعلنه لكم أنه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن التوحيد أساس الطاعة ورأس مال البضاعة وأعظم آثاره في عالم الوجود أنه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فالحياة أهم النعماء والموت أدهم البلايا تحت أديم السماء ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الواحِدِ المُحْيي المميت الباعث للأموات ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ المبعوث دليلا للخيرات ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ الآيات البينات ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ في أوامره ومناهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ الآية... معناه ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة عظيمة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يرشدون بالإرشاد وبالوجه الحق الموافق لما أنزله الله تعالى ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي وبالحق يحكمون فيما بينهم. والآية جاءت لبيان أنه أنزل الشرائع على رسله من آدم إلى الخاتم. فكل أمة تعمل بما أنزل الله في وقت ذلك الرسول وبعده إلى نزول الشريعة الناسخة، فهي على الحق كالأمة المتبعة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وأما بقايا تلك الأمم السابقة بعد زوال شريعتها ونسخ دينها فواجبها الإيمان بالشريعة الجديدة النازلة. فأهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إن اتبعوه وقبلوا شريعته أصلا وفرعا اعتقادا وعملا فهم يعتبرون مؤمنين، وإلا فليسوا مؤمنين ولا علاقة لهم بالمثوبة الحسنى يوم الدين.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ أي وصيرنا بني إسرائيل ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ أي اثنتي عشرة فرقة أسباطا. وقوله ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من العدد وليس تمييزا له، وإلا لكان الأسباط ستة وثلاثين لأن لفظ أسباط جمع وأقله ثلاثة، وإثنا عشر جمعة مثلّثا يبلغ ذلك، وقوله ﴿أُمَمًا﴾ بدل بعد البدل من العدد ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ عند غلبة العطش عليهم ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فضربه ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ﴾ أي انفجرت منه ﴿عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ أي قد عَلم كلّ سبط من الأسباط

العين المختصة بهم بعلامة خاصة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ أي وجَعَلْنا الغمامَ بحيث يلقى عليهم ظلّه ليحفظهم من حرّ الشمس ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ أي الترنجبين والسماني، فكان كل منهم يأخذ ما يكفيه ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لهم ذلك، فظلموا وكفروا بهذه الأنعم الجليلة.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بذلك ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن وبال الكفران والعصيان من الخسران والعذاب يعود إليهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162)﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ إذا نظرنا إلى سرد الآيات الشريفة وجدناها حاكية عن سلسلة من أحوال بني إسرائيل بعد إنجائهم من قهر فرعون وأتباعه فحالتهم السيئة الأولى أنه لما ذهب موسى عليه السلام إلى الطور لأخذ التوراة اتخذوا العجل المسبوك من أعمال السامري إلها وعَبَدوه. وحالتهم الحسنة الثانية أوّلا والسيئة أخيرا: هو أنهم ذهبوا مع موسى الى الطور لتقديم المعذرة إلى الله عن اتخاذ العجل وعبادته، وبعد هذا الإقدام الحسن جاءوا بسيئه هي إلحاحهم على رؤية الباري جَهْرَةً، فأخذتهم الصّاعقة، وبعد ذلك خلصوا بدُعاء موسى عليه السلام وابتهاله إلى الله الرءوف الرحيم.

وحالتهم الثالثة: بقاؤهم في صحراء سيناء تحت حرّ الشمس مع فقد الماء والزاد وترحم الباري تعالى عليهم بمعجزة انفجار العيون الموافقة لعدد

الأسباط من حجر واحد بحيث يعلم كل سبط مشربه لدفع العطش وإنزال المن والسّلوى عليهم لدفع المجاعة في تلك الصحراء القاحلة.

وحالتهم السيئة الرابعة: مخالفتهم لأمر موسى عليه السلام بأن يدخلوا قرية اريحا أو بيت المقدس والابتهال إلى ذي الجلال لحطّ الذنوب فتوقفوا عنِ الدخول في زمن حياة موسى عليه السلام إلى أن جاء عهد يوشع، أو دخلوا ولكن بدّلوا ذلك القول الذي قيل لهم بغيره حيث أمروا بأن يقولوا: مقصودنا حطة وعضو لذنوبنا، فقالوا: مقصودنا حنطة نأكلها. فيقول الباري سبحانه ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ أي لبني إسرائيل الموجودين مع موسى عليه السلام في الصحراء ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ القريبة منكم وهي بيت المقدس أو أريحا، ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي من مطاعمها أقواتها وفواكهها ومستلذاتها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ شرقا أو غربا جنوبا أو شمالا ﴿وَقُولُوا﴾ إذا دخلتم: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي مطلوبنا حطة وسقوط لذنوبنا ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب بيت المقدس او باب أريحا ساجدين، إذا أطعتم في ذلك ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ كلها ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فضلا وإحسانا زيادة على ما استحقوا من المثوبات ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالتوبة والإنابة والاستغفار ﴿قَوْلًا﴾ آخر ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

ولما خالفونا ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إثْرَ ما فَعلوا ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ عذابا نازلا من السماء عقابا ناشئا من الهواء الفاسد وهو مرض الطاعون اعاذنا الله تعالى منه ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق. فإن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فلما غيروها غيرها الله.

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَـانَتْ حَاضِـرَةَ الْبَحْـرِ إِذْ يَعْـدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُـرَّعًا وَيَـوْمَ لَا يَسْـبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163)﴾

قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ عطف على اذكر المقدر المقدّم. أي واسال اليهود المعاصرين ﴿عَنِ﴾ خبر ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ مُشرِفة على شاطِئِهِ ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾أي يتجاورون حُدود الله بالإصطياد يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي ظاهرةً على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ويوم لا يدخُلون في السبت لا تأتيهم ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي هكذا نعاملهم معاملة المختبرين ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون ويذرون.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي جماعة من صلحاء بني إسرائيل الذين كانوا يسعون بجد واهتمام في منع فساق بني إسرائيل عن الأعمال الرديئة والصيد في يوم السبت، أي قالت تلك الجماعة لجماعة أخرى كانت تحرص على إرشاد الضالّين منهم إلى الحق: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي مُبيدهم ومُسْتأصلهم عن وجه الأرض ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون الإبادة والاستئصال ﴿قَالُوا﴾ أي الجمع الذين قيل لهم لم تعِظون: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي نعظهم معذرة إليه تعالى حتى لا نُنْسَبُ

إلى القصور والتفريط في الإرشاد ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وتَرَكُوا الاستماع الى مواعظهم ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ لأنهم أدّوا حق الوعظ والإرشاد ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالاعتداء مخالفة الواعظين ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي تَعَدَّوا على الحَق وتكبّروا وعَتَوا عن قبول المواعظ الحسنة ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ روي عن ابن عباس: أن اليهود إنما افترض عليهم اليوم الذي افترض عليكم، وهو يوم الجمعة فخالفوا إلى يوم السبت واختاروه، فَحَرّم عليهم الصيد فيه وابتلوا به، فكانت الحيتانُ تأتيهم يوم السبت شُرَّعاً بيضاً سِماناً حتى لا يرى الماء من كثرة السمك عليه، فمكثوا ما شاء الله لا يَصيدون، ثم أتاهم الشيطان فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض والشبكات، فكانوا يسوقون الحيتان إليها فيه، ثم يأخذونها يوم الأحَد! فعذبهم الله تعالى بأن جعل المردة منهم قردة.

وعن قتادة: أن الشبان صاروا قردة، والشيوخ خنازير، وكان الحادث في عهد سيدنا داود عليه السلام، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام.

﴿وَإِذْ تَـأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ مَنْ يَسُـومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ الضمير المجرور راجع إلى اليهود العاتين عن أمر ربّهم، فإن القوم كان منهم الصالحون ومنهم الطالحون العاتون، ومن العاتين مَن جعلهم اللهُ قردة وخنازيرَ وأماتهم بعد ثلاثة أيام، فالباقي لكونه مرجعا للضمير هو الباقي <46>

من العُتاة مع أن الظاهر أن الحكم مستوعب لليهود بأسرهم فإرجاع الضمير إلى الموجودين عند الحادثة وأمثالهم في جنسية اليهود. ولا شبهة في أن المراد اليهود الذين ثبتوا على الكفر واليهودية لا الذين آمنوا منهم واستقروا في الإسلام، وليس المراد أيضا أنهم يبعث عليهم من يعذبهم في كل زمان ومكان، فإن ذلك خلاف سنة الله تعالى بل المراد بسبب استمرارهم في غالب الأوقات على مخالفة الأنبياء الذين أرسلوا إليهم ونقضهم المواثيق وقتلهم الأنبياء وعتوهم على موسى وهارون في أمور كثيرة قرر الله تعالى أنه ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وقد حقق الله ذلك منذ زمان سيدنا يوسف أنه كلما صارت لهم شوكة وقعت عليهم بوائق ومهلكات إما بين اليهود أنفسهم بعضهم على بعض أو من مجاوريهم كأحوالهم مع العمالقة وغيرهم من المجاورين لهم، أو من ابتلائهم بظالم يستبدّ في القتل والفتك كابتلائهم بفرعون ملك الأقباط، وبملوك الروم وبختنصر ملك بابل ثم ابتلائهم بإخراج عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهم من الجزيرة، ثم ضرب الجزية عليهم، ثم تفرقهم في البلاد الآسيوية والأوربية وغيرها كما هو مسطور في التواريخ وذكرنا في سورة البقرة أدوارهم الخمسة التأريخية وأوضاعهم فيها. وبالخاصة ذكر الله في سورة الإسراء إفسادهم في الأرض مرتين وعلوهم علوا كبيرا، وذكر معاقبته لهم بعد كل منهما أشد عقاب وهددهم في الأخير بقوله العظيم الأكيد ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ وقد تحقق عودهم وسيتحقق عود الله عليهم ومن شرطِ كل شرطٍ جزاء. على أنهم في هذا الزمان الذي يظن بوجود شوكتهم ليست الشوكة منهم ولا القوة من أنفسهم، وإنما صارت أرض فلسطين قاعدة حربية بحرية لبعض المستعمرين ولم يأمن على غيرهم فجعلهم حُراساً هناك باسم الدولة اليهودية والكيان الصهيوني، ولو تركهم ذلك المستعمر سنة لم يبق لهم مجال البقاء. ومن جهة أخرى كما أن <47>

الله انتقم من بني إسرائيل بسبب عدوانهم وبغيهم وخروجهم عن الطاعة كذلك انتقم من المسلمين في الديار الإسلامية لاسيما المجاورين لهم من حيث أنهم ما أدوا واجبهم لصيانة الدين بالاتفاق، ووحدة الكلمة، وجمع القلوب، واتفاق عسكري فيما بينهم ليخافهم اليهود وغيرهم من الأعداء. بل وقد تركوا نصرة قواعد الدين، وعقائده حتى عاد الإسلام غريبا والمسلمون غرباء، ولو عادوا إلى عقائدهم المتينة ومبادئهم الحصينة ما كانوا يبتلون بما ابتلوا به اليوم، ولا تصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. ونسأل الله تعالى كشف الكروب بجمع القلوب والاستمساك بالعروة الوثقى فإنه سبحانه له سنه لا تتبدل من جانب الإيجاب والسلب، ولذلك ختم الآية بقوله الكريم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)﴾

قوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي وفرقنا بني إسرائيل في الأرض حالكونهم جماعات كثيرة متمايزة في الأعمال والأفكار والإدارات بحسب مقتضيات البيئة والدولة التي عاشوا فيها، أو إن كونها أمما باعتبار

أنهم من سلالة الأسباط الأثني عشر، وكل سبط له تقاليد وآداب، وفي الآية أيضا تأييد لمحتويات الآيات السابقة. يعني لما قررنا أن لا تكون لهم شوكة شائكة ووحدة مباركة..
فرقناهم في العالم وما جمعناهم في أرض واحدة على كيان واحد ودولة واحدة، لأن وحدتهم سبب لإعلاء مقامهم وذلك مخالف لما أردنا لهم، وهذه الآية إن كانت حاكية عن أوضاع اليهود قبل بعث سيدنا محمد فذلك، وإن كانت منبئة عما يجري عليهم ويحصل منهم ففيها معجزة الإخبار بالغيب. ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ الثابتون على الإيمان بالله ورسله ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ وهم المتزلزلون الذين امتثلوا بعضَ الأوامر دُون بعض والمجتنبون بعض المنهيات دون بعض. ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾ من الصّحة والخصب ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ من المرض والجدب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما كانوا عليه إلى ما يرتضيه الشرع المبين.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ بسكون العين، لم تتحرك عيونهم لإبصار الحقائق على الوجه اللائق ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي التوراة من أسلافهم الأشراف لكن لم يطبقوه بالعدل والإنصاف ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي يأخذون متاع هذه الدنيا الدنية ولم يترقوا إلى طلب الرتب العالية من الإيمان والإخلاص ولزوم الطاعة والاجتناب عن المناهي ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في جواب من يلومهم ويقول لهم ويلكم لا تقربوا الدنايا فإنها عيون الخطايا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ولا يؤاخذنا الله تعالى بما نعمل على مقتضى إرادتنا ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ يعني وإن يأتهم أثناء الوعظ والزجر عن المعاصي شيء من حطام الدنيا يأخذوه، كأنهم لم يسمعوا وعظ المرشدين بحجة أنهم أولاد آباء من الأنبياء ولا يعاقبون! ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾أي الميثاق المكتوب في التوراة ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو ان الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولا تزر وازرة وزر

أخرى، وأن الناس سواسية أمام الحق ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معطوف بحسب المعنى على مدخول ألم يؤخذ، أي ألم يدرسوا ما في الكتاب من أنه يجب على المكلف أخذ طريق الصواب والاستقامة عليه.

﴿وَالدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ من دار الدنيا ومطامعها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الحق أحق بالاتباع والله يحب الصالحين.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قال مجاهد وابن زيد: هم مؤمنوا أهل الكتاب، وقال عطاء: هم أمة محمّد صلى الله عليه وسلم. ومعنى الآية على الأول: الذين تمسكوا بالتوراة في أمور دينهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة عليهم، وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم عندما صادفوا زمانه. وعلى الثاني: الذين تمسّكوا بالقرآن وعملوا بما فيه، وأقاموا الصلوات المفروضة في أوقاتها واستمروا على التمسك بذلك. ف ﴿إِنَّا﴾ لا نضيع أجرهم لأنهم مصلحون ونحن ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ الآية... ذكر حادثة من الحوادث المخيفة التي جرت على بني إسرائيل من شدة شكيمتهم وطغيانهم، وذلك أن سيدنا موسى عليه السلام لما جاء بالتوراة في ألواح وقرأ أحكامها على بني إسرائيل استثقلوها وأبوا أن يلتزموا أحكامها، فصعب الأمر على موسى فأمر الله سبحانه وتعالى جبريل فنزل، وقلع جبل طور من محله ورفعه على رؤوسهم كانه مظلّة على رؤوس بني إسرائيل الساكنين في معسكرهم الواسع بقدر فرسخ في فرسخ، فلما رأوه خافوا من تطبيقه عليهم والتزموا بأحكام

التوراة فأمر الله جبريل وأعاده إلى محله. وهذا هو معنى ظاهر الآية الموافق للروايات الواردة في الموضوع.

لا يقال إن هذا النوع من الإيمان والالتزام واقع بالإكراه ولا عبرة به لأنا نقول: إنّما لا يعتبر إذا بقي الناس على الحالة الأولى التي يستنكرون فيها التزام الأحكام ويستكرهونه، وأما إذا أنقلب الحال إلى انشراح الصدور ومعرفة حقيقة الأمر واستحبابه ثم التزامه، فهو شيء معتبر ومحبوب، ألا يرى أنه كثيرا ما يأمر سيد القوم أو عميد العائلة بأمر يعارَضُ فيه من قبل الجماعة ثم بعد تنفيذ ما أمر به وفهم الناس للأمر استحبوه وتيقنوا أن ذلك الأمر شيء موافق معقول ومستحب ومقبول؟ وهكذا غالب الأحكام التي تجري في عالم الرسالات والإدارات والتعليمات تستكره أوّلاً وتستكرم أخيرا.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ واذكر إذ رَفَعنَا جبلَ الطور فوقَ رؤوسهم لإخافة نفوسهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي غمامة أو سقيفة أو مظلّة ﴿وَظَنُّوا﴾ واعتقدوا اعتقادا راجحا أنهم إذا لم يلتزموا الأحكام ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي ساقط عليهم ﴿خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي قلنا لهم على لسان رسولنا موسى: خذوا ما آتيناكم من الكتاب بما فيه من الأحكام بقوة في القلب ونشاط في العمل، واذكروا ما فيه لأولادكم جيلا بعد جيل البقاء دينكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بذلك عن الكفر والضلال والاختلال في الأعمال والفساد في الأخلاق بين العالمين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية... روى مسلم بن يسار الجهني أن عمر رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِل عنها فقال: ((إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرّية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مَسَحَ ظهره فاستخرج منه ذرّية، فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيُدخِلهُ الله النار)) وقال مقاتل: إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر تتحرك، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر، فقال: يا آدم هذه ذريتك، ثم قال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بَلى. فقال للبيض: هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين. وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة. ثم أعادهم جميعا في صلب آدم. فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء. وقال تعالى فيمن نقض العهد الأول:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ وهذا الحديث صحيح أخرجه مالك في الموطأ وكثير من المحدثين كما روينا عن مسلم بن يسار رضي الله تعالى عنه. فهذا الحديث الشريف يكون تفسيراً للآية الكريمة.

وقوله تعالى ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من قوله ﴿مِنْ بَنِي آَدَمَ﴾ ويكون المضاف محذوفا على قوله بني آدم أي من أصل بني آدم وهو سيدنا آدم عليه السّلام، فكل النسل والذر أخذ من ظهر أبيهم آدم مرة واحدة، وجعلهم الله بحيث يُناسِبُون لفهم الخطاب والسؤال والجواب: ولا فرق في تحقيق العهود والمواثيق بين الصغير والكبير، فإن الله تعالى لما أودع فيهم الفهم والإدراك جاز الخطاب والجواب منهم على ما أراده الله تعالى. وقد أفادت الآيات الكثيرة أن كل موجود يسبح بحمد ربه، وأجاب عن غفلتنا عن ذلك بقوله الكريم: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ولو لم يكن التسبيح واقعيا لما كان وجه لذلك الاستدراك. وقد قال للسماء والأرض ﴿اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، و﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. وقال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ وقال تعالى في شأن سيدنا داود عليه السلام ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وقد ثبت تسبيح الحصاة في كف الرسول صلى الله عليه وسلم، وتسليم الشجر والحجر له، وورد في القرآن الكريم عهده تعالى مع الإنسان كثيرا. وتأويلها وإرجاعها إلى بعض الوجوه المفهومة لسواد الناس مما لا وجه له.

وهنا قول ثان في تفسير الآية وسار عليه بعض المفسرين من أن المراد بهذا الإخراج والسؤالِ والجوابِ إيداع العقول في المكلفين وتمكينهم بها من معرفة الأحكام والتكاليف الربانية، وعليه قال المفسر البيضاوي عليه الرحمة في تفسير ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾: أي ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الاشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل. وهذا مما لا داعي له بعد تكرر النصوص الدالة على قابلية المواد لفهم خطاب الباري تعالى.

فتفسير الآية الكريمة على النقل الوارد أحسن بدرجات ولذلك قال الشهاب في حاشية البيضاوي ما نصه: والحديث ناطق بأن هذا معنى الآية لأنه ساقه مساق التفسير لها، وإطباق المعتزلة على أن القرآن لا يفسر بالحديث مخالف لإجماع من يعتد به. وكذا قول الإمام: إن ظاهر الآية يدل على إخراج الذرية من ظهور بني آدم، وليس فيها ما يدل على أنهم أخرجوا من صلب آدم ولا ما يدل على نفيه، إلا أن الخبر دل عليه فيثبت خروجهم من آدم بالحديث ومن بني آدم بالآية.. لا يطابق سياق الحديث مع جواز أن يراد ببني آدم هذا النوع الشامل لآدم عليه الصلاة والسلام كما هو مشهور في الاستعمال. ولذا قيل الواجب على المفسر أن لا يفسر القرآن برأيه، اذا وجد النقل عن السلف، فكيف بالنص القاطع من حضرة الرسالة؟ فإن الصحابي سأله عما أشكل عليه من معنى الآية. وكذا فهم الفاروق رضي الله تعالى عنه إنتهي.

وأقول: لو كانوا يؤولون ظاهر الآية الكريمة بما ثبت بالنقل أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، والمراد من سيدنا آدم روحه الشريفة، ومن بني آدم أرواحهم المنبثقة من روحه الأصل الأبوي، وجعل الإخراج عبارة عن خطابه تعالى مع أرواح أولاده لكان أوفق بالواقع، وأسلم لأن هنا نقلا موضحا للنقل، والأرواح في ذواتها قابلة للسؤال والجواب، وعلمه تعالى الأزلي واسع شامل لجميع الأرواح والأجساد التي ستخلق وتكلف بالأحكام. وأما معارضة بعض بأنه لو كان هناك خطاب وسؤال وجواب مع الأرواح لكنا متذكرين لذلك في هذه النشأة كما تتذكر في الشيب أعمالنا في الصبا.. فكلام ساقط، لأن تذكر الأرواح لأعمالها الواقعة سابقا مع الأبدان مما يعقل لوجود الجسد في الحالين، وأما تذكر الأرواح المتعلقة

بالأبدان المشغولة بأنواع الهموم والمشاغل والملابسات لأحوال الروح المجرد عن البدن فأمر غير بين ولا مبيّنٌ.

ومعنى الآية الشريفة على ظاهرها: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ من ظهور بني آدم ذريتهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ فردا فردا ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ لا على غيرهم تقريرا لهم بربوبيته سبحانه وتعالى قائلا لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي بمن أوجدكم وربّاكم متدرجين من نطفة إلى علقة فمضغة غير مخلقة فمخلقة، ثم أخرجكم من بطون أمهاتكم إلى آخر ما يأتي عليهم ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ على أنفسنا بذلك وإنما فعل بكم ما فعل كراهة ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي عن ربوبيتك وعبوديتنا ﴿غَافِلِينَ﴾ فليس علينا عقاب على كل ما جرى منا سابقاً أو لاحقاً ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ لدفع الأذى عنكم ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل زماننا وصار الإشراك أمراً تقليدياً مستمراً في آبائنا إلى أن وصل الأمر إلينا فلسنا مبتكرين لهذه الأشياء من الإشراك وملابساته. وكنا نحن ذرية من بعدهم لا نعرف حقوق الرب ولا نميز الطاعة عن المعصية ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا الضّالين المضلين، ولا نراك وأنت الرب الرؤوف الرحيم أن تفعَل ذلك.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي ومثل ذلك التفصيل البليغ لأخذ الباري تعالى العهود والمواثيق من الأرواح أو من الذرية حين كانت في صلب الأب علاوة على ما حققناه من شرائط التكليف في عالم الظهور ببعث الرسل بالكتاب ﴿نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحق المبين.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي واقصص على بني إسرائيل المفتونين بعلم التوراة ادعاءً وزعماً أو بالانتساب إلى دين موسى غرورا وكذبا ﴿نَبَأَ﴾ العالم الإسرائيلي ﴿الَّذِي آَتَيْنَاهُ﴾ علم ﴿آَيَاتِنَا﴾ أي علم التوراة ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ فتجرّد عن الإيمان بها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي جَعَلَه تابعا لنفسه ومُنحرفا عَنْ قدسه ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فصار من الضّالين عَن طريق الحق والصّراط المستقيم.

أخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار أنه كان من علماء بني إسرائيل وكان موسى عليه السلام يقدمه في الشدائد ويكرمه وينعم عليه، فبعثه إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله تعالى وكان مجاب الدعوة، فترك دين موسى عليه السلام واتبع دين الملك فصار من الضالين. والعياذ بالله.

والمشهور من عنوان هذا الرجل أنه (بلعم بن باعوراء) ومن بني إسرائيل.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ مشيئة قسر وإجبار ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي بتلك الآيات بأن

يلاحظها ويعمل بها فيتقرب إلى الله، ﴿وَلَكِنَّهُ﴾ بسوء تصرفاته واختياره ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يعني مال إلى الدنيا الدنية والشهوات النفسية ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ بأن تبع ملك مدين وترك دين موسى وهُداهُ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ في ضيق النَّفَسِ وخِسّة النَفْس،: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ وتطرده ﴿يَلْهَثْ﴾ يخرج لسانه بالنفس الشديد ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ في محله وعلى حاله ﴿يَلْهَثْ﴾ واللهث: إدلاع اللسان من التنفس الشديد أي إخراجه متتابعا مع نَفَسٍ عالٍ لشدّة خَفَقانِ القلب النّاشئ عن ضعفه ﴿ذَلِكَ﴾ أي صفة الكلب هذه وحاله ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا﴾ يريد بالقوم مشركي مكة كانوا يَتَمنّون هاديا يهديهم وداعياً يدعوهم إلى طاعة الله، ثم لما جاءهم الصادق الأمين كذّبوه وأعرضوا عما معه من الآيات، أو اليهود حيث فرأوا نعت الرسول صلى الله عليه وسلم في التوراة وبشروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة وآياته البينات في نعت الرسول وكتابه القرآن وأصحابه في آخر الزمان ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ يعني فاحك هذه القصة على المكذبين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في شقاوة الأشقياء وسعادة السعداء، فيعتبرون ويأخذون بأسباب السعادة الأبدية ويبتعدون عن علل الشقاوة السرمدية. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا﴾ أي مثل القوم ﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ لا غيرهم ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ إلى الصراط المستقيم هداية مع العناية ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ عنه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وليس خسرهم عدوانا من أحد عليهم ولكنه من إهمالهم العقل وتركهم الاعتبار والاستبصار الذين في دائرة الاعتبار والاختيار. وإذا لم نعتد بذلك فلا يبقى وزن ولا ميزان ولا إطاعة ولا عصيان، ولم يبق إلا الفوضى في النواميس النفسية والقدسية ولا يرضى بذلك إلا الجاهلون.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ والتعذيب فيها ﴿كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ الذين لا يسمعون إلا إرشادات الحق ومواعظه، بل ويعاندونها ولا يريدون أن يستمعوا لها، فعطلوا جميع مشاعرهم وعقولهم وحواسهم فـ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لأنهم لا يريدون أن يتفقهوا بها ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ لأنهم لا يحدقون النظر إلى ما أحاط بالحقائق لا إليها ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الدوال مع المدلولات، أو إنما يسمعون الألفاظ بدون ملاحظة المعاني ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ في الحرمان عن أسباب الخير والإنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الضلال في الحقيقة لا يستند إلا إلى من من شأنه الاهتداء لا إلى ما ليس من شأنه إلا الرغاء ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (184) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فيه تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلّين بذلك، الغافلين عنه سبحانه. والمراد بالأسماء الألفاظ الدالة على المعاني المختلفة، والحسنى تأنيث الأحسن أفعل

تفضيل، ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء وأجملها، لأنها تنبئ عن أحسن المعاني. وقوله تعالى ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ إما من الدعوة بمعنى التسمية أي سموه بها، أو من الدعاء بمعنى النداء أي نادوه بها. وقولوا: يا الله، يا رحمن، يا رحيم... وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي واتركوا موافقة من يميلون وينحرفون فيها من الحق إلى الباطل. والإلحاد في أسمائه سبحانه أن يسمى بما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسداً كما في قول أهل البدو: يا أبيض الوجه، يا سخي، ونحوهما... فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك، وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه تعالى حقيقة. ومن فسر الإلحاد في الأسماء بما ذكر ذهب إلى أن أسماء الله تعالى توقيفية يراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد في هذه الأصول جاز إطلاقه عليه جل شأنه، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه، وإن صح معناه. ومأخذ استعمالها إنما هو الإطلاق والإذن من الشارع وإطلاق أسماء الله تعالى عليه باللغات الأعجمية ككلمة (تكرى) بالتركي أو (خدا) بالفارسي إنما هو لأخذها من الأنبياء المرسلين إليهم في وقته لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. وما لم يوجد فيه إطلاق ولا منع فقد قال الجمهور بالمنع منه لرعاية الأدب مع ذاته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ استئناف لجواب السؤال عن وجه ترك أولئك الناس الملحدين في أسمائه تعالى. وحاصله أنهم قوم عصاة، وسيجزون عقاباً على أعمالهم. فوجب تركهم لأن من كان معهم يبتلي بمثل ما ابتلوا به، وذلك خطر عظيم. ولما ذكر الباري أحوال الناس الضالّين ذكر أحوال الناس المهتدين الهادين لغيرهم إلى الحق فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾ أي أناس طيّبُون مُطَيّبُونَ يَهتدون و﴿يَهْدُونَ﴾ الناسَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالوجه المطابق للواقع الموافق لمرضاته تعالى ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

أي وبالحق يحكمون سواء فيما بينهم أو بينهم وبين غيرهم ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا﴾ ولم يصدقوا بما أنزلناه على رسلنا من البينات ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي سننقلهم درجة فدرجة على مراتب اللذات والشهوات والأموال والأهل والبنين والبنات وسائر الملابسات المدعومة بالنفس والمرغوبة عندها من حيث لا يعلمون أنها نقمة من المنتقم لا رحمة.

أو من حيث لا يعلمون ماذا يراد بهم وماذا تكون العاقبة ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ يعني أمهلهم ولا أسلبها منهم بسرعة حتى لا يفهم الناس غاية الأمر، وإذا سألت: لماذا؟ فالجواب قوله تعالى ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ لا يكاد يظهر لكل أحد بادي الرأي بل يختص بمعرفته أولو الألباب الذين مارسوا عهد الرسول والكتاب وانتقام الله تعالى من أهل العدوان والطغيان.

ومما يحسن أن يعلم أن الاستدراج استغفال من درج إما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستعمل في كل نقل تدريجي صاعد أو هابط، ثم استعير لطلب. كل نقل تدريجي من حال إلى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه.

واستدراجه تعالى إياهم بإفاضة النعم عليهم مع استمرارهم في الغي والضلال.

وإذا قيل: جرت سنة الله في الكون على استمرار النعم على الناس مدة من الزمن ثم زوالها بسبب من الأسباب سواء كان صاحبها من الصالحين أو لا، فما الفارق بين الاستدراج بالمعنى المذكور واستمرارها على الصالحين مدة ثم زوالها؟ قلنا: الفارق واضح على القواعد الإسلامية لمن آمن بها؛ فإن صاحب النعمة إن كان مطيعاً لربه وآخذاً بهداه فهو من أهل الخير والنعم الفائضة عليه رحمة ربانية وإذا أزالها فلحكمة معلومة عنده، ولكن لا يظهر من زوالها اضطراب وقلق وحيرة وكفران للنعم، وإنما يقارن الزوال صبر وإنابة وتسلّ بما أعد له من جزاء الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس، وأما المستدرج به والاستدراج بالمعنى المذموم فهو نعمة تفيض على بعض

الناس بدون شكرها وصرفها في الخير والاستفادة منها بل يزداد بها عتوا ونفورا وبطرا وغرورا، ولما أزالها الله سبحانه ظهر من أصحابها الكآبة والحزن وسوء الأحوال وفساد المقال والكفر بحقوق ذي الجلال فتبين من ذلك أن صاحب النعمة كان صاحب النقمة، وإن ماله اَفاد فَسادَ حاله وسوء عاقبتهِ ومآلهِ، وهناك آثار وفروعات كثيرة شهيرة تركناها خوفا من الإملال.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ إشارة إلى طريقة علمية واضحة للوصول إلى الحق إذا جاء أحدٌ برسالة أو إرشاد من شخص ذي شأن، وهي أن الإنسان الذي جاء به الرسالة نظر إلى الرسالة ومحتوياتها وإلى من جاء بها وصفاته؛ فإذا وجد الرسالة حقا بالبداهة أو البرهان فلا محالة أنه يجب عليه قبولها، ولو لم يكن من أتى بها حائزا لمزية وفضيلة، وإذا كان حائزا لها فبالأولى. ثم إذا نظر إلى مبدأ الرسالة ووجد فيه خللا من ناحية من النواحي جاز أن يتطرق إليه الشك في الرسالة بأن يقول ليست هذه الرسالة منه؛ فإنه شخص نازل والرسول ومعنى الرسالة من أهل الفضائل والكرامات. وأما اذا وجده شخصا موصوفا بالكمال بعيدا عن الاختلال والاعتدال فبالطريق الأولى وجب عليه قبول الرسالة وإكرام الرسول. والكافرون المشركون والكتابيون إذا نظروا إلى الكتاب وإلى من جاء به وإلى الله الذي أرسله به لم يجدوا الا ما يؤيده العقل والنقل فلماذا لا يؤمنون؟ فيقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ وهو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ وجنون، بل طبعه سليم مأمون وسر رسالته كالدر المكنون ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي صاحبهم وهو الرسول الأمين ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ لأهل البغي والعدوان كما أنه بشير لأهل الصدق والسلامة والإيمان. هذه من جهة الرسول ويظهر من سلامته سلامة رسالته. وأما من جهة المرسل وهو رب العالمين فهو بسلامة

الفطرة ربِ عليم قدير خبير وبصير لأن أثر الأقدام يدل على المسير ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مادة وصورة وبهجة وزينة وحركة وبركة وآثارا ودائرا ودوراَنا ومدارا ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ منهما وما فيهما وما بينهما ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ ايّ شيء كان... فهل وجدوا في ذلك فتورا وقصورا ونقصانا؟ فلم لا ينظرون في ذلك نظر الاعتبار والاستبصار؟ ﴿وَ﴾ إذا لم ينظروا في تلك العجائب فلم لا ينظرون إلى ﴿أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ وانحسر أملهم وانتهى عملهم؟ وليس هناك شيء آخر ليساوي ملكوت السموات والأرض ولا دليل آخر فيه بيان مثل أخلاق الرسول الذي هو صاحبهم، فإذا لم يستفيدوا من هذه العيون النابعة النافعة ولم ينتفعوا بهذه المطالب الواسعة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي بعد الصاحب وما معه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فلم يبق هنا شيء يذكر في تعليل تأخر الناس عن الاعتبار والاستبصار والإيمان بالله الواحد القهار، وبرسوله النبي الزكي المختار، والكتاب الذي أنزل معه لإرشاد الثقلين إلى السعادة في الدنيا وفي دار القرار إلا أن نقول من يضلل الله ويخلق فيه الضلال لسوء اختياره وعناده وتعنته فلا هادي له، فإذا لم يبق لهم مجال الهداية والعناية فيذرهم الله في وادي الحيرة يتحيرون وفي مهالك الطغيان يعمهون ويترددون ولا ينتبهون أعاذنا الله سبحانه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)﴾

قوله تعالى: و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ والساعة: في الأصل اسم لوقت قليل المقدار وعند الفلكيين عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزء من الليل والنهار. وفي عرف الشرع تطلق على يوم موت الخلائق، وعلى يوم البعث يعني يوم قيام الناس لرب العالمين. وفسروها بيوم القيامة، ولعل المراد أحد ذينك اليومين، والسائل عن ذلك أناس من قريش. فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أن قريشا قالوا: يا محمد اَسِرَّ إلينا متى الساعة؟ لما بيننا من القرابة. فنزلت. والكثيرون على أن السائل أناس من اليهود. فقد أخرج ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال حَمَلُ ابنُ ابي قشير وسَمَولُ بنُ زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى هي! وكان ذلك امتحانا منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها، فأنزل الله تعالى الآية ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ كلمة أيان ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام، وهي في محل الرفع خبرُ مرسيها، وهو مصدر ميمي من أرساه إذا أثبته، يعني في أي وقت استقرارُ الساعةِ وتحققها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يكشفها في وقتها إلا هو، يعني لا يكشف عنها، ولا يظهر للناس أمرها الذي تسألون عنه إلا الرب سبحانه بالذات. ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كبرت وعظمت على أهلهما لخوفهم منها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي إلا فجأة على غفلة، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إن الساعة تهيج بالناس والرجل يُصلح حوضه، والرجل يَسقي ماشيته، والرجل يُقَوم سلعته في سُوقه، والرجل يخفض ميزانَه ويرفعه.))

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يعني يسئلونك كأنك عالم بها ومطلع على وقتها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ انحصار علم الساعة في ذات الباري ويتوهمون أن الناس يعرفونها أيضا ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أملك لأجل نفسي جلب نفع ما ولا دفع ضرر ما ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا وقت مشيئته سبحانه بأن يمكنني من ذلك فإني عند ذلك أملكه بمشيئته ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي لحصلت كثيرا من الخير الذي تعلق بترتيب الاسباب ورفع الموانع ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الناشئ عن عدم علمي بالحقائق ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ومما يجب أن ينبه عليه أمران؛ الأول: أن هناك من يتوهم ويقول: ما دامت الآية ناطقة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب لزم أن لا يعرفه غيره بالطريق الأولى، فما معنى نسبة الإخبار بالمغيبات إليه في إخباره بأمور تقع في المستقبل، أو إلى غيره من الأولياء والصالحين بالكشف؟
والجواب: أن المنفي عن الرسول وغيره من الأنبياء والأولياء هو العلم بالغيب، والعلم صفة ذاتية تلازم العالم ولا تنفك عنه، وهذه لا توجد في غير الباري سبحانه وتعالى. وما اطلع عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره هو عرفان جزئي في مادة من المواد حصل له من الله بالوحي أو الإلهام، وهذا ليس علما بالمعنى المذكور وهو ظاهر، فإذا أعلمه المولى بشيء علمه وإذا لم يُعْلِمُهُ فلا.

والثاني: أنه يتشكل اللزوم في قوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ فإنه لا يلزم من العلم بالخيرات القدرة على استحصالها ولا من العلم بالمصائب دفعها وردها! والجواب إن هذا اللزوم مبني على اعتبار العلم بتعلق إرادة الباري سبحانه بكون شيء سببا لجلب الخير أو لدفع الشر على قاعدة ترتب المسببات على الأسباب،

ولا شك أن العلم بالدواء النافع واستعماله سبب لإزالة الأمراض، كما أن العلم بوجود منفعة هناك وطرق جلبها ومباشرة أسبابها يوجب حصولها له فالسوء المنفي سوء يعالج بدواء مستعمل معلوم، كما أن الخير الحاصل هو خير مسبب عن مباشرة سبب معلوم، وهذا مما لا شك ولا شبهة فيه لأحد. وعلى ذلك يكون العلم بالغيب والاطلاع على أسباب الخير وكسبها كالعلم بالمقدمات المستلزم للعلم بالنتيجة لزوما عاديا عند الشيخ أبي الحسن الأشعري، ولزوما عقليا عند الإمام الرازي فلا ينفك اللازم من الملزوم. وكذلك العلم بالمصائب والاطلاع على مواقعها ومباشرة تحصيل الموانع لدفع عروضها والخلاص منها.

فاللزوم بين الشرط والجزاء في الآية الكريمة لزوم عادي عند الأشعري.

وعقلي عند الإمام الرازي رحمهما الله تعالى. ولا يتوهمن أحدٌ أن من الخيرات ما لم يقدره الباري للإنسان، فلا يكتسب له، ومن المصائب ما تعلقت الإرادة بنزولها، فلا يمكن رفعها، فلا يتحقق اللزوم في الآية الكريمة لأنه من المسلمات عند الجمهور من المسلمين أن الله تعالى خالق كل شيء وأن العبد كاسب لما في طاقته، وأن ما لم يقدره الباري تعالى للإنسان من الخير أو دفع الشر ليس مما يكتسب أسبابه. وكلامنا في ما يدخل تحت نظام المكاسب، وإلا فمقابلة القضاء والقدر مستحيل. فالملازمة بحسب ظاهر الكسبيات كلية وبالنظر إلى مجموع المعلومات جزئية؛ لأن المعلومات لا تتناهى، ومنها ما يدخل تحت نطاق الكسب، ومنها ما لا يدخل تحته. ولعل للإيماء الى هذه الدقيقة صدرت القضية بكلمة (لو) فإنها علامة القضية الشرطية المهملة، وهي في قوة القضية الجزئية كما هو معلوم عند من مارس العلوم العقلية، وأتقنها. هذا والله الهادي لطريق الصواب.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195)﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان ما يقتضي التوحيد وهو حصر الخالقية فيه سبحانه وتعالى. يعني ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أيها الآدميون ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي من نفس جسدها ﴿زَوْجَهَا﴾ وهي حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليستأنس بها ويطمئن قلبه بوجودها معه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي فلما جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ يعني محمولا خفيفا في بداية أمره عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة، فإنها بالنسبة إلى ما بعد ذلك خفيف جدا،

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت به، والمراد بقيت به كما كانت قبل ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي صارت ذات ثقل بالنسبة الى بعض الأحوال، وخافت حواء من الهلاك بسبب هذا الولد ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آَتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ والمراد بالصالح الولد المبارك المشرف بسبب مجيء الأنثى معه، وإن كان يحتمل أن يكون الصالح بمعنى الولد المطيع الله تعالى على ما هو المعروف في الإسلام ﴿فَلَمَّا آَتَاهُمَا صَالِحًا﴾ كما أرادا ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ من الأوثان ﴿فِيمَا آَتَاهُمَا﴾ من الأولاد ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وتعاظم وتبرأ عما يجعلونه شريكا له.

وفي الآية الكريمة إشكال لأنها بظاهرها تفيد أن آدم وحواء عليهما السلام قد أشركا بالله، وذلك لا يتناسب مع مقام النبوة قطعا. وأجيب عنه بأجوبة:

الأول: إن الإشراك لم يكن من آدم عليه السلام وإنما كان شيئا في صورة الإشراك صادرا من أم البشر حواء فقط ونسب اليهما لكونهما للارتباط والألفة بينهما يعتبران كالشيء الواحد.

الثاني: إن المراد بقوله تعالى ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ جعل أولادهما له شركاء وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء؛ لأنهما أصل لذريتهما كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾ ويؤيد هذا الجواب قوله تعالى بعد ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

الثالث: إن المراد بالصالح من يكتفي به في توليد النسل وتكثيره وهو الجماعة التي أقلها إثنان ذكر وأنثى، لأن غاية آدم وحواء من ترتب الأولاد والنسل إنما تحصل بذلك. والضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾

يرجع إلى الصالح باعتبار المعنى وحقيقة الإشراك إنما ظهرت من هذين المولودين وهما ذكر وأنثى.

الرابع: إن الخطاب كان لقريش، وإن المراد بالنفس الواحدة قصي، والمراد بجعل زوجها منها أنها أيضا قرشية، وأن المراد بشركهما تسمية أبنائها الأربعة بعبد مناف، وعبد شمس، وعبد العزى، وعبد الدار المناسبة للمشركين.

ثم استنكر إشراكهم وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ بذات واجب الوجود الخالق لكل موجود ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي لا يقدر على خلق أي شيء من الأشياء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ويخرجون من العدم الى الوجود ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي أولئك الاصنام ﴿لَهُمْ﴾ أي للمشركين ﴿نَصْرًا﴾ إذا ورد عليهم عدو ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ بل ولا يقدرون على نصر أنفسهم فضلا عن نصر غيرهم.

﴿وإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أي تلك الأصنام ﴿إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لانها هياكل جامدة لا شعور لها ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ في عدم الاستفادة منهم ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إلى انجاز مرادكم ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾.

ثم بين ان لا مزية لهم وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ﴾ مسخرون مقهورون لله تعالى ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ لا فرق بينكم وبينهم بل هم أحقر لانهم أجساد لا حياة فيها فان كنتم في ريب من ذلك ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ويُلَبُّوا دعوتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أنهم يفيدونكم شيئا.

ثم احاج على أنهم أحقر من الحيوانات العجم لخلوها عما هو موجود فيها فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ إذا عزموا على جلب شيء أو انهزموا خوفا من شيء ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ إذا عارضهم شخص ذو بطش شديد ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ حتى يميزوا العدو من الصديق ﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ نداء مناد أو دعوة داع ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾

واستعينوا بهم علي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعا ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ اي لا تمهلوني بعد ترتيب مقدمات الكيد فإني لا أهتم بكم ولا أبالي.

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198)﴾

قوله ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ جملة مستأنفة وقعت علة لعدم مبالاته بهم. يعنى: ووجه عدم مبالاتي بكم هو أن الله ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ بالحق علي هو وليي ومحبي وناصري، ﴿وَهُوَ﴾ الذي ﴿يَتَوَلَّى﴾ شئون ﴿الصَّالِحِينَ﴾ ولا يتولى شئونكم لأنكم من الفاسدين ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ إذا أرادوا نصركم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ أي إلى أن يهدوكم الى الخيرات في الحياة ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ دعاءكم فضلا عن المساعدة ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. ما أمامهم فضلا عن ما بعد عنهم.

وأي عاقل يعتمد على هياكل منحوتة جامدة خامدة لا خير فيها لأنفسها ولا لغيرها، ولا قوة فيها للاستفادة منها، وإنما هي أحجار واخشاب منصوبة من قبل آباكم بإغواء الشيطان وأعوانه؟

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)﴾

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي إرض من الناس بما تيسر من أعمالهم وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تطلب منهم الجَهْدَ وما يشق عليهم، ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف المستحسن من الأفعال، فإن ذلك أقرب الى قبول الناس ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم! ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزغ والنخس والنسغ بمعنىً ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي فاستجر به والتجئ إليه سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لنداء الداعين و﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس أجمعين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي لمة منه ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي تذكروا ما أمر الله به وما نهى عنه ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ومدركون بسبب تذكر مواقع الخطأ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ يعني تعاونهم الشياطين في الضلال، ويرغبونهم فيه ويحرضونهم على أسبابه وطرقه، من عدم المبالاة بالحق، وعدم استماع آيات الله، وعدم إطاعة الرسول. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي أولئك الشياطين عن إغواء غير المتقين، وعلى هذا الوجه فالضمير المرفوع في يمدونهم راجع إلى الشياطين. والضمير المنصوب فيه إلى الإخوان وهم الناس الذين لا تقوى لهم. والجملة خبر للمبتدأ وجار على غير من هو له، لأنه وقع بعد قوله ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ وضميره المرفوع عائد إلى غيره وهو الشياطين المستفاد من السياق. وعدم إبرازه مبني على تجويز الاستتار في نحو ذلك التركيب لا على وجوب الإبراز كما هو عند البصريين.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآَيَةٍ﴾ من الله عند تأخر الوحي ﴿قَالُوا﴾ أي المشركون: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي لولا جمعت آيات من عند نفسك فتقرأها علينا على عادتك. ﴿قُلْ﴾ يا رسولي الصادق الأمين في رد كلام أولئك الكافرين: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ومالي شأن في هذا الموضوع وما ألقيت إليكم آية مخترعة من عند نفسي، وإنما هو وحي يوحى ونور يلقى إليّ فأنور به بصائركم و﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ للقلوب وبشائر تأتي لكشف الكروب ﴿وَهُدًى﴾ للمهتدين ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ للمتقين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فمن آمن به فقد شملته رحمة رب العالمين، وَمَن لاً فلا.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآَنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآَنُ﴾ في البيضاوي: نزلت في الصلاة كانوا يتكلمون فيها، فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له. وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقا. وعامة الفقهاء على استحبابهما خارج الصلاة إنتهي.

وفي حاشية الشهاب: اختلف في سبب نزولها على وجه ينبني عليه معناه. فقال الجصاص: سببها كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة وقرأ معه أصحابه فخلطوا عليه، فنزلت. وكذا روى الشعبي وغيره. وهي تدل للحنفية في أنه لا يقرأ المأموم في سرية ولا جهرية، لأنها تقتضي وجوب الاستماع عند قراءة القران

في الصلاة وغيرها. وقد قام الدليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر، وكذا في الإخفاء لعلمنا بأنه يقرأ وإن لم نسمعه.

وقال مالك رحمه الله تعالى: ينصت في الجهرية ويقرأ في السرية لأنه لا يقال له مستمع. وقال الشافعي رضي الله عنه: يقرأ في الجهرية والسرية في رواية المزني، وفي رواية البويطي إنه يقرأ في السرية أم القرآن ويضم السورة في الأوليين، ويقرأ في الجهرية أم القرآن فقط. وسبب نزول الآية كما راه ابو هريرة رضي الله عنه: إنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت.

فالنهي إنما هو عن التكلم لا عن القراءة وهو معنى قوله نزلت الخ.

وكون الاستماع خارج الصلاة مستحباً متفق عليه. وقوله (فأمروا باستماع) إلخ.. ظاهره انه لا يقرأ، وهو مخالف لمذهبه إلا أن يكون مراده أنه يستحب للإمام في الجهرية سكتتان: سكتة بعد التكبير لدعاء الافتتاح وسكتة بعد الفاتحة ليقرأ المقتدي كما نقل في الأحكام. وسيشير إليه المصنف رحمه الله. والوجه أن مراده أنها وردت في ترك الكلام لا في القراءة فلذا لم يتعرض لها فلا يرد عليه ما ذكر، انتهى.

قلت: وفي المجموع للنووي أن الإمام يقرأ في السكتة الثانية بعد إتمام فاتحته هذا الدعاء سراً: (اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، أللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، أللهم اغسلني من خطاياي كما يغسل الثوب بالماء والثلج والبرد) والتفصيل في كتب الفقه. فيقول الباري سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي لتفهموا معناه وتتنور به قلوبكم وتطبقوا معناه حسب الاقتضاء ﴿وَأَنْصِتُوا﴾ حتى لا يقع شيء أجنبي في أسماعكم ويحول دونكم ودون الاستفادة منه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾.. والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو عام لكل ذِكرٍ فإن الإخفاء أقرب إلى الإخلاص وأنسب بالقبول.

وفي الخبر يقول الله تعالى: ((ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)) وفي رواية ((خيرٍ من ملأه)) وقال الإمام: والمراد بالذكر في نفسه أن يكون عارفا بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه مستحضراً لصفات الكمال والعز والعظمة. والجلال، وذلك لان الذكر باللسان عاريا عن الذكر بالقلب كأنه عديم الفائدة، بل ذكر جمع أن الذكر اللساني الساذج لا ثواب له أصلا. وقيل: الخطاب لمستمع: القرآن، والذكر القرآن. والمراد أمر المأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته. ويستحب لمريد قراءة القرآن خارج الصلاة أن يلبس أحسن ثيابه: ويتعمم وسيتقبل القبلة تعظيما له، ومثله في ذلك العلم ولو قرأ مضطجعا فلا بأس إن هو نوع من الذكر. وقد مدح سبحانه. ذاكريه قياما وقعودا، وعلى جنوبهم. ويضم رجليه عند قراءة. ولا يمدهما لأنه سوء أدب ولو قرأ ماشيا أو عند النسج ونحوه من الأعمال، فإن كان القلب حاضرا غير مشتغل لم يكره، وإلا كره، ولا يقرأ وهو مكشوف العورة، أو كان بحضرته من هو كذلك، وإن كانت زوجته، وكره بعضهم القراءة في الحمام والطريق. قال النووي ومذهبنا لا تكره فيهما. وقوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ في موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أي متضرعا وخائفا.

وقوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ صفة لمعمول حال محذوفة أي ومتكلما كلاما دون الجهر ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ جمع غدوة. وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس، والآصال وهو كما قال الأزهري جمع أصل، وأصل جمع أصيل، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس، فهو جمع الجمع، وليس للقلة وليس جمعا الأصيل لأن فعيلا لا يجمع على أفعال، وقيل إنه جمع له، لأنه قد يجمع عليه كيمين وأيمان. وخص الوقتان لأنهما من الأوقات اللطيفة

التي ترتاح فيها النفس ويطمئن القلب، والمناجاة مع الله تناسب حالة الاطمئنان. ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله في وقت من الأوقات لأنه كما تتوقف الحياة النفسية على التنفس ووجود القوت كذلك تتوقف الحياة القدسية الروحية على علاقته بربه سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ لهم منزلة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة لاسيما أهل الملأ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ بل يتشرفون بالوصول إليها ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ أي ينزهونه عما لا يليق بكبرياء ذاته ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ أي يخضعون ويتذللون غاية التذلل ويظهرون ذلك للكائنات بوضع أشرف نقاط الوجود أي الجبهة على الأرض في السجود. ويخصون ربهم بذلك ولا يشركون أحدا في الإيفاء بهذه الطاعة. وقد جاء الأمر بالسجدة لآية أمِرَ فيها بالسجود امتثالا لأمره وأخرج أحمد رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجود القرآن بالليل مراراً (سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله احسن الخالقين).

سورة الأنفال، مدنية، وهي خمس وسبعون أية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ سبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنه كيف تقسم، ومن يُقَسّم له؟ المهاجرون منهم أو الأنصار؟ وقيل: شَرَطَ رسولُ الله لمن كان لَهُ غَنَاءٌ أن ينفُله، فتسارع شبانهم حتى قَتّلوا سبعين واَسَروا سبعين. ثم طَلَبُوا نَفَلَهم، وكان المال قليلا فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كُنّا رِدْءاً لكم وفئة تنحازون إليها. فنزلت فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء. وعن سَعْد بنِ أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلتُ به سعيدَ بن العاص وَاَخذتُ سيفَه. فأتيت به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه،

فقال: ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القبض فطرحته. وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وَاَخذ سَلَبي. فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال. فقال لي رسول الله: سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فذهب فخذه.

وأصل معنى النفل الزيادة، ولذلك يقال للتطوع نافلة. ولولد الولد نافلة. ثم صار حقيقة عرفية في العطية، لأنها لكونها تبرعا غير لازم كأنها زيادة. وتسمى بها الغنيمة باعتبار أنها منحة من الله تعالى من غير وجوب.

ومعنى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ يسألونك عن حكمها ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي اَمْرُها مختص بهما يُقَسّمها الرسولُ على ما يأمره الله به ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والتنازع والطمع فيها ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي الحال والصفة التي وقعت بينكم من ميل كلٍّ إلى اختصاصه ببعض الأشياء وغَلَبته على الآخرين. يعني استأصلوا عرق هذه الحالة الفاسدة واستسلموا لما يأمركم الله به ويبلغه رسول الله إليكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقّ الإيمان فإنه يقتضي الخضوع لأمر الله وبلاغ رسوله والأمر الذي وصل إليه، كما يقتضي التقوى أي الاحتراز عن الكفر وسائر الكبائر وسفاسف الدنيا الدنية، ويوجب اصلاح ذات البين بدفع الأحقاد والحزازات الواقعة الواردة على القلوب، وهنا ذكر من صفات المؤمن الكامل صفتين مهمتين: الأولى تقوى الله تعالى. والثانية إصلاح ذات البين. وتأتي من صفاته صفات أخرى بعدُ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ بالإيمان الكامل ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ تعالى باسم ذاته أو صفة من صفاته السلبية أو الثبوتية الذاتية أو الفعلية ﴿وَجِلَتْ﴾ وفزعت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ من هيبته تعالى ومن آثار صفاته ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لأن تلك الآيات تدل على نسبة الصفات

العظيمة إليه تعالى، ولما سمعها المؤمن تنوّر قلبهُ وانشرح صدره بأخذ مدلولات تلك الأسامي والصفات.

والإيمان إن كان مركبا من التصديق بالقلب والعمل بالآداب والتصديق باللسان، فلا شك في قبوله للزيادة والنقصان؛ فإن العمل بفرائض وسنن كثيرة فوق العمل بما دون ذلك. وإذا كان هو التصديق فالتصديق المعتبر في الإيمان هو الاعتقاد الجازم، وفوقه اليقين، وهو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع المعبر عنه بعلم اليقين، وفوقه عين اليقين وحق اليقين. ولكل درجات فقبوله للزيادة محقق، وما روي عن كثير من السلف من أنه لا يزيد ولا ينقص معناه أنه لا يعتبر الناقص من الاعتقاد الجازم ولا يطلب الزائد عليه، فإن كانت زيادة عند شخص فهي فضيلة واردة له ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أمورهم على الإطلاق. أي في إنجازها وتيسيرها وحصولها لأنها ولو كانت مربوطة بأسباب يباشرها المؤمن فمسبب الأسباب هو الله تعالى ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ بالوفاء بمقدماتها ومقاصدها شروطها وأركانها وأدائها في أوائل أوقاتها مع رعاية الخشوع والخضوع والرهبة لله تعالى.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ النفقات الواجبة على أنفسهم ومن في إدارتهم، وكذا الصدقات الواجبة من الزكاة والكفارة والنذور الصحيحة. والمال الواجب صرفُه للفقير المضطر في الجدب والبلاء والمستحبّة من وجوه الخيرات والحسنات والضيافات ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يعني أولئك الموصوفون بالصفات المذكورة الخمسِ بعد الصفتين المأخوذتين فيما تقدم ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إيمانا حقا ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب زيادة ما عندهم من درجات الإخلاص ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم وخطاياهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في دار النعيم.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ

الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)

<77>

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف هو المشبه، أي حالهم هذه في كراهة التنفيل كحال إخراجك من بيتك للغزو في كراهتهم له. وكان إخراجك من بيتك إخراجا متلبسا بالحق المطابق لرضاء الله الموجب لانتصار المسلمين ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ وأصل الواقعة أن عير قريش أقبَلَت من الشام وفيها تجارة عظيمة، ومعها عدد قليل وهم أربعون راكبا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيّها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة. فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة النجاء! النجاء! على كل صَعْب وذَلول عيركم، أموالكم، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبدا! وقد رأت قبلَ ذلك بثلاث عاتكَةُ بنتُ عبدالمطلب أن ملكا نزل من السماء وأخذ صخرة من الجبل فرماها من الجبل فلم يبق بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس، وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما ترضى رجالهم أن يتنبؤا حتى تنبأت نساؤهم! فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضى بهم إلى بدر. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي (دَقران) فنزل جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين: اِما العيرُ، وإما قريش. فاستشار أصحابه فقال بعضهم: متى ذكرتَ لنا القتالَ حتى نتأهب له؟ اِنّا خرجنا

للعير. فقال صلى الله عليه وسلم: إن العير مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد اَقَبَل. فقالوا: يا رسول الله عليك بالعيرِ ودَعِ العَدوَّ. فغضب عليه الصلاة والسلام، فقام أبو بكر وعمر فأحسنَا الكلامَ في اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قام المقداد بن عمروٍ فقال يا رسول الله: إمض لما أمر الله تعالى فنحن معك حيث أحْبَبْت، لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. ولكن اذهب أنت وربك فَقاتِلا إنّا مَعَكُما مقاتلون. فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال: أشيروا علي أيها الناس. وَهُوَ يريدُ الأنصارَ، لأنهم كانوا عَدوهم، وقد شرطوا حين بَايعُوهُ بالعقبة أنهم براءٌ من زمامه حتّى يصل إلى ديارهم فتخوّف أن لا يَرَوا نُصرتَه إلا على عَدوهم بالمدينة. فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ايّانا تريد؟ قال: اَجَل. قال: قَد آمنا بكَ وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هُو الحقّ، وأعطَيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة... فامض يا رسولَ الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق! لو استعرضت بنا هذا البحر فخضْتُه لخضناه معك ما تخلف منّا رجل واحد، ولا نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصُبْر عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء. ولعل الله تعالى يريك مِنّا ما يُقِرّ به عينَيك فسِرْ بنا على بركة الله تعالى فنشطه قولُه.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: ((سيروا على بركة الله تعالى فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين. واللهِ لكَأني أنظُرُ إلى مَصارعِ القوم)). ويتبين من ذلك أن بعض المؤمنين كانوا كارهين، وبعضهم لم يكونوا كذلك وهو الأكثر.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الذي هو التوجه إلى الحرب التي هي من أسباب إعلاء كلمة الله العليا. ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ ظرف لقوله ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ بعد إعلامك لهم بأنهم ينصرون ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ أي مشبهين بالذين يساقون بالقوة ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إلى علامات الموت وأسبابه. وكانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فيهم فارسان المقداد بن الأسود والزبير بن العوّام. وكان المشركون ألفاً قد استعدّوا للقتال. ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ واذكروا منة الله تعالى عليكم إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل اشتمال من إحدى مبين لكيفية الوعد. والطائفتان: القوم المحاربون الغزاة العتاة القاصدون إبادة الأصحاب، والقافلة المجهّزة بأجمل أنواع الطعام واللباس وما يحتاج اليه الناس.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ وهي أهل القافلة وما فيها، أو معها ورئيسهم أبو سفيان. والشوكة في الأصل واحدة الشوك المعروف، ثم استعيرت للشدة والحدة وتطلق على السلاح أيضا ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يظهره ويثبته ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي بآياته الموحى بها الى حبيبه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يهلكهم جملةً من أصلهم، وعلل قوله ويقطع دابرَ الكافرين بقوله ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي وإنما يقطع دابر الكافرين ليثبت الحق وهو الإسلام، ويبطل الباطل وهو خرافة المشركين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي الكافرون من المشركين وغيرهم، هذا الإحقاقَ والإبطالَ.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14)

<80>

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ متعلق بأذكر المضمر، أو بقوله ليحق الحق على اعتبار أن إذ يأتي بمعنى إذا للمستقبل، واستغاثتهم قولهم بعد ما علموا أن لا مفر من القتال، أي ربّ انصرنا على عدوك وأغِثنا يا غياث المستغيثين، وقول الرسول بعد أن نظر إلى المشركين وهم ألف وأصحابه وهم ثلاثمائة: ((اللهم أنْجِز لي ما وَعَدتَني، أللهم إن تُهلِكْ هِذهِ العصابةَ لا تُعبَدْ في الأرض)) ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ أي بأني ممدكم ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾: بكسر الدال اسم فاعل باب الإفعال أي حالكونهم جاعلين المؤمنين خلفهم فتكون الملائكة مقدمة الجيش، أو بفتح الدال أي حالكونهم متبوعين بالمؤمنين أي جعلوهم أمامهم، فتكون الملائكة ساقة الجيش ومؤخرته.
ويجوز أن تكون الملائكة منقسمين بقسمين: قسم منهم مقدمة الجيش، والآخر منهم مؤخرته فتطبق القراءتان عليهم ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ أي بشارة لكم بالنصر العزيز لأن المدد من الله، فإذا حلّ حل النصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ بوجودهم بينكم، فإخبار نزولهم تبشير، واستقرارهم بينكم اطمئنان، وحلول النصر المبين ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ في الحقيقة

﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا من الملائكة ولا من غيرهم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع الصحابة، وهو أشرف الخلائق أجمعين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب على أمره وقادر على تنفيذه ﴿حَكِيمٌ﴾ في ما يفعله بالدوام.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ بدل ثان من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾ أو متعلق بأذكر مضمرا. والنعاس أوّل النوم قبل أن يستوعب الإنسانَ. ومعنى الآية: واذكروا إذ يغشيكم النعاس، ويجعله غاشيا ومستوليا على رؤوسكم ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أي فتنعسون لحصول الأمن الوارد من الله عليكم ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ روي أنهم كانوا في أشد حاجة إلى الماء للشرب والتنظيف والطهارة من الحدث، وقد غلب المشركون على الماء، فأنزل الله المطر فأُمْطِروا ليلا حتى جرى الوادي، فاتخذوا الحياض، وسَقُوا الرّكابَ، واغتسلوا، وتوضأوا، وتلبّد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام، وذلك الإنزال والتنزيل للماء ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ من الحدثين ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي وسوسته في قلوبكم بالخوف من العطش ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي يقويها بالثقة بعد إزالة التردد عنها ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ على الأرض عند المبارزة والمقابلة والمسافة ولا تنزلق، أي وتثبت به أقدام الفكرة ويزيد نور البصيرة في أن الله معهم ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ متعلق بمضمر، أي أذكر، أو متعلق بقوله ﴿يُثَبِّتَ﴾ أي يثبت الأقدام إذ يوحي ربك إلى الملائكة أي وقت إيحائه إليهم ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في تثبيت المؤمنين وإعانتهم ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالبشارة وإلقاءِ النورِ إلى قلوبهم، أو بتكثير سوادهم في أنظار المشركين أو بالمحاربة في جنبهم ضد الكفار. ومعيتي لكم أني ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الرعب: الخوف وانزعاج النفس بتوقع المكروه. ولما ذكر التثبيت وإلقاء الرعب ومعلوم أنهما مقدمتان لغاية مهمة. ذكرها بقوله ﴿فَاضْرِبُوا﴾ أي فاضربوا أيها

الملئكة ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي أعالي الأعناق مما يلي الرأس أو نفس الرؤوس ﴿وَاضْرِبُوا﴾ منهم ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، والواحدة البنانة. وقيل: المراد بها مطلق الأطراف. لوقوعها في مقابلة الأعناق والمقاتِلِ، والمقصود اضربوهم كيفما اتفق مِن المقاتلِ وغيرِها.

وقد كثرت الأقوال في أن الملئكة نزلت للبشارة والتثبيت الروحي فقط، أو لهما وللقتال. وكل يقول ما يراه استنادا إلى ما عنده من الدليل. ونحن بعد ملاحظة الروايات وبعد ملاحظة قوله تعالى ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ مع قوله ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وما روي عن ابن عباس أنه قال: بينما رجل من المسلمين يشتد في اثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وقائلا يقول أَقِدمْ حَيْزُوم، فخر المشرك مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه، فجاء فحدّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ((صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة))... لا يبقى لنا شبهة في أن الملائكة قتلوا فعلا في بدر بإذن الله تعالى.

وما يقال من: أنه لا حاجة إلى إنزال عدد كثير من الملئكة من الألف فصاعدا إذ يكتفي بواحد منهم، فإن جبريل هو القوي الأمين فيكتفى به، وأنهم لو نزلوا للقتال لرآهم المؤمنون، ولو بعضا منهم، أو أنه لو قاتلوا ما نجا واحد من المشركين... فكله ناشئ عن الغفلة وسوء النظر في أمور الله تعالى، وفي أن الأمور مبنية على أمر صادر وتوجيه من الله سبحانه حسب مشيئته، فجبريل كما يكتفى به في إهلاك القوم كان يكتفي بملك واحد لحمل العرش بدل أربعة في الدنيا وثمانية في الآخرة. وكان يكتفي بسبع من الملائكة على نار الآخرة، وما كانت حاجة إلى تسعة عشر، وبملك لكتابة الأعمال لا إلى اثنين، والله تعالى عالم بأعمال العباد فلا حاجة إلى تعاقب الملائكة صنف لليل وصنف للنهار كما هو المقرّر. ثم لا ينزل الملائكة قليلا أو كثيرا إلا بأمر الله

سبحانه، ولا يلزم من نزولهم للقتال رؤية الناس لهم، فإن الملئكة ألْطَفُ من الجنّ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ كما لا يلزم من نزولهم للقتال أن يباشر الجميع الحرب لجواز أن بعضا منهم أرسلوا للإلهام والتثبيت، وبعضٌ لأخذ الخطوط الخلفية أو الأمامية، أو أنهم أنزلوا للقتال جميعا، لكن ما كان لكل منهم أمر من الله تعالى إلا لبعض أعمال محدودة وقتل بعض الناس لا غيرُ. فالحق الواضح من نصوص الآية والحديث أنهم نزلوا وشاركوا في القتال ولكن على وجه محدود حسب أمره تعالى.

والقول بأن الحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ يدل على أنه لم يكن لهم مهمة إلا البشرى ناش من توهم أن الحصر حقيقي وهو ممنوع، فلم لا يجوز أن يكون الحصر في مقابلة النصر؟ يعني وما جعل الله إنزال الملائكة الا لإلقاء البشارة إلى قلوبكم لا لتحقيق النصر بهم، فإن النصر ليس منهم بل من الله تعالى، ويؤيد ذلك بل ويحققه قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

فنقول بإيمان سليم: إنهم نزلوا، وبشروا المؤمنين بإلهام النصر، وثبتوا قلوبهم بأمر الله تعالى، وقاتلوا على ما قدر الله تعالى لهم، فضربوا أعناق المشركين وحدهم، أو مع المؤمنين، فضربوا كل بنان منفردين، أو مع المؤمنين، ولم يتجاوزوا ما قدره رب العالمين لأنهم يحكى عنهم هذا الأدب بقوله تعالى ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ وبقوله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب المذكور الوارد على المشركين يوم بدر ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وخالفوه او عاندوهما وعادوهما ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي بالنسبة إليهم ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي الأمر المقرر لكم العذاب

الواقع أو ذوقوا ذلكم ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أو مبتدأ خبره محذوف أي ذلكم واقع فذوقوه مرّا ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي ذوقوا ذلك، مع ما أُجِّل لكم من عذاب الآخرة، لأن للكافرين ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ وأنتم كافرون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ خطاب للمؤمنين بحكم مستمرّ كلي فيما يقع من الحروب في جهادهم مع الكفار.
ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ﴾ المحاربين الأعداء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿زَحْفًا﴾ أي لقاءَ زحف، أو زاحفين، أي مهاجمين ككتلة واحدة. والزحف: هو الدبيب، ويقال: زحف الصبي إذا دَبَّ على أسْتِهِ قليلا قليلا. ثم ينعت به الجيش الدهم المتوجه إلى العدو، لأنه لكثرته وتكاثفه يري كجسم واحد متصل، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ والمعنى: إذا لقيتم الكفار ماشين لقتالهم، متوجهين لمحاربتهم، أو ماشيا كل منكم إلى صاحبه فلا يدبروا، وتقييد

النهي بذلك الوقت لأن الإدبار فيه أفحش بالنسبة إلى الإنسان المسلم الغيور من سائر العيوب ففيه عار الدنيا ونار الآخرة!
﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم اللقاء في الحرب ﴿دُبُرَهُ﴾ ولو لم يفرّ ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ أي إلا منحرفا ومنصرفا عن جهة المواجهة إلى الاستدبار لمصلحة القتال ومكيدة تناسبه، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ أو إلا منحازا أو مائلا إلى جماعة من أصحابه المحاربين ليقاتلوا بخط واحد ونمط مضبوط ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي فقد رجع وأوي متلبسا بغضب عظيم كائن من الله ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هي.

والآية تدل على تحريم الفرار من الزحف على غير المنحرف أو المتحيز. أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هي؟ قال: الشرك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف)). وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ الآية... أما إذا كان أكثر، كأن يكون في مقابلة واحد ثلاثة من الكفار فيجوز الفرار. ففرار الواحد من الإثنين فرار، وفراره من الثلاثة ليس بفرار.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين والفاء في جواب شرط مقدر مستفاد من إنزال الملكة مَدَداً من الله. ومعنى الكلام: وما دام انتصاركم على المشركين كان بإمداد من الله فلم تَقْتُلُوهُم أتم بقوتكم وشجاعتكم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿قَتَلَهُمْ﴾ بقدرته ونصره، وتسليطكم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فلا تقولوا: ضربنا وقتلنا وأسرنا ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصى يوم بدر إلى وجوه المشركين ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ذلك إليهم ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ يعني ليعطي المؤمنين من عنده عطاء حسنا جزيلا جميلا.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم الداعية للإجابة ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي العطاء الحسن ذلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ وهذه الجملة المصدرة بأن المفتوحة معطوفة على اسم الإشارة، أي المقصد إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وإبطال دسائسهم الشيطانية.

وهنا بحثان:

الأول: في المراد بالرمي المنسوب إليه صلى الله عليه وسلم. فمنهم من قال: إنه رميه صلى الله عليه وسلم بالحصى يوم بدر، وما كان منه، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: لما طلعت قريش من العقنقل (اسم موضع): ((هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها: اللهم إني أسألك ما وعدتني)) فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان قال لعَلِيّ كرم الله تعالى وجهه: ((أعطني قبضة من حصباء الوادي)) فرمى بها وجوههم، وقال: ((شاهت الوجوه)) فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، فهذا جاء من عدة طرق، ذكرها الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى.

وذكر الطيبي: أنه كان يوم حنين. ورده الحافظ السيوطي. وذكر ما في حنين في هذه القصة بعيد جداً. وروي عن الزهري وسعيد بن المسيب: أنه رميه صلى الله عليه وسلم يوم أحد فإن اللعين أبيّاً بن خلف قصده عليه الصلاة والسلام فاعترض رجال من المسلمين له ليقتلوه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((استأخروا))، فاستأخروا فأخذ عليه الصلاة والسلام حربته بيده فرماه بها فكسر ضلعا من أضلاعه. وفي رواية خدش ترقوته فرجع إلى أصحابه ثقيلا، وهو يقول: قتلني محمد،

فطفقوا يقولون: لا بأس عليك. فقال: والله لو كانت بالناس لقَتَلَتْهم! فجعَلَ يَخورُ حتى مات ببعض الطريق.

والثاني: وجه الجمع بين السلب والإيجاب في قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ وفيه تأويلات. والخلاصة: أنه ما دام لا يجوز حملهما على خلق الرمي لأن الخالق هو الله تعالى، فلا يسند إلى العباد حتى يثبت أو ينفى، ولا حملهما على الكسب، لأن كسبهم ثابت بلا شبهة، فإنّ علاقة كل فعل اختياري بالعباد تنحصر في الكسب، فلا يجوز سلبه على معني سلب الاكتساب وجب حمل المسلوب على جهة الخلق والموجَبِ على الاكتساب أي ما خلقت الرمي إذ اكتسبتٍ الرمي، ولكن الله رمي وخلق ذلك الرمي بحيث يكون منشأً لتلك الآثار. او حملهما معاً على الاكتساب لكن برعاية قيدٍ مُوَجّه أي ما كسبت الرمي بحيث يكون منشأ الحصول تلك الآثار منه إذ كَسْبْتَهُ صُورةً، ولكنّ الله رَمى وخَلقه كذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ خطاب للمشركين على سبيل التهكم، والمعنى إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ حيث نصر الله أعلاهما، وقد زعمتم أنكم الأعْلى والأهدى ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن الحرب مع الرسول وعدائه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي فالانتهاء عنها خير لكم من الحرب التي لا تنسون ضربها ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى حربه ﴿نَعُدْ﴾ لمعاداتكم، وقد شاهدتم الآثار ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، أي لا تفيدكم اليومَ ولا بعدَه إلى الأبد تلك الفئة ولو كثرت عَدَدا وعُدداً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي والامر المقدر المقرر أنّ الله مع المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ الآية... المراد من الآية الشريفة الأمر بطاعة الرسول لأنه هو الذي أتى بأحكام الله تعالى أصلاً وفرعا. والأمر بطاعة الله تعالى هو توطئة للأمر بطاعة الرسول؛ لأن أحكام الله تعالى أوحيت إلى الرسول، وإطاعته لا يتحقق إلا بطاعته فقد قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي عن الرسول ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن الناطق بوجوب إطاعته ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالمنافقين الذين يدعون السماع ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي مطلقا أو سَماعاً نافعا لهم. فكأنهم لَيسوا بسامعين ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ أي الذين لا يسمعون الحق والذين لا ينطقون به ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ والذين أضافوا إلى العيبين عيبَ فقدانِ العاقلة التي عليها مَناط السعادة في الدارين.

والحاصل: أن الإنسان الذي لا يستعمل حواسه في ما يفيده، ولا عقله في ما ينفعه هو ملحق بأفق الأنعام الصم البكم اللّائي حُرِموا من العقول وإحساس الحواس. بل هم أضلّ الأن الأنعام الغير المكلفة لا حَرَج عليها، والإنسان مكلّف ويقع بما ذكر في أسوأ مآل وعاقبة.

ولما كان هنا مظنة سؤال هو: أن الله قادر على إسماعهم الخيرَ والرشد، فلم لم يسمعهم حتى يسمعوا ويطيعوا؟ استأنف لجوابه بقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وحُسْن استعداد لقبول الخير ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ كلامَه وآياتِه البينات وكلامَ الرسل المؤيدين بالمعجزات، لكنه لم يتعلق علمه بذلك بل

تعلق علمه تعالى بسوء استعدادهم وانهم يعارضون الحق وينكرونه، ولذلك لم يُسْمعهم إسماعاً ينفعهم. فاستعمال كلمة (لو) هنا على وضعها اللغوي للدلالة على انتفاء الثاني لانتفاء الأول. كما في قولك لمن بقي أعزب إلى أن شاب: لو تزوجت لاستفدت راحة نفسية من أهلك. فكلمة لو هذه ليست للاستدلال بانتفاء التالي المعلوم على انتفاء المقدم المجهول، بل لبيان أن علة انتفاء التالي المعلوم هو انتفاء المقدم المعلوم أيضا.

ولكن المخاطب غافل عن عليته له. وهذا معنى ما اشتهر بين النحاة من أن لو لامتناع الثاني لامتناع الأول وقد تستعمل كإن للشرط، أي لتعليق الثاني بالأول في الاستقبال، غير أنها لا تعمل الجزم كما أفاده ابن هشام في (مغني اللّبيب) وغيره من النحاة. وعليه قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ يعني إن أولئك الكافرين المعاندين في درجة من الاستكبار عن الحق لو أسمعهم الله تعالى بكل لطف ولين ورحمة لتولوا عن قبول الحق لأنهم طُغاة عُتاة، وهم معرضون عن الله ورسوله الأمين.

فالجملتان المصدرتان بكلمة لو جملتان مستقلتان، وكلتاهما تفيد فساد مزاج أولئك الكفرة وسوء استعدادهم وإباء نفوسهم الخبيثة عن قبول الدين ونظامه في العالمين. وليستا مرتبطتين كجملتي قياس اقتراني شرطي كما في قول المستدل: كلما كانت الشمس طالعة كان النهار موجودا، وكلما كان النهار موجودا كان العالم مضيئا حتى يرد اعتراضا من بعض الأغبياء أن الآيتين قياس اقتراني شرطي من الشكل الأول مع أن النتيجة فاسدة وهي لو علم الله فيهم خيرا لتولّوا، وذلك لأن القياس الاقتراني الشرطي مشروط بكون المقدمتين لزوميتين، وكون كبراهما كلية، والكل منتفـ أما إنتفاء الأول فلأنه لا يلزم من علم الله بوجود الخير في أي قوم إرسال الرسول إليهم وإسماعهم الكتاب لأنه مضت أيام الفترة على كثير من

الناس ولم يأتهم رسول، وكذا لا يلزم من الإسماع التولي والاستدبار بل يناسبه غيرهما. وأما انتفاء الثاني، أي كلية الكبرى، فلأن القضية المصدرة بكلمة لو مهملة، وهي في قوة الجزئية، ولا يصح وقوعها كبرى في الشكل الأول. ألا ترى فساد النتيجة في قولك كلما كان زيد إنساناً كان حساسا، وقد يكون إذا كان الشيء حساسا كان طيرا، والنتيجة قد يكون إذا كان زيد إنسانا كان طيرا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان تنشيط لهم على الإقبال على إطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا﴾ لحكم الله ورسوله وامتثلوا أوامرهما واجتنبوا ما نهيا عنه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي إذا دعاكم إلى شرب ماء زلال الشريعة التي تورثكم الحياة الخالدة المباركة الطيبة، وإلى التزام نظام تفيدكم الخلود في العلو والاعتبار، فمن لم يشرب زلال الشرع فهو ميت ساقط في وادي الضلال، ومن لم يلتزم النظام بقي حيران في الهيام ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي واعلموا أن الله قريب

منكم جدا بحيث كأنه بينكم وبين قلوبكم أي ومطلع على أسرار غيوبكم، فيجازيكم بحسب عزَائمكم ونياتكم. او اعلموا أن الله يقدر أن يحول قلوبكم إلى صفة الاستكبار والعناد والاستنكار بحيث ينقلب إلى أعمال فاسدة، وأخلاق كاسدة، وعقائد خاسئة جاحدة. والقلب مورد للتقلبات والانحراف نحو الأشياء النافعة والضارة، فاغتنموا أوقاتَ سلامتها، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءكم لتوجيهكم إلى ملاحظة الخيرات۔ ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي واعلموا أن الشأن عبارة عن أنكم تموتون وتبقون أزمنة في البرزخ بين الدنيا والآخرة، ثم يحييكم ويبعثكم من القبور ثم إليه أي إلى حسابه وميزانه ولقائه تحشرون.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي واحفظوا أنفسكم من عذاب ناشئ من مخالفة أوامر الرسول إذا نزل عليكم عم الظالمين منكم على حسب بغيه وعناده جزاء وفاقا، وغير الظّالمين منكم على جريان سنته السنيّة، بأنه إذا أراد إهلاك الملزوم أراد إهلاك اللازم، وإذا أراد فَناء العَرَض أراد فَناء الجوهر، وإذا أراد إماتة الوالدين العاصيين أراد افتقار اليتامى إلى الناس، وإذا أراد إهلاك عُتاة ظَلَمة أراد إتعاب أتباعٍ مِن حولهم من الخادمين، وإذا أراد إهلاك قوم بالقحط والجدب أراد إهلاك حشرات الولاية بإمحاء ما تعيش به من النبات والحاصلات...۔ ومع ذلك فكل مكلف يبعث على نيته على أن الله مختار في تصرفه في كل موجود، وهو الذي في كل فعاله محمود. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تعدي حدود الأحكام وأبى قبول الإسلام.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ في العَدد، وضعيف في العُدَد في الواقع و﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾ عند الأعداء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي ارض مكة وما حولها ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ أي يأخذوكم بسرعة خاطفة فيبيدوكم عن

بكرة أبيكم، أو ينقلوكم إلى بلاد أخرى ﴿فَآَوَاكُمْ﴾ إلى المدينة أرض المعيشة والاسترخاء فزدتم عدداً وعُدَدا ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ وأخرجكم من الضعف والاستضعاف والهوان بمناصرة الأنصار ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المكاسب والغنائم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والشكر بالنسبة إليكم عبارة عن الاستقامة على ما تقرر لديكم من كتاب الله وسنة رسوله، والعمل بمقتضاهما ليزيدكم بذلك نعما تتوالى عليكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الخون النقص، والوفاء الإتمام. والمراد بالخيانة هنا: عدم العمل بما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن خيانة الله تعالى بترك فرائضه، وخيانة الرسول بترك سنته، وارتكاب معصيته. ولعل ذلك على ملاحظة الاختصاص المستفاد من المتعلقين وإلّا فخيانة أي واحد منهما خيانة للآخر لأن الحكم حكم الله والبلاغ من رسول الله صلى الله عليه وسلم. عن عبدالله بن أبي قتادة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا لبابة بن عبدالمنذر إني قريظة، وكان حليفا لهم لينزلوا على حكم رسول الله، فاستشاروه في ذلك فقالوا له: ما هذا الأمر؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح. فنزلت الآية. قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي حتى علمت أني خُنْتُ اللهَ ورسولَه. رواه سعيد بن منصور وابن المنذر.

فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بمخالفة الأمر والنهي ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ معطوف على المجزوم قبله أي ولا

تخونوا أماناتكم فيما بينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون، فإن العصيان مع العلم أشدّ منه مع الجهل. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة بمعنى الإثم أو العقاب أو الابتلاء. وحملت على الأموال والأولاد لأنهما سبب الوقوع فيهما فإن مساعي الإنسان غالبا لجمع الأموال ولصيانتها، وذلك لرعاية الأولاد وصيانتهم، فهي السبب في المشاغل والمشاكل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن اختار رضاه على ما سواه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ الآية... نداء للمؤمنين وإرشاد لهم إلى وسيلة النجاح في الدارين فيقول لهم: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ حق تقاته بالاحتراز عن الكفر وسائر الكبائر وأداء الواجبات ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي هداية ونورا يفرق به بين المؤمن والكافر، أو تفرقون به بين الحق والباطل، أو قوة وتأييدا ونصرا يفرق به بين المحق والمبطل، أو تمييزا من أهل العذاب بعطايا ومثوبات حسنةٍ ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بسترها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فلا تُعذّبون بها في الآخرة. كما قال صلى الله عليه وسلم في شأن أهل بدر: ((لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم)). ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا مانع له من اختصاص أي عبد بما شاء من الإحسان.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نزلت في تآمرهم عليه صلى الله عليه وسلم وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصارِ ومُبايَعَتهم اجتمعوا في دار النّدوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: مِن نَجْدٍ سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم وأن تسمعوا مني رأياً ونُصْحاً، فقال أبو البحتريّ: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدّوا منافذَه غير كُوَّة تُلْقُونَ إليه طعامَه وشرابه منها حتى يموت. فقال الشيخ: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتِلُكم من قومه ويخلّصه من ايديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صَنَع. فقال: بئس الرأي! يفسد قوماً غَيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كلِّ بَطنٍ غلاما وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طَلَبوا العقل عَلَقْنا. فقال: صدق هذا الفتى. فتفرقوا على رأيه، فأتى جبريلُ النبيّ عليه السلام وأخبره بالخبر، فبيّت علياً رضي الله عنه في مضجعه، وخرج مع أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثائق محبوسا في بيت، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة إلى بلد بعيد لا ترجع منه بسهولة إليهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ أي ويحتالون بكل وجه في دفعك، ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ ويردّ مكرهم ويجعل وخَامَته وسوءَ عاقبته عليهم، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ لأن المكر إذا كان من مباشرة أدقّ طرق الوصول إلى المأمول فالله أعلم وأقدر على ذلك وإذا كان بمعنى الحيلة في دفع الأذى فالناس يحتالون في دفع الخير وهم فيه مخطئون، والله سبحانه إذا فعل شيئا من ذلك الباب فهو عامل بالحق وعالم به، ولا يصل أحد إلى علمه وعمله ورعايته الحق في مباشرة الأمور.

وادعى كثيرون أن المكر لا يطلق عليه تعالى دون مشاكلة لأنه حيلة تجلب بها مضرة إلى الغير وذلك مما لا يجوز في حقه تعالى. وردّ بأن حقيقة المكر: العمل بدقة في دفع مكروه عند الماكر، ولما كان الناس يخرجون من الحق إلى الباطل في ذلك صار المكر مذموما. وأما إذا كان باقيا على نهجه وهو إتقان العمل فلا امتناع منه. وينسب إلى الله بدون المشاكلة. نحو ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا﴾ نَزَلتْ في النضر بن الحرث من بني عبد الدار وكان يسافِر إلى فارس وأرض الحيرة فيسمع أخبار رستم وأسفنديار وأمثالهما، وكان يمرّ باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل، فهو الذي قال: لو نشاء لقلنا، وإنما أسند إلى الجمع في قوله تعالى ﴿قَالُوا﴾ لأن اللعين كان رئيسهم وزعيمهم الذي يقولون بقوله.

﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي مثل هذا القرآن، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وأساطير جمع أسطورة، كأحدوثة وأحاديثَ، ومعناه ما سُطِر وكتب. وفي القاموس: الأساطير الأحاديث لا نظام لها، جمع أسطير وأسطار وأسطور، وبِالهاءِ في الكل. وقول ذلك البعيد كان عن مكابرة وعناد، وإلا فالله سبحانه وتعالى تَحَداهم بمثله وبعَشْرِ سُوَرٍ مِن مثلِهِ وبسورة واحدة، فلم لم يأتوا به؟ ولو كانوا يأتون به لحُفِظَ ونُشر في العالم، ولم يكن فلم يقع. ﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ أي المشركون، لأنهم على أفجر قلب واحد، وإلا فالقائل النّضر أيضا على ما روي عن مجاهد وسعيد بن جبير. أو أبو جهل على ما أخرجه البخاري فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ من عندك أي إن محمدا هو رسول الله وأكرمه الله بيننا بالرسالة، أو إن القرآن كلام الله تعالى ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأجاب الله عن كلمتهم الشنعاء بقوله الكريم: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ لأنهم أرادوا عذاب الاستئصال وقد تعلقت إرادتي ببقائك وبقاء كثير من القوم المشركين، لأنه علم الله إيمانهم، أو أنه سيخرج منهم أولاد مسلمون عالمون عابدون ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وفيهم من يستغفر كالمستضعفين من المسلمين، أو كبعض من الكفرة بناء على قبول دعاء الكفار. ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أيّ شيء حصل لهم ممّا يمنع تعذيب الباري تعالى لهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي وحالهم المستمر منع المسلمين وصدهم عن زيارة المسجد الحرام؟ وما كانوا أولياءَه اي وما كانوا مستحقين ولاية المسجد الحرام ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك وسوء التربية والمبتغون لإطاعة الباري تعالى.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه. فهم في جهلٍ مركبٍ مُتَعمقون. ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي المسجد الحرام ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ أي صفيرا وصياحا ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي تصفيقا بضرب إحدى اليدين على الأخرى، كما هو دأب الجاهلين. فلا يتوهمنّ أحد أن المشركين كانوا على شيء من العبادات والصلاة التي هي صلة بين العباد وبين الله ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ المعهود الذي طلبتموه- ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالله ورسوله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (38) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية... نزلت على ما روي عن الضحاك في المطعمين يوم بدر، وكانوا إثني عشر رجلا من قريش يطعم كل يوم عشرَ جُزُر. أو في أبي سفيان استأجر ليوم أُحُد ألفين سوى من استجاش من العرب.- أي أتاه من الجيش عن طلبه، وأنفق عليهم أربعين

أوقية. أو في أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم: أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا.

ومعنى الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من المطعمين الناس يوم بدر ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ليمنعوا الناس عن الإرشاد في سبيل الله ونشر الإسلام في ربوع الأرض ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ أي أموالهم في مناسبات أخرى ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي تكون تلك الأموال المصروفة في تلك المصارف حسرة وأسفا على قلوبهم لأنهم صرفوها ولم يصلوا إلى أيّ نفع عاجل أو آجل، بل وصلوا إلى ضرر عاجل بضياع أموالهم، وضرر آجلٍ بورود العذاب والعقاب عليهم يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في أماكن أخرى عند اللقاء ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي استمروا على الكفر منهم ولم يسلموا ﴿إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يساقون إلى جهنم ليعذبوا بالنار فيها وإنما يحشرون إليها ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي الكافر من المؤمن ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ أي يضم بعضه إلى بعض ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ﴾ المحشورون إلى جهنم ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدارين.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي للمعهودين منهم، وهم أبو سفيان ومن معه ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عما هم عليه من معاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن دخلوا أو يدخلون في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ منهم من الذنوب ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى معاداته صلى الله عليه وسلم ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله تعالى بإهلاكهم وإصابتهم بأنواع من الأذى والبلاء. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي لا يكون ولا يوجد منهم إشراك بالله

سبحانه وتعالى ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ يعني ليضمحل جميع الأديان الباطلة بإهلاك أهلها ويبقى الدين الحق لله ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على انتهائهم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أولئك الفاسدون ولم يهتموا بالحق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي ناصركم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

<100>

الجزء العاشر

<101>

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما يقع عليه اسم الشيء، وهو الموجود قليلا او كثيرا غاليا أو رخيصا، حتى الخياط والمخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم، والمراد أنه مال أعطاه الله ورزقه. ويقسم بين الخمسة المذكورين بعد، والحكم

ثابت مستمر غير أن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام يُصْرف إلى ما كان يصرفه إليه في حياته من مصالح المسلمين. وقيل: يوزع على الأصناف الأربعة الباقية. وقيل: يعطى للإمام يصرفه حسب رأيه المشروع. وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: سقط بوفاته صلى الله عليه وسلم سهمه وسهم ذوي القربى. وصار الكل مصروفا إلى الثلاثة الباقية، وإذا كان من ذوي القربى مسكين يؤتى من سهم المساكين. وعند مالك رضي الله عنه الأمر فيه موكول إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم. وقال أبو العالية بظاهر الآية فيقسمه ستة أقسام ويجعل سهم الله إلى الكعبة إن كانت قريبة، وإلا فإلى مسجد كل بلدة وقع فيه الخمس كما قاله ابن الهمام رحمه الله تعالى. وذوو القربى بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلا بنو عبد شمس وبنو نوفل، ويعطون على مذهب الشافعي ولو كانوا أغنياء. وعند أبي حنيفة لا يعطون إلا عند الحاجة بالفقر والمسكنة. والآية نزلت ببدر وقيل: الخمس كان في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة. والأخماس الأربعة الباقية تصرف للغزاة. فعند أبي حنيفة رضي الله عنه: للفارس سهمان، وللراجل سهم واحد. وذهب الشافعي ومالك إلى أن للفارس ثلاثة أسهم؛ على أن الفرس له سهمان ولصاحبه سهم واحد، وللراجل سهم واحد. وذلك قول أبي يوسف ومحمد بن الحسن رحمهما الله وتعليل الأئمة في ما ذهبوا إليه وتفصيله في كتب الفقه، فارجع إليه إن شئت.

فيقول الباري تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ شرط وجزاؤه ما تقدم علبه، أو محذوف وهو دليل على المحذوف، وقوله ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ معطوف على اسم الله الكريم. والعبد محمد

صلى الله عليه وسلم والإضافة للتشريف ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ ظرف لقوله ﴿أَنْزَلْنَا﴾ أي يوم بدر الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ بدل منه. والجمعان: جمع الموحدين لله، وجمع المشركين به. وما أنزل فيه يستوعب الآيات البينات، والملئكة الكرام المبشرات، والنصر العزيز المنتشر نوره في الكائنات.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فيقدر أن يجمع الناس وينفع بعضَهم ويضر الآخرين، ويرفع بعضهم ويخفض الآخرين. وينزل آيات الأحكام لأهل الدين.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ بدل من يوم أو مفعول اذكروا المقدر. والعُدوة بالحركات الثلاث شط الوادي. والمراد بالدنيا القربى بالنسبة إلى المدينة المنورة، وكان محل المسلمين. وبالقصوى البُعْدى بالنسبة إليها، وكان محلا للمشركين. أي واذكروا زمان وجودكم في العدوة وأنتم في العدوة القُربي، وهم في العدوة البُعْدى ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي وعير قريش كان: أسفل منكم بنحو ثلاثة أميال على طريق الساحل ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي ولو تواعدتم أنتم يا أهل الإيمان مع أهل الإشراك في تعيين زمان للقتال لاختلفتم هيبة ورهبة من الكفار وعَدَدهم وعُدَدهم ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ولكن تَلاقيتم على غير موعد بينكم ليقضي الله أمرا، وهو إفاضة النصر للمؤمنين، وإبادة المشركين وكان ذلك الأمر ثابتا وجوده حسب علمه الأزلي.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي ليموت من يموت من الناس عن حجة عايَنَها، ويعيش من عاش عن حجة شاهَدَها. ومعنى ذلك أنه هلك الكافرون في حال وجود الحجة على أنهم غضب الله عليهم وسلب عنهم النصر من حيث أنهم مع كثرة عددهم ووفرة مُعَدّاتهم وحصانة محلهم قضى الله بنصر المؤمنين ودمار الكافرين حتى يكون الأمر <
<105

دليلا واضحا على أنهم كانوا كافرين كاسدين فاسدين.
والمؤمنون نَجَوا مع قلة عددهم وزادهم وأسبابهم وفساد محلهم ليكون انتصارهم معجزة دالة على صدق الرسول في أمر الرسالة وجلالة قدره وعظمة أمره. وذلك لأن عسكر الرسول في أول الأمر كانوا في غاية الخوف والضعف بسبب القلة وعدم الأهبَة، ونزلوا بعيدين عن الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضا رملية تغوص فيها أرجُلُهم، وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العدد وحصول الآلات والأدوات لأنهم كانوا قريبين من الماء، ولأن الأرض التي نزلوا فيها كانت صالحة للمشي، ولأن العير كانوا خلفَ ظهورهم، وكانوا يتوقعون مجيء المدد إليهم ساعة فساعة. ثم إنه تعالى قلب القصة وعكس القضية، وجعل الغلبة للمسلمين والدمار للكافرين فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر فقوله ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، وهو أن الذين هلكوا إنما هلكوا بعد مشاهدة هذه المعجزة والمؤمنون الذين بقوا في الحياة شاهدوا هذه المعجزة الظاهرة. والمراد من البينة هذه المعجزة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بكفر الكافرين وعقابهم وإيمان المؤمنين وثوابهم ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ بدل من يوم الفرقان أو متعلق بأذكروا، والجمهور على أنه صلى الله عليه وسلم أُرِي ما أُري في النوم. والمعنى واذكر إذ يريكهم الله أي يريك الكافرين في منامك قليلا حتى تخبر أصحابك عنهم فيكون ذلك تثبيتا لهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾ أي لو أراكهم الله كثيرا لأخبرت أصحابك بذلك وخافوا وجبنوا عن الإقدام على الحرب وفشلتم فيها ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي في أمر الإقدام على القتال، وتفرقت آراؤكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي أنعم عليكم بأن سلمكم وصانكم عن التنازع <
<106

والفشل ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بالأمور والخواطر التي تختلج في الصدور ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ واذكر إذ يريكم الله أعداءكم المشركين قليلا، حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن بجنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة. وكل ذلك كان لتثبيت المؤمنين ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إنما أصحاب محمد أكلة جزور. وكان هذا قبل في ابتداء الأمر قبل التحام القتال ليجزئوا عليهم، ويتركوا الاستعداد، ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا، وذلك ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ أي ليحقق في عالم الأعيان كائنا موجودا في عالم الصور العلمية ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ عسرها ويسرها.

وفي روح المعاني ما نصه: وذهب بعض أصحاب المكاشفات وأرباب المشاهدات من الحكماء والصوفية إلى أن الرؤيا مشاهدة النفس صورا خيالية موجودة في عالم المثال الذي هو برزخ بين عالم المجردات اللطيفة المسمى عندهم بعالم الملكوت، وبين عالم الموجودات العينيات الكثيفة المسمى بعالم الملك. وقالوا فيه موجودات متشخصة مطابقة لما في الخارج من الجزئيات مُثُلٌ لَها قائمة بنفسها مناسبة لما في العالمين المذكورين. أما لعالم الملك فلأنها صور جسمانية شبحية، وأما لعالم الملكوت فلأنها معلقة غير متعلقة بمكان وجهة كالمجردات حتى أنه يرى صوراً مثالية لشخص واحد في مرايا متعددة، بل في مواضع متكثرة كما يرى بعض الأولياء في زمان واحد في أماكن متعددة شرقية وغربية. ثم إن لتلك الصور مجالي مختلفة كالمرايا والماء الصافي والقوى الجسمانية سيما الباطنة إذا انقطعت عن الاشتغال بالأمور الخارجية العائقة، إذ بذلك يحصل لها زيادة مناسبة لذلك العالم كما للمتجردين عن العلائق البشرية. وإذا قويت تلك المناسبة كما للأنبياء

عليهم السلام والأولياء الكمل قدس الله تعالى أسرارهم ظهرت في القوى الظاهرة أيضا، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاهد جبريل عليه السلام حينما ينزل الوحي والصحابة رضي الله عنهم حوله كانوا لا يشاهدونه. هذا.

﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَـاثْبُتُوا وَاذْكُـرُوا اللَّهَ كَثِـيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَـلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَـعَ الصَّـابِرِينَ (46) وَلَا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ خَرَجُـوا مِنْ دِيَـارِهِمْ بَطَـرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَـرَوْنَ إِنِّي أَخَـافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَـدِيدُ الْعِقَـابِ (48) إِذْ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ غَـرَّ هَـؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ نداء عام ودعوة شاملة فيقول لهم: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ من المشركين وغيرهم من مناصريهم ﴿فَاثْبُتُوا﴾ للقائهم وداوموا على الجهاد ولا تولوهم الأدبار أي إلا متحرفين أو متحيزين ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ باللسان أو الجنان بالدعاء لدفع البلاء، أو بالشكر والثناء على الآلاء، أو بالتوجه إليه بالنداء نحو يا الله عليك التوكل وبك الاعتماد ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بمرامكم في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل سلب وإيجاب، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء على الأهواء ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ أي فتضعف قوتكم وتجبنوا عن اللقاء والمقاومة، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ والريح يستعمل مجازا بمعنى الدولة لتشبهها بها في نفوذها ودخول أمرها في الأقطار. وبمعنى ريح النصر وكلا المعنيين مناسب؛ لأن في التنازع انحلال الدولة وزوال النصر ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على ما أصابكم من القتل والجرح والآلام ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ومن الحكمة لا تبقى صدمة مع الصّبر.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم أبو جهل وأتباعه حين خرجوا من مكة لحماية العير ﴿بَطَرًا﴾ أي فخرا وأشراً ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وأصل رئاء: رئاي، قلبت الياء همزة لوقوعها طرفا بعد ألف زائدة والعين ياء لكسر ما قبلها. ونَصْبُ المصدرين على التعليل أو على الحالية. ورئاء الناس معناه ليثنوا عليهم بالسماحة والشجاعة.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش: أن ارجعوا فقد سلمت العير فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرا ونشرب الخمور وتعزف علينا القينات، ونطعم بها من حضرنا من العرب. فوافوها ولكن سقوا كأس المنايا بدل الخمور، وناحت عليهم النوائح بدل القينات، وكانت أموالهم غنائم بدلا عن بذلها.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عطف على جملة ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ ويجوز عطفها على المصدر على الحالية لا التعليل لأن الجملة لا تكون مفعولا له وصدهم عن سبيل الله صدهم عن دخول الناس في الإسلام ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي واذكر إذ زيّن الشيطان لأبي جهل ومن معه أعمالهم بإلقاء الأنانية والبطر في قلوبهم بصورة الوسوسة،

﴿وَقَالَ﴾ إلقاءً وإيهاماً: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾ أي عليكم ﴿الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ وأنا مجير وحارس وحافظ، وكلّ ذلك على منهج قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ أي تلاقى الفريقان فريق الجنة وفريق السعير ﴿نَكَصَ﴾ أي رجع القَهْقَرى ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ حال مؤكدة للعامل، أي بَطَلَ كيدُه وتندم ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ أي من مناصرتكم ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾: أي أرى إمدادا من الملئكة لا ترونهم أنتم، ومعنى ذلك إنهم منتصرون وأنتم منكسرون ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخاف الله عليكم حيث يهزمكم ويخزيكم ويجازيكم، أو على نفسي لأن لعذاب الله درجات بلا حساب ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كلام رب العالمين، أو تتمة ما قاله اللعين.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان بعد، وهم فئة من قريش أسلموا بمكة وحبسهم آباؤهم حتى خرجوا معهم إلى بدر. منهم قيس بن الوليد بن المغيرة، والعاص بن منبه بن الحجاج، والحرث بن زمعة، وأبو قيس بن الفاكه: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ المؤمنين الذين مع الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لقوم أولي بأس بنية أخذ عيرهم أو قتال أصحابها ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والعزيز غالب لا يغلب، والحكيم صاحب العلم الشامل والقوة الكاملة بحيث إذا عمل شيئا أتقنهُ.

﴿وَلَوْ تَـرَى إِذْ يَتَـوَفَّى الَّذِينَ كَفَـرُوا الْمَلَائِكَـةُ يَضْـرِبُونَ وُجُـوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِـكَ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَـوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَـرُوا بِآَيَـاتِ اللَّهِ فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ بِـذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَـوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَـدَأْبِ آلِ فِرْعَـوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَـذَّبُوا بِآَيَـاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)﴾

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له قابلية الخطاب ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ إذ الملائكة تقبض أرواحهم، والجواب لرأيت أمرا مهولا، وحال الملائكة أنهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ذلك الضرب والعذاب والقول الإنذاري بسبب ما قدمت جوارحكم وقلوبكم من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ معطوف على ما في ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ أي وبسبب تقرر أن الله ليس بظلام للعبيد، وإلا فجاز أن يعذبهم بغير ذنب، أو بذنوب غيرهم. ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي دأب هؤلاء الكافرين الذين عذبتهم الملائكة كدأب فرعون وآل فرعون ﴿وَ﴾ دأب الأقوام ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود وهو أنهم ﴿كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ﴾ والرسل الذين نزلت هي عليهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يسيطر على الطغاة العتاة والبغاة الماردين، الذين تكبروا وخرّوا لهواهم ساجدين، وأبوا أن يكونوا لله عابدين.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور المقرر من سببية الكفر والطغيان للعذاب بسبب تقرير ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ﴾ سابقا ولا يكون لاحقا ﴿مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ من الأقوام ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من

الأحوال والأعمال التي كانت تناسب النعمة المستفادة، ولو كانت حالتهم السابقة سيئة لان الله سبحانه وتعالى لا يباغت الناس بجزاء الأعمال فقد تكون بعض الأعمال السيئة السلبية مقرونة ببعض الأعمال المناسبة الإيجابية فيسامح عنها ولا يستعجل بعقوبتها الى أن يتجاوز أصحابها الى الإتيان بأعمال أخرى أقسى وأقصى فينتقم الله منهم، ويأخذهم الله نكال الآخرة والاولى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ للأقوال و﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات والأعمال، ومن راقب بهذه الدرجة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فيجازي ويعاقب.

﴿كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ﴾ من السابقين واللاحقين في الكفر والاستكبار، ومعاندة الرسل الأخيار ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والعناد وغيرهم بالظلم والإفساد.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ شروع في بيان أحوال سائر الكفرة بعد بيان أحوال الهالكين بالعذاب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وأصروا على الكفر وتمكنوا فيه لأن الإنسان

ممتاز عن سائر الدواب بالعقل، وفائدة العقل الفرق بين النافع والضار، وجلب النافع والاجتناب عن الضار، فإذا لم يستفد من عقله كان حكمه وشأنه كالدواب، ولما كان من المكلفين من سعى الله في قبولهم للدين ولم يقبلوه صاروا أفسد من الدواب لعدم توجه التكليف إليها. وقوله تعالى ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حكم مترتب على تماديهم في الكفر والعناد الشديدين.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الموصول، أي الذين أخذت العهد منهم ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ أي عهدهم الذي أخذت منهم ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرات المعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ نقض العهد وإخلاف الوعد.

ثم شرع في بيان الأحكام المترتبة عليهم فقال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي فإذا صادفتهم وظفرت بهم في الحرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ يعني ففرق بهم من كانوا خَلفَهم، يعني افعَل بهؤلاء الكفرة الناقضين للعهد نوعا من التنكيل والتعذيب حتى يتشرد من خلفهم من الخوف والفزع، ويخافوا منك ولا يأمنوا ولا يستريحوا في ديارهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعل من خلفهم يتذكرون ويعتبرون بأحوال أولئك الكفار الناقضين.

ثم ذكر حكم أناس لم ينقضوا العهد، لكنهم مشارفون على نقضه فقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ معكم ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ العهد ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي على طريق عدل مستوٍ بأن تبين لهم أسباب نقض هذا العهد وتخبرهم إخبارا واضحا بذلك. ثم علّل الحكم بنبذ العهد إليهم بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ فلا تحبهم أنت أيضا اقتداء بالله العلي العظيم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي ولا يحسبن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين على الناس متقدمين عليهم بالفضائل، بل إنهم مغمورون بالرذائل، أو سابقين في الميدان وفائتين عن الحساب ولا يحاسبون بل يأتي بهم الملائكة الذين أُمروا بالإتيان بهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ الله تعالى.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ الخطاب لكافة المؤمنين لأن إعداد العدة من وظائف الكل، ولكن الأمراء وأهل الحل والعقد منهم أدخل في الخطاب لأن إعداد العدة يحتاج إلى الثروة، ونفوذ الأمر، وتعلم العلوم، ولا مجال فيها للضعاف.

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ القوة تشمل كل ما يتقوى به الإنسان في الحرب من العلم والتدريب والرياضات البدنية والسباحة والرماية للسهام أو البندقية أو المدافع أو الطيارات والسيارات والسفن الحربية وطرق استعمالها والاستفادة منها. فذكر قوله ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ تخصيص فرد من العام بالذكر للاهتمام به. فكل ما روي من التفاسير للقوة بيان بعض من المحتملات أو فرد من المتناولات. والرباط بمعنى المربوط في سبيل الله على أن فعال بمعنى المفعول وإضافته إلى الخيل لبيان أحسن أنواع المركوبات في وقت النزول، لأن الجهاد على الخيل خير من الجهاد على الحيوانات

الأخرى، للسرعة في الكر والفر وخفة البدن ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ المخالفين لأمره من الكفار والبغاة ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ المتربصين بكم الدوائر ﴿وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي من غيرهم ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ بأعيانهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ لا غير. والمراد بعدو الله وعدوكم بحسب ذلك الوقت: المشركون، والمراد بالآخرين هم اليهود كبني قريظة وغيرهم سائر الكفار المتربصين بالمسلمين الدوائر. وأما بالنسبة إلى ما بعد زمان الرسول صلى الله عليه وسلم هم الكفار المجاورون المعاندون للدولة الإسلامية، والمراد بالآخرين غير المجاورين من سائر الكفرة والمخالفين. ولاشك في تطبيق الجملتين عليهم، لأن الله يعلمهم ونحن لا نعلمهم فإن كثيرا من الكفار يظهرون للمسلمين بمظهر الأصدقاء وهم في الواقع أعداء ألدّاء.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل أو جليل ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي يؤدى جزاؤه إليكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بترك الإثابة أو بنقصها، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ بفتح السين، أي وان مالوا إلى السلم وترك العداء والعُدوان ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فوض أمرك إليه في دفع الضرر من مكائد يطوونها في قلوبهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون سرا و﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم، وبما يخفونه منكم.

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ عز وجل ﴿بِنَصْرِهِ﴾ العزيز بلا واسطة أو بها ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بصلاحهم وسلاحهم، وبأقوالهم وأفعالهم ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ تأليفا لم يؤلف في عالم البشرية مع ما جبلوا عليه من العداء المتوارث في الحروب والوقائع الجارية سابقا ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وسلمته إليهم بشتى وسائل التسليم أكلا وشربا ولبسا واسكانا ﴿مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأن شأن المادة لا يتجاوز العادة، وليس من آثار صرف المادة إلا إسكات النفوس عن الحركات الطائشة، ولا يكتب بها صفاء القلوب واستراحة

الأرواح، وإنما يكتسبان من الرحمة النازلة منه تعالى عليها، ويختص برحمته من يشاء كما قال ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ نفسا وروحا، قلبا وقالبا ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في إضافة المادة إلى المعنى وإفاضة الانوار على كل شخص بقدره.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال، والظاهر على هذا شمولها للمهاجرين والأنصار. وعن الزهري أنها نزلت في الأنصار. وعن ابن المسيب أنها نزلت يوم أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مكملا أربعين مسلما ذكورا وإناثا، وهن ست، وحينئذ تكون مكية. وأما إعرابها: فحسب مبتدأ مضاف إلى الضمير، واسم الجلالة خبره، أو بالعكس، ومن اتبعك إما في محل النصب على أنه مفعول معه كقول القائل: فحسبكَ والضحاك سيفٌ مُهَنّد. أو في محل الجر عطفا على الضمير المجرور وهو جائز عند الكوفيين بدون إعادة الجار. أو في محل الرفع إما على أنه مبتدأ والخبر محذوف أي ومن اتبعك من المؤمنين كذلك أي حسبهم الله تعالى. وعلى هذه التقارير يكون حاصل المعنى: يا أيها النبي إن الله يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين. ويؤيده الاستقرار لآيات القرآن في موضوع الكفاية فكلها دالة على أن الله هو الكافي لجميع عباده وحده. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾. وقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾.

وإما على أنه خبر مبتدأ محذوف أي وحسبك من اتبعك، وإما على أنه عطف على الاسم الجليل واختاره الكسائي وغيره، وإن ضعف بأن الواو

للجمع ولا يحسن أن يقال حسبك الله ومن تبعك كما لا يحسن الجمع في قول القائل: ما شاء الله وشئت. وعلى هذا تؤول الآية بأن الله حسبك في العناية والوقاية، ومن اتبعك حسبك في التعاون والرعاية. وإذا جعلنا البشر بعضهم عونا لبعض فلا مانع منه، وقد قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ وقد جرت سنته في العالم بأن يجعل بعض أعمال العباد سببا لبعض آثار خيرية للعباد، فليكن المؤمن من الأسباب لصيانة الرسول وأمانته ونشر دينه في الآفاق ونصرته.

﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ حَـرِّضِ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَـالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِـائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُـوا أَلْفًـا مِنَ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِـأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لَا يَفْقَهُـونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَـعْفًا فَـإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَـابِرَةٌ يَغْلِبُـوا مِـائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْـفٌ يَغْلِبُـوا أَلْفَيْنِ بِـإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَـعَ الصَّابِرِينَ (66)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض: أن يحث الإنسان على شيء حتى يعلم منه أنه حارض أي مقارب للهلاك، فيقول سبحانه وتعالى للرسول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ رغب بقوة ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ على قتال الكفار ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ﴾ أي مائة صابرة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي ذلك الحكم ثابت بسبب أن الكافرين جهلة لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فليست لهم نية قوية تكون سببا لثبات يليق بالمحارب. وذلك لكفرهم بالله واليوم الآخر. وإن يكن منكم ألف يغلبوا عشرة آلاف بتوفيق الله وتأييده لعباده بالنصر المبين.

ولما أوجب الله تعالى على المؤمنين مقاومة الواحد منهم للعشرة من الكفار في صدر الإسلام، وكان ذلك لقلة المؤمنين وكثرة الكافرين، وقد كثر المسلمون بعد ذلك، وكان مما يثقل عليهم مقاومة الواحد للعشرة، نسخ الحكم السابق بوجوب مقاومة الواحد للاثنين وقال: ﴿الْآَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ في البدن بكثرة ممارسة الأسفار والحروب ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقال المكي: إنها ليست ناسخة للآية الأولى وإنما هي مخففة لحكمها كالفطر للمسافر ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)﴾

قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ أخرج أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسرى فيهم العباس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله تعالى أن يتوب عليهم. وقال

عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قَدِّمهم فاضرب أعناقهم. وقال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه: يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأضرم عليهم نارا. فقال العباس: وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك! فدخل النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئا فقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة. فخرج رسول الله فقال: ((إن الله لَيُلّين قُلوب رجال حتى يكون ألْيَنَ من اللبن، وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشد من الحجارة. مثلكَ يا أبا بكر مثلُ إبراهيم عليه السلام قال: من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم)) فيقول الباري سبحانه وتعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ﴾ أي ما كان مناسبا لحال نبي من الأنبياء، ولك بالذات، أن يكون له أسرى ويراعى أسرى الحرب عنده ويبقيهم ولا يقتلهم حتى يثخن ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ويغلب على أهلها بالإهلاك والتدمير والإبادة والإفناء، لأن الرسول شأنه التبليغ والإرشاد الى الدين فإذا أطاع الناس ودخلوا في الدين فبها ونعمت، وإن خالفوا وعاندوا وأخذوا يقاتلون، واضطر الرسول وأتباعه للقتال دفاعا عن الدين فحق الرسول أن يقاتل حتى يثخن في الأرض ويبالغ في القتل ولا يدع لهم شوكة وهيبة، فاذا اثخن في الأرض جاز أن يأخذ الأسرى ويرعاهم عنده الى أن تضع الحرب أوزارها فيعمل فيهم بما فيه صلاح الاسلام والمسلمين. وأما اذا لم يثخن في الارض ولم تكن له شوكة فلا يجوز له أن يأخذ الأسري ويتركهم عنده.

ولما استشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه ورأي كل ما عنده أخذ يوافق قول أبي بكر رضي الله عنه بابقاء اسري حرب بدر، وترك رأي عمر ابن الخطاب وغيره ممن أشار عليه بقتلهم.. أنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة الدالة على أنه لم يكن هذا الرأي مناسبا فإنه في مبادئ

القوة والشوكة، وكان الأنسب قتلهم حتى تستأصل شأفة المشركين ومن يواليهم. وقوله ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ إلفات نظر الرسول والجماعة إلى أنهم يريدون أخذ الفدية من الأسرى وإطلاق سراحهم، وتلك الفدية عرض الدنيا ومتاعها ولا ثبات له، والله يريد لكم ثواب الآخرة والآخرة خير وأبقى ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ينصر أولياءه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ يعمل ما يليق بالاحوال ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لولا مكتوب في اللوح المحفوظ سبق أن لا يعذب قوما أنت فيهم، أو لولا كتاب سبق بأن ما اقتضاه رأيك بعد المشاورة حق مقبولٌ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ مِن الفدية ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، ولكن لما سبق الكتاب تحقق أن ما باشرتموه صواب ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ سواء ما أخذتموه من أموال المحاربين بعد انكشافها، أو من الاسرى كفدية لخلاصهم من القتل حالكونه ﴿حَلَالًا﴾ مباحا، أو أكلا حلالا ﴿طَيِّبًا﴾ لا يشوبه ألم مادي أو معنوي ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته و﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ وتحت نفوذكم ﴿مِنَ الْأَسْرَى﴾ الذين أخذتم منهم الفداء: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي يتعلق علمه تعالى بأثر طيب حادث في قلوبكم من الايمان والتصديق ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالمواهب الربانية والمكاسب البدنية، وفي الآخرة بالمثوبات الحسنة والجنات العلية ولقاء ذات الباري ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما فرط منكم في مجابهة الرسول وأصحابه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ أي نقض ما عاهدوك عليه من أن لا يعودوا لمحاربتك ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ يعني وإن يريدوا الاستمرار على الاشراك ومخالفة الاسلام فلا تهتم بهم ولا تخف ولا تحزن فإنهم لن يبلغوا ولن يصلوا ما يريدون ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ والرسول ﴿مِنْ قَبْلُ﴾

وحاربوا مع أن الله تعالى أقدرك عليهم حسبما رأيت في بدر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم و﴿حَكِيمٌ﴾ في شؤونه كيف ينصر رسوله ومن معه، وكيف يكسر ويهزم أعداءه انه على كل شيء قدير.

ومما ينبغي أن يعلم أن العلماء اختلفوا في أنه هل يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجتهد في استنباط حكم ديني أولا؟ وعلى تقدير الجواز هل وقع ذلك؟ وعلى تقدير وقوعه هل تجوز معارضة اجتهاده باجتهاد شخص آخر؟ وجمهور الأصوليين على أنه يجوز له أن يجتهد لعموم قوله تعالى ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أعلى الناس بصيرة. وأكثرهم اطلاعا على شرائط القياس، فيكون مأمورا به وكان الاجتهاد بالنسبة إليه واجبا فضلا عن الجواز ولأن الاجتهاد في الأحكام أشق وأدل على الفطانة فلا يتركه. ومن المجوزين لاجتهاده من قال بوقوعه في مسائل، منها: قضية أسرى بدر التي رأى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ الفدية عنهم وإطلاق سراحهم. ومنعه بعض منهم؛ لأنه يوحى إليه في ما أشكل عليه وإذا وجد النص فلا مجال للاجتهاد. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ وحكى الإمام في المحصول قولا ثالثا أن اجتهاده جائز فيما يتعلق بالحروب ومنها قضية الاسرى. ونقل عن أكثر المحققين التوقف.

والحق ما رآه بعض المحققين وهو أنه وإن جاز الاجتهاد إلا أنه لم يقع، وبيان ذلك أن هناك نصا واجتهادا ورأيا مربوطا بأهل الفكر في رعاية المصالح، أما النص فواضح حيث ينزل عليه صلى الله عليه وسلم فيطبق مدلوله. وأما الاجتهاد وهو: استفراغ العالم ما في وسعه من الطاقات العلمية في استنباط حكم من الأحكام، فلم يقع ذلك منه صلى الله عليه وسلم ولو كان ذلك من دأبه ما كان يتوقف في الأحكام إلى أن تنزل الآية

لبيانها، وما وقع منه صلى الله عليه وسلم في بعض المسائل الدينية كاستثناء الإذخر مما يحرم قطعه من نبات الحرم فهو من الإلهامات الآنية التي وردت على خاطره الشريف، والوحي يشمل الإلهام، وإلهام الرسول مصون عن الخطأ.

وما وقع منه في قضية أسرى بدر وامثالها فلم يكن اجتهادا، وإنما كان ناتجا من استشارة أهل الخبرة من أصحابه، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ وهو عليه الصلاة والسلام كان مخولا باختيار ما رآه مناسبا من الآراء. ولم يكن ذلك اجتهادا وسعيا وتكلفا لاستنباط الحكم، وإنما كان أخذا برأي كان صوابا عنده. وما نزل بعدها من آيات تدل على تنسيب لغير ما اختاره صلى الله عليه وسلم، فلم يكن لتخطئة رأيه وإنما كان لبيان أن رأيه وإن كان صوابا حسنا لكن كان هناك أحسن منه كما في قوله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ وكما في قضية الاسرى هنا. فإن الآية لا تدل على أن الرأي كان خطأ والصواب غيره، بل غايته أن وجود الاسرى وأخذ الفداء منهم لم يكن لأي نبي سابق حتى يثخن في الأرض ولكنه أبيح لك لمصلحة رأيتها، ولو لم يسبق حكم منا بإباحة ذلك لكم لكان وبالا عليكم، ولكنه أبيح لكم ولم يرد عليكم شيء.

والحاصل: أن أحكام الرسول صلى الله عليه وسلم إما كانت تطبيقا للآيات المنزلة، أو بإلهام من الله سبحانه وتعالى، أو باعتبار رأي من الآراء الدائرة إذ ذاك. ولما كانت الاستشارة مأمورا بها كان اعتبار ما اختاره صلى الله عليه وسلم نتيجة لما أمر الله تعالى به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73) وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)﴾

ثم أخذ الباري سبحانه في بيان مناقب المؤمنين من المهاجرين والأنصار المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الحق والدين. فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ وهم المهاجرون الذين تركوا أوطانهم وأموالهم لأعدائهم، ووصلوا إلى بلاد لم يكن لهم بها أنس وألفة، وتحملوا في الوصول إليها أنواع الكلفة ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ أي بصرفها في الكراع والسلاح ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا﴾ أي آووا المهاجرين وأنزلوهم في منازلهم، بل وآثروهم على أنفسهم، ونصروهم على أعدائهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الجليلة الجميلة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث على ما هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد، والسدي وقتادة فإنهم قالوا: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم فكان المهاجري يرث أخاه الأنصاري اذا لم يكن له بالمدينة ولي مهاجري، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجري! واستمر أمرهم على ذلك الى فتح مكة، ثم توارثوا بالنسب بعد إذ لم تكن هجرة.
فالولاية في الآية الكريمة على هذا الوراثة المسببة عن القرابة الحكمية ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فلا تنصروهم عليهم لما في ذلك من نقض العهد ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ منهم أي في الميراث كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة: في المؤازرة ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي إلا تفعلوا ما أمرتم به في الآيتين تحصل فتنة عظيمة، وهي اختلاف الكلمة وضعف الإيمان، وظهور الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ وهو سفك الدماء على ما روي عن الحسن.

﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تَبَعَة عليه ولا مِنَّةَ ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ أي ذوو القرابة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ آخر منهم ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: توارث المسلمون لما قدموا المدينة بالهجرة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية. واستدل بها على توريث ذوي الأرحام الذين ذكرهم الفَرَضِيّون. وذلك لأنها نسخ

بها التوارث بالهجرة، ولم يفرق بين العصبات وغيرهم فيدخل من لا تسمية لهم أي نصيب مسمى كذوي الفروض، ولا تعصيب، وهم - هم. وبها أيضا احتج ابن مسعود كما أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم على أن ذوي الأرحام أولى من مَوْلى العَتاقَةِ.

<125>

سورة التوبة، مدنية، وهي مائة وتسع وعشرون آية

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (6)﴾

ووجه مناسبتها للانفال أن: فيها قسمة الصدقات لثمانية أصناف، كما فيها قسمة الغنائم لخمسة أصناف، وهنا نبذ العهد وفي الأنفال ذكرها.

وفي ترك كتابة البسملة أولها أقوال: قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه سورة أو آية يعين موضعها، وبعد نزول البراءة توفي ولم يبين موضعها، فاختلفت الصحابة أنها مع الأنفال سورة واحدة، أو سورتان ففصلوا بينهما نظرا لكونهما سورتين. وتركوا التسمية نظرا إلى أنهما سورة واحدة.

والحق أنهما سورتان ولم تكتب البسملة في اولها الآن البسملة آية الأمان والرحمة، وبراءة نزلت بالسيف ونبذ العهود. وأما قراءة البسملة في أولها ففيها أقوال، والراجح أنه يستحب تركها، ويقرا القارئ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ من لابتداء الغاية، أي هذه براءة واصلة من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ والمعنى إن الله ورسوله برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

وذلك أن المسلمين عاهدوا المشركين فنكثوا إلا أناسا منهم بنو ضمرة وبنو كنانة. فأمرهم الله بنبذ العهد إلى الناكثين. وأمهل المشركين أربعة أشهر ليسيروا أين شاءوا فقال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم؛ لانها نزلت في شوال. وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر لأن التبليغ كان يوم النحر، لما روي أنها لما نزلت أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّاَ رضي الله عنه راكبا على ناقته العضباء ليقرأها على أهل الموسم.

وكان قد بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: لا يؤدي عني إلا رجل منّي، فلما دنا علي رضي الله عنه سمع أبو بكر الرغاء، فوقف وقال: هذه رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه، وحدثهم عن مناسكهم. وقام عليّ يوم النحر عند جمرة العقبة، وقال: أيها الناس إني رسول الله إليكم فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية. ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده.

وإرساله سيدنا عليا رضي الله عنه بهذا، وعدم الاكتفاء ببيان أبي بكر مع أنه كان أمير الحج جار على ما استقر من عادة العرب من أنه إذا عاهد شيخ قبيلة شيخ قبيلة أخرى وجاء وقت لنقض ذلك العهد كان الناقض نفس المعاهد أو واحداً من عَصَابته، لأنهم ما كانوا يقتنعون بنقض شخص آخر من غير عصباته، وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم بعث لأداء الاحكام عنه كثيرا لم يكونوا من عترته، فالخصوصية للعهود ونبذها.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ في تلك المدة ولا في غيرها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي اعلام ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ عامةً ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ والمراد به يوم عيد الأضحى، لأن فيه أكثر أعمال الحج، ولما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر. قال: هذا يوم الحج الأكبر. وروي ذلك عن علي كرم الله وجهه، وابن عباس، وابن جبير، وابن زيد، ومجاهد وغيرهم... وعلى ذلك فالحج الأصغر يوم عرفة لأنه يجتمع الناس فيه أيضا كما يجتمعون في

يوم العيد في منى، وفي المطاف، أو وصف الحج بالاكبر لانه في مقابل العُمرة وهي الحج الأصغر.

وأما تسمية الحج الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة بالاكبر فلم يذكروها كما قاله صاحب روح المعاني، وإن كان ثواب ذلك الحج زائدا على غيره كما نقله الجلال السيوطي في بعض رسائله وقوله ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي أذان وإعلام بأن الله بريء من المشركين ورسوله بريء منهم كذلك ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من الإشراك ودخلتم في دين الإسلام دين التوحيد، وآمنتم بالله ورسوله وبما جاء به من الله تعالى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في الدارين ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة والرجوع إلى الله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ لا تفوتون من مجال نفوذ قدرة الباري ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الدنيا أو في الآخرة. وقوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إستثناء من المشركين المذكورين أولا أو ثانيا لأن المقصود البراءة من عهدهم لا من ذواتهم، لأن الله ورسوله بريئان منهم بلا استثناء وتقييد. ومعنى الاستشهاد حينئذ أنهما ليسا بريئين من عهدهم الذي وفوا به، أو من المقدر في قوله ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ على معنى قولوا لهم سيحوا في الأرض بدون تعرض لكم أربعة أشهر فقط ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ معهم ووفوا بالعهد ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروطه، وأدوها إليكم بتمامها ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من الأعداء، وهم: بنو كنانة، وبنو ضمرة. وروي عن ابن عباس أنهم حي من بني كنانة ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ وقد بقي منها تسعة أشهر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ المراعين للعهود.

روي أنه عدت بنو بكر على بني خزاعة في حال غيبة رسول الله صلى الله عليه وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي

على رسول الله وأنشده أبياتا مستنجدا به صلى الله عليه وسلم. فقال صلى الله عليه وسلم: ((لا نُصِرتُ اِنْ لم أنصركم)).

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ التي عينت للناكثين لا الأشهر التي حرم الله فيها القتال؛ لأن حرمتها نسخت بالإجماع. وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي فأسروهم، واحبسوهم، واقعدوا للاستيلاء عليهم في كل ممر ومعبر ومجتاز يختارونه في أسفارهم ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي عن الاشراك بسبب الإيمان بالله وحده وبرسوله محمد خاتم النبيين والمرسلين ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي فاتركوهم، بل وباركوا فيهم، أو خلوا سبيلهم إلى طواف البيت؛ لأنه مطاف المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن آب وتاب ومات على الصواب.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين ظهرت منهم مبادئ الرجوع إلى الحق ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ وطلب منك المجاورة بعد انقضاء المدة المضروبة ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي فَأمِّنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ وكلام رسوله ويألف المسلمين وآدابهم ﴿ثُمَّ﴾ إذا أراد أن يرجع إلى محله ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ الذي يأمن البقاء فيه ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المار ثابت بسبب ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإسلام والإيمان، وما كلام الله ورسوله. ويمكن أن يستفيد من الإذن في الجوار ما يدعوه إلى النور ويبعده من النار. ودين الاسلام دين السماح والكرم والاعتبار.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْـرِكِينَ عَهْـدٌ عِنْـدَ اللَّهِ وَعِنْـدَ رَسُـولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْـتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْـفَ وَإِنْ يَظْهَـرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُـوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُـونَكُمْ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَتَـأْبَى قُلُـوبُهُمْ وَأَكْثَـرُهُمْ فَاسِـقُونَ (8) اشْـتَرَوْا بِآيَـاتِ اللَّهِ ثَمَنًـا قَلِيلًا فَصَـدُّوا عَنْ سَـبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (9) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُـؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَـدُونَ (10) فَـإِنْ تَـابُوا وَأَقَـامُوا الصَّـلَاةَ وَآتَـوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ (11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَـانَهُمْ مِنْ بَعْـدِ عَهْـدِهِمْ وَطَعَنُـوا فِي دِينِكُمْ فَقَـاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْـرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَـانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُـونَ (12) أَلَا تُقَـاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُـوا أَيْمَـانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُـولِ وَهُمْ بَـدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَـوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَـقُّ أَنْ تَخْشَـوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (13) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْـزِهِمْ وَيَنْصُـرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْـفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُـوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15) أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُـوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَـدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16)﴾

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ بيان للحكمة الداعية للبراءة من المشركين الناكثين. والاستفهام لإنكار الوقوع، ويكون تامةٌ،

وكيف في محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف،
ومعناه: لا يكون ولا يحصل ولا يتحقق للمشركين الأعداءِ عَهدٌ
عند الله وعند رسوله ﴿إِلَّا﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ووفوا بعهدهم ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا
لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يراعون العهود ويفرقون بين
الناقضين للعهد والماضين عليه. ﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهد ﴿وَ﴾
حالهم أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا
فِيكُمْ﴾ لا ينتظرون ولا يراعون في المعاملة معكم ﴿إِلًّا﴾ أي
حلفا أو قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أي عَهدا وميثاقا ﴿يُرْضُونَكُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وبألسنتهم المُدَرّبَة على التلفظ بما يشاءون ﴿وَتَأْبَى
قُلُوبُهُمْ﴾ التزام ما يتكلمون به من المحبة والوداد معكم
﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله، متمردون عن
دينه لا عقيدة لهم تَزَعُهم، ولا مُروءة تَرُدّهُم. وتخصيصُ الحكم
بالأكثر أمر لا ريب فيه، لأن في كل قومٍ فاسدٍ أناساً
مخصوصين بقيادتهم إلى الفساد.

﴿اشْتَرَوْا بِآَيَاتِ اللَّهِ﴾ المتضمنة للأمر بالتزام الإسلام وإطاعة
سيد الأنام ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من حُطام الدنيا وشهواتها الوقتية
﴿فَصَدُّوا﴾ وَأعْرضوا ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهو الدين الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ساء الذي يعملونه أو ساء عملهم ﴿لَا
يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾ أينما كان ومن أي قوم كان ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾
أي حلفا أو قرابة أو عهدا، لا أنهم لا يرقبون فيكم فحسب بل
إن عداءهم عداء للحق والدين وشريعة السماء، ولكن ظهر
العداء لكم حسب اللقاء. ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المشركون الموصوفون
بالصفات السابقة ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المتجاوزون عن الحدود
﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عما هم عليه من الكفر وسائر الكبائر كنقض العهد
المشروع ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي والتزموا أحكامَ
الإسلام وأركانه من كل الجوانب ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وهو
الاسلام؛ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ الْآَيَاتِ﴾

المبينة لأحكام الدين اعتقادا وعملا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق ويميزون بين الحق والباطلِ لعلّهم يَرْشدون.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ كما نكثوا سابقا ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فهم في هذه الحالة أئمة الكفر وقادة الناس إليه ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ على الحقيقة، فلا يراعونها بالحقيقة، ويتحولون في كل فرصة ودقيقة ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ عما استمروا عليه ويتوجهوا إلى الدين.

قوله: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾ فيه تحريض على قتال أولئك المشركين، فإن الاستفهام فيه للإنكار، وإنكار النفي يفيد الإثبات. فيقول: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا﴾ أي نقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ أي التي حلفوها عند المعاهدة معكم على أن لا يعاونوا أحدا عليكم، فعاونوا حلفاءهم بني بكر على بني خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ أي حين تشاوروا أخيرا في دار الندوة ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ﴾ أي بالمقاتلة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وذلك يوم بدر. وقالوا بعد أن وصلهم خبر مرور القافلة بسلامة: لا نرجع إلى مكة حتى نستأصل محمداً وأتباعه ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أي أتتركونأتتر كون قتالهم مع كفرهم وإشراكهم وعدولهم عن مقتضى العهود والأيمان خشية أن يصيبكم منهم مكروه؟ ! ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حق الإيمان حتى تعرفوا أنه يجب الجهد لإزالة الكفر في العالم.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل والجرح والأسر ويخزهم ويلق عليهم الهزيمة الموجبة للخزي ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يجعلكم غالبين عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ من الذين تَألموا من جهتهم بشتى الأساليب. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم بطونٌ من اليمن وسبأ قدموا مكة وأسلموا ﴿وَيُذْهِبْ﴾ عطف على يشف ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ بما نالهم من الأذى، ولم يتمكنوا من دفعه، ومن أهم الأذى انتهاك محارم الله تعالى والكفر به

وتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم إذ يتوبوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، ولا يعمل إلا ما فيه حكمة أو حِكَمٌ وافية ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ حق الجهاد ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي بطانة وصاحب سِرٍّ، لأن علم الله تعالى كما تعلق أزلاً بجميع المعلومات كذلك يتعلق بجزئياتها التي تحدث في المستقبل وهذا التعلق هو تابع لحدوث الحوادث، فإذا لم يتحقق الحادث لم يتوجه التعلق به ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها.

﴿مَـا كَـانَ لِلْمُشْـرِكِينَ أَنْ يَعْمُـرُوا مَسَـاجِدَ اللَّهِ شَـاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِـدُونَ (17) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَأَقَـامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَـى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُـوا مِنَ الْمُهْتَـدِينَ (18) أَجَعَلْتُمْ سِـقَايَةَ الْحَـاجِّ وَعِمَـارَةَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَجَاهَـدَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْـتَوُونَ عِنْـدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ (19) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَـةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أخرج أبو الشيخ وابن جرير عن الضحاك: أنه لما أُسِر العباس عيره المسلمون بالشرك، وقطيعة الرحم، وأغلظ عليه علي كرم الله وجهه في القول فقال: تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا: إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونقري الحجيج، ونفك العاني... فنزلت. يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا ينبغي لهم ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أي شيئا من المساجد أيّاً كان. وعن عكرمة: أن المراد به المسجد الحرام، واختاره بعض المحققين. وعبر عنه بالجمع لأنه قبلة المساجد وإمامها، وتتوجه إليه محاريبها ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ بإظهار ما يدل عليه ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾ على الوجه الذي نطق به الشرع الشريف ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ﴾ أي وجاء بها الى الرسول في حياته، ثم الى أمير المسلمين بعده ثم يوزعها بنفسه ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ فلم يمنعه شيء من إطاعة الباري جل جلاله ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ﴾ الناس الموصوفون بالصفات السابقة أن يكونوا من المهتدين الى الجنة ونعيمها خالدين ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي أهلهما ﴿كَمَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فإذا كان الأول من المشركين فهو لا يخلصه من السعير، وان كان من المؤمنين فهو أدنى من الأخير بكثير ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بارتكاب الشرك الى دار النعيم ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الذين لم يتصفوا بتلك الصفات، فإن كان المفضل عليه من المؤمنين فهناك مجال لبحث الدرجات، وإلا فلا مجال لبيان التفاوت بين أهل الدرجات وأهل الدركات ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالإيمان.

وما بعده ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنسبة إلى غير المؤمنين فوزاً مطلقا، وبالنسبة إلى المؤمنين فوزا مقيدا بزيادة حسب ما اختاره رب العالمين ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في الدنيا على لسان رسوله الكريم ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ واسعة ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ شامل ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ ثابت ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في المهاجرين؛ فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وابناءنا وعشيرتنا، وذهبت تجارتنا، وهلكت أموالنا، وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين، فنزلت، فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه، ولا ينزله، ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم في ذلك.

فيقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي أحباء لكم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ وأصروا عليه بحيث لا يرجي خلاصهم منه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي كلهم أو بعضهم ﴿مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضعهم الودّ والموالاة في غير محلها اللائق.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي للمؤمنين

﴿إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي أهل قرابتكم ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ للبقاء فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ وتفارقون الله والرسول وتتركون الجهاد للاستمتاع بملازمة المذكورين والمذكورات ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي فانتظروا حتى يأتيكم الله بعقوبة عاجلة وعذاب آجل ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن إطاعة الله ورسوله لموالاة أولئك الأشياء المحقرة في نظر العارفين.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27)﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ﴾ خطاب للمؤمنين، وبيان المنة عليهم بالنصر على الأعداء. واللام موطئة للقسم أي أقسم بالله لقد نصركم الله في مواطن ﴿كَثِيرَةٍ﴾، منها وقعة بدر، ووقعة قريظة، والنضير والحديبية، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، وهو واد بين مكة وطائف فحارب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، وكانوا اثني عشر ألفا، العشرة آلاف الذين حضروا فتح مكة والألفان انضموا إليهم من الطلقاء وهم الذين منَّ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فلما التقوا مع الأعداء: هوازن، وثقيف قال بعض المسلمين: لن نغلب اليومَ من قلة إعجابا بكثرتهم واقتتلوا اقتتالا شديدا، وانهزموا

كما قال تعالى ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ أي الكثرة ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها وسعتها لا تجدون فيها مقرا تطمئن فيه نفوسكم. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ منهزمين حتى وصل بعض منكم مكة، ولم يبق مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا عدد قليل نحو عشرين شخصا منهم أبو سفيان ابن الحرث ابن عم الرسول، والعباس عمه. فقال للعباس: صح بالناس وكان صيِّتا فنادى: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة. يعني اصحاب بيعة الرضوان، يا أصحاب سورة البقرة، أي الذين حفظوها وهم عظماء أصحابه صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم... فكرّوا عنقاً واحداً يقولون: لبيك! لبيك! فاقتتلوا مع المشركين. فقال صلى الله عليه وسلم: ((هذا حين حمى الوطيسُ)).

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي رحمته التي سكنوا بها ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم يعني الملائكة، وكانوا خمسة آلاف فغلبوا على الأعداء الألداء ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والاسر والسبي ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ في هذه الدنيا ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ من بعد ذلك ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بهدايته للإسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ روي أن ناسا منهم جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّهم، وقد سبي أهلوها وأولادنا، وأخذت أموالنا، وقد سبي يومئذ ستة آلافِ نفسٍ، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى. فقال صلى الله عليه وسلم: اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن هؤلاء جاؤا مسلمين، وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئا فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا، وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه

مكانه. فقالوا: رضينا وسلمنا. فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا، فرفعوا أنهم قد رضوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ النجس مصدر والاخبار به عن اسم العين للمبالغة، حتى كأنهم عين النجاسة. أو المضاف مقدر أي ذوو نجس في الاعتقاد لفساده وضلالهم فيه، وصفات نفسية خسيسة لخزنهم الحقد والبغض والعداء للمسلمين، بله أحوالهم الفاسدة بينهم وعداء بعضهم لبعض. أو المعنى بمنزلة النجس لأنهم لا يراعون الجنايات والأحداث، ولا يهتمون باجتناب النجاسات في المأكل والمشرب، فمشربهم الخمر ومأكلهم الخنزير. أو إن النجس صفة مشبهة أي قوم نجس ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ والنهي عن القرب كناية عن النهي عن الدخول. وعن عطاء: نُهُوا عن دخول الحرم كله. فيكون النهي عن القرب على ظاهره، وبه أخذ أبو حنيفة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي فقرا بسبب منعهم عن القرب من المسجد الحرام لأن مجيء أفواج المشركين للطواف يستلزم صرف الأموال في المعاملات والمحاباة والهدايا ونحوها، وإذا منعتم عن الطواف فقد فاتت الفوائد، فلا تهتموا بذلك قليلا أو كثيرا ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

حيث تفتحون البلاد ويأتيكم الطائفون من كل فج عميق ﴿إِنْ شَاءَ﴾ زاده. لإفادة أن كل عطائه من فضله وإحسانه، ولا يدخل عمله تحت سيطرة الوجوب والإيجاب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأرزاقكم ووجوه اكتسابها ﴿حَكِيمٌ﴾ في تخصيص كل نفس بعطاء.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي ما ثبت تحريمه بالوحي ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي الدين الثابت النازل بالوحي، وهو دين الإسلام ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي جنسه الشامل للتوراة والإنجيل، فإنهم وإن كانوا يدعون الدين ولكنها دعوى فارغة لا تسمع، أو على بطلانها الأدلة القاطعة عن الدليل النقلي المؤيد بالمعجزة. والدليل العقلي البرهاني ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي المال المفروض عليهم إعطاء جزاء لكفرهم وبقائهم في بلادنا إعطاء ناشئاً ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي عن اعتراف بقدرتنا عليهم، أو مسلمة عن يد إلى يد ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أذلاء لحكمنا.

وهذه الجزية مرتبة على وصفين الكفر والبقاء في بلادنا؛ فمن أسلم منهم لا تؤخذ منه، وكذلك من بقي على كتابيته وخرج عن بلادنا. وتؤخذ الجزية أيضا من المجوسي، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((سنُّوا بِهِم سُنَّةَ أَهْلِ الكِتابِ غيرَ ناكحي نِسائِهِمْ، ولا آكلي ذبائحهم)) ويختلف مقدارها بالغنى والفقر والتوسط. وتفصيله في كتب الفقه.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30)﴾

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ أي بعضٌ من متقدميهم، وشاع نسبة العمل القبيح الصادر من بعض القوم إلى الكل مجازا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وجه تخصيصهم له بهذه المرتبة الكاذبة المفتعلة أنه كان من المختصين ببعض المزايا الدينية من حفظ التوراة، ورعاية الأحكام، ومعرفة أسبابها. ولكن كل ذلك لا يوجب إلا احترامه بما يستحقه من العبودية لربه الغني عن العالمين ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ أي بعضهم: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ سرى هذا إليهم من ولادته بلا أب، وظهور المعجزات على يده، واستعماله كلمة الأب وإطلاقه على الله العظيم. وليس شيء منها بما يشتبه به أدنى عاقل لاندفاع الشبهة الأولى بوجود آدم عليه السلام بلا أب ولا أم. والثانية بظهور المعجزات على يد كثير من الأنبياء. وانظروا إلى الناقة الخارجة عن الصخرة بدعاء سيدنا صالح عليه السلام. والثالثة بأن استعمال الأب والابن كان عرفا طارئا وذلك على معنى المرشد والمسترشد. واين هذا المعنى من ذلك المختلق؟ ! ﴿ذَلِكَ﴾ القول الصادر من الفريقين ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لا قولهم بقلوبهم أي قول بلا برهان ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كالمشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق الى الباطل، وجملة قاتلهم الله دعاء عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله فلا شك هالك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنى لعنهم الله، وهو معنى مجازي لأن اللعن منتهى درجات الإهلاك.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)﴾

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ الآية... زيادة بيان لما سبق من كفرهم بالله تعالى والأحبار: علماء اليهود، ومفرده حبر بفتح الفاء وكسرها والصحيح إطلاقه على العالم ذميا كان أو مسلما. والرهبان: علماء النصارى جمع راهب، ويجمع على رهابين ورهابنة، وكثر إطلاقه على متنسكي النصارى، وهو مأخوذ من الرهبة أي الخوف. يقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿اتَّخَذُوا﴾ الضمير لليهود والنصارى أي انحرفوا عن المنهج ووقعوا في الحرج بأن اتخذ اليهود ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وعلماءهم الذين يراجعونهم في حل مشكلات دينهم ﴿وَ﴾ اتخذ النصارى ﴿رُهْبَانَهُمْ﴾ كذلك ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يطيعونهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه الله. عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال: ((يا عدي اطرح عنك هذا الوثن)). وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت: يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم. فقال عليه الصلاة والسلام ((أليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه، ويحلون ما حرم الله فيستحلون؟)) فقلت: بلى. قال: ((ذلك عبادتهم))

وقيل اتخاذهم أرباباً بالسجود لهم ونحوه مما لا يصلح إلا لله عز وجل فحينئذ لا مجاز، إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على رهبانهم أي واتخذ النصارى المسيح ابن مريم ربا معبودا بأن جعلوه ابنا لله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ موصوفا بالكمال منزها عن النقائص، ويعبدوه ولا يعبدوا غيره. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أقول: يظهر بوضوح من قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما رواه عدي بن حاتم عن الرسول صلى الله عليه وسلم من تفسير الموضوع بتحريم ما أحل الله وإحلال ما حرمه الله، ومن عطف قوله ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ على ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾.. أن موجب الكفر والضلال بالنسبة إلى السواد العام إطاعة العلماء وكبار الأمة في تحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحله الله تعالى بحيث يخرجون بها عن قواعد الدين المبين لا إطاعتهم في الأحكام المستنبطة من الكتاب أو السنة، وإن الكلام فيما اذا كان هناك شريعة سمحة نازلة من الله الى رسوله، وقد خالفها العلماء لا في طاعتهم لهم في الأمور المستنبطة من الكتاب والسنة، ولا طاعة السوادية لعلماء الأمة في ما يفتون به، ولا إطاعة الناس قادتهم وسادتهم في أمور فيها مصالح دينية أو دنيوية بعد أن عرفوا أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، وحصل عندهم بالممارسة أنهم مخلصون لله ويريدون توجيه العباد إلى طريق الرشاد فإن الناس وإن كانوا سواسية أمام الله تعالى وأمام أحكام الاسلام لكنهم ليسوا سواسية في العقل والمعرفة وقابلية معالجة المشاكل والمعضلات. قال عليه الصلاة والسلام: ((الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة)) وقال صلى الله عليه وسلم لجمع من الأنصار: ((قوموا لسيدكم سعد)) وقال سبحانه وتعالى في شأن سيدنا يحيى:

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ والحاصل: إن الفرق بين أفراد الانسان في الأوصاف والاخلاق واللياقة كثير، وإن إطاعة السواد للقادة في الخير خير، والله يختص برحمته من يشاء ﴿يُرِيدُونَ﴾ أي أولئك اليهود والنصارى ﴿يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي نورا جعله الله وسيلة لتنوير القلوب بالافكار السليمة، وهو نور القرآن الكريم المنزل على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم المشع على العالم ببيانه وحجته، وبرهانه على وجود الباري، ووحدته وكماله المطلق، والتزام النظام، ووجوب الشعور بالمسؤولية على كل فرد من الأنام. وقوله ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ معناه أن إرادتهم لإطفاء ذلك النور العالمي ليس بإقامة حجة وبرهان، ولا بعمل له قيمة واقعية في الأعيان، وإنما هي بعبارات تخرج من أفواههم أشبه بالهذيان منه بكلام الإنسان من أهل العرفان ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ ويمنع كل شيء ﴿إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ أي إلا إكمال آثار ذلك النور في العالم وتأييده ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ذلك الإتمام.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿بِالْهُدَى﴾ متلبسا بالهدى أي القرآن الذي هو هدى للمتقين ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي دين الإسلام الذي يدعو العقل إلى مراعاة الحق الثابت في الواقع المشروع من الله وهو دين الاسلام الذي ارتضاه رب العالمين أن يكون العروة الوثقى في العقيدة والعمل ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي ليظهر ذلك الرسول ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي على أهل الدين أو ليظهر دينه على الدين كله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ بهذا الإظهار، فإن الحق أحق بالاتباع. وإذا ظهر لأرباب العقول وجب رعايته بلا نزاع.

ثم شرع الباري سبحانه في بيان حال الأحبار والرّهبان في إغوائهم للناس وسوء معاملتهم معهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي يأخذونها منهم بالارتشاء لتبديل الأحكام والشرائع والمماشاة مع أهل النفوذ وسائر طرق الفساد.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي السلوك في طريق دين الإسلام المبين ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي يجمعونها مع الدفن أولا ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لا يؤدون زكاتها، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المسلمين ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وذلك العذاب ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي توقد نار ذات حَمىً وحرٍّ شديد عليها، وأصلها تحمى بالنار من قولك حَميْتُ الميسمَ وأحميته. فجعل الإحماء للنار مبالغة لان النار في نفسها ذات حمى، فإذا وصفت بأنها تحمى دل على شدة توقدها، ثم حذفت النار وحولت الاسناد الى الجار والمجرور ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي يقال لهم: هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي ذوقوا طعم ما كنتم تكنزون على تشبيه المكنوز بالمطعوم واستعارة الثاني للأول في النفس وجعل الذوق قرينة. أو ذوقوا حلاوة ما تكنزون على تشبيهه بالفاكهة الحلوة تهكماً.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي مبلغ عدد شهور السنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي الشهور القمرية، وعليها تدور الأحكام

الشرعية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر ﴿يَوْمَ خَلَقَ﴾ الله ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي في ابتداء إيجاد هذا العالم ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ إما صفة لقوله اثنا عشر شهرا، أو جملة مُستأنَفةٌ ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتهن وارتكاب القتال فيها ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ المراعين حدود الله في الأوامر والنواهي، فاتقوا الله لتفوزوا بنصره المبين.

واختلف في ترتيبها: فقيل: أولها المحرم وآخرها ذو الحجة، فهن من شهور عام واحد، وظاهر ما أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه عن ابن عباس يقتضيه. وهناك أقوال أخرى. ومحرم جعل أول السنة في زمن الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه وكان يؤرخ قبله بعام الفيل، وكذا بموت هشام بن المغيرة. ثم أرخ بصدر الاسلام بربيع الأول. وقالوا: إنه كان في العرب تواريخ كثيرة يتعارفونها خلفا عن سلف باعتبار حوادث وقعت في الأيام الماضية. ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ المسلمون هجرته مبدأ التاريخ وتناسُوا ما قبله وسَمُّوا كل سنة أتت عليهم باسم حادثة وقعت فيها كسنة الإذن في القتال... وهكذا الى خلافة عمر رضي الله عنه فسأله بعض الصحابة في ذلك فاختار رضي الله عنه عام الهجرة مبدأ من غير تسمية السنين بما وقع فيها، فاستحسنت الصحابة رأيه في ذلك. وكان أول هلال المحرم في التأريخ الهجري ليلة الخميس. والسنة القمرية مبنية على الأشهر واعتبروا كل شهر بمطلع الهلال أوله، وبما أن تجدد الهلال في اثني عشر شهرا يستوعب ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوما اصطلحوا على جعل الاشهر شهرا كاملا وشهرا ناقصا، وإنما جعل الأشهر كذلك حتى يعرف العالم والعامي مبادئ معاملاتهم وصناعاتهم وزراعاتهم،

لأن الهلال مرئي لكل ذي بصر يرى الأشياء. وأما السنة الشمسية فثلاثمائة وستة وستون يوما، وفيها كسور يعرفها أهل الحساب.

وكانوا يعظمون الأشهر الحرم، ولا يتقاتلون فيها ويستريحون، ويسافرون ويتاجرون بلا منع وخوف حتى أن الرجل يلقى أحد أعاديه وقاتل أبيه وأخيه فلا يتعرض له. ولكنهم أخيرا غيروا تلك الآداب وأحدثوا النسيء كما سيذكره تعالى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ بيان لسوء معاملة الناس في رعاية الأشهر الحرم لانتهاك حرماتها. ذلك لأنه اذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فإن احتاجوا أيضا أحلوه وحرموا ربيعا الأول. وهكذا كانوا يفعلون حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها. وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة، وربما زادوا في عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت، ويجعلون أربعة أشهر من السنة حراما فيقول الباري سبحانه ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ اي تاخير الأشهر الحرم عن محلها ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الذي هم عليه لأن تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه الله ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إضلالا على إضلالهم القديم ﴿يُحِلُّونَهُ﴾ أي الشهر المحرم المؤخر ﴿عَامًا﴾ من الأعوام ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ﴾ أي يحافظون على حرمته ﴿عَامًا﴾ وإنما يفعلون ذلك ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا رعاية عدة الأشهر الأربعة التي حرمها الله ويخالفوا خصوصها ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي فيخالفوا ما توارثوا عليه من تحريم ما حرمه الله بإحلال ما حرمه الله تعالى بحيث إذا سأل سائل: ما الذي دعاهم إلى هذه الأعمال؟ يجاب بأنه: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ﴾ من جانب النفس والشيطان ﴿سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ التخريبية الهادمة لحرمات الله، فالنفس تدعوهم الى إحلال الحرام حتى يغلبوا على أعدائهم، والشيطان يدعوهم إلى ذلك

ليكونوا من أعوانه في إغواء الناس، وهم بذلك لا يصلون إلى مآربهم، وإن ظهر ذلك بادي الرأي ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الى حقيقة الحق ومنهم القادة المغيرون لأحكام الله، ومنهم جنادة بن عوف الكناني، كان يقوم على جمل في الموسم فينادي: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادي في القابل: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. وهناك رواية أن غيره أحدث ذلك.

<148>

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ الآية... كانت غزوة تبوك في شدة الحر وحمارة القيظ حين طابت الثمار، واشتهوا الظلال؛ فتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة فريقان: فريق من المؤمنين، وآخر من المنافقين. وكان يوصي بعضهم بعضا بالتخلف، ويقول بعضهم البعض: لا تنفروا في الحرّ فأنزل الله تعالى في عتاب من تخلف من المؤمنين قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وأنزل أمرا للمؤمنين بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم في جميع الحالات في العسر واليسر في المنشط

والمكره في قوله تعالى ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية... ثم أنزل تعالى موبخا من تخلف عن رسول الله في هذه الغزوة من المنافقين وقعدوا بعدما استأذنوه في التخلف مظهرين أنهم

<149>

ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ إلى ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ غير أنه وسط بين هذه الآيات خطابه للرسول صلى الله عليه وسلم على إذنه لبعض الناس في التخلف عن هذه الغزوة قبل أن يتبين له المعذور في التخلف من غيره في قوله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ الآية..

فيقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ﴾ أي أيّ نفع يحصل لكم ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أخرجوا للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصله تثاقلتم أي تباطأتم وتكاسلتم ولم تسرعوا إلى الجهاد. وقوله ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلق بقوله ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ على تضمين معنى الميل أي أثاقلتم مائلين إلى أرض الدنيا وبساتينها وثمارها متمتعين بها. أو متعلق بالمشي المفهوم من اثاقلتم أي اثاقلتم في المشي إلى أرض المعركة في سبيل الله.

وكان هذا التثاقل في غزوة تبوك وكانت في رجب سنة تسع، فإنه صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع من الطائف أقام بالمدينة قليلا ثم استنفر الناس في وقت عسرة وشدة من الحرّ وجدب من البلاد، وقد أدركت ثمار المدينة، وطابت ظلالها، مع بعد الشقة، وكثرة العدو، فشق على الناس الشخوص لذلك وذكر ابن هشام: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قلما يخرج في غزوة إلا كني عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصعد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه صلى الله عليه وسلم بينها ليتأهبوا لذلك أهبته.

﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ﴾ أي بدل الآخرة ونعيمها ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لا قيمة لها في

مقابل الآخرة الخالدة. ثم انتقل الباري سبحانه وتعالى من أسلوب الاستفهام الإنكاري إلى التهديد

<150>

وقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ أي إن لا تخرجوا من أرضكم الى ما دعاكم الله له من الجهاد بالأموال والأنفس ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك والاستخفاف أو الإبقاء على حياة تعسة ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بكم بعد تنحيتكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يغايرونكم في النعوت فيجاهدون ويعلون كلمة الحق، ويسجلهم التاريخ بشرافة التضحية في سبيل الله ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ من الضرر فتخسرون الدنيا والآخرة ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ أي فلا ضرر يعود على الله تعالى ولا عليه صلى الله عليه وسلم ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي تسبّبوا في إخراجه من مكة ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي حالكونه أحد اثنين هما: الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقوله ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بدل من إذ أخرجه أو ظرف لثاني اثنين.

والمراد بالغار: ثقب في أعلى ثور وهو جبل في الجهة اليمنى لمكة على مسير ساعة، مكثا فيه ثلاثة أيام يختلف اليهما بالطعام عامر بن فهيرة، وعلي كرم الله وجهه يجهزهما، فاشترى ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهما دليلا، فلما كان في بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي كرم الله وجهه بالإبل والدليل فركبوا وتوجهوا نحو المدينة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان من قوله: إذ أخرجه ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وهو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي بالمعونة والحفظ فهي معية مخصوصة، وإلا فهو تعالى مع كل واحد من خلقه.

روى الشيخان وغيرهما عن أنس قال: حدثني أبو بكر قال: كنتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين، فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم رفع قدمه لأبْصَرنا تحت قدمه! فقال صلى الله عليه وسلم: ((يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ !))

وروى البيهقي وغيره: أنه لما دخلا الغار أمر الله تعالى العنكبوت فنسجت على فم الغار، وبعث حمامتين وحشيتين فباضتا فيه، وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجلاً بعصيهم وسيوفهم حتى اذا كانوا قدر أربعين ذراعا تعجل بعضهم فنظر في الغار ليرى أحدا فرأى حمامتين فرجع إلى أصحابه فقال: ليس في الغار أحد ولو كان قد دخله أحد ما بقيت هاتان الحمامتان.

وأول من دخل الغار أبو بكر رضي الله عنه، فقد أخرج ابن مردويه عن جندب بن سفيان قال: لما انطلق أبو بكر رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار قال أبو بكر: لا تدخل يا رسول الله حتى أستبرأه فدخل الغار فأصاب يده شيء فجعل يمسح الدم عن أصبعه وهو يقول:

ما أنتِ إلا إصبع دُميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

وروى البيهقي في الدلائل وابن عساكر أنه لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا اتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه ومرة عن يساره، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما هذا يا أبا بكر؟)) فقال: يا رسول الله أذكر الرصد فأكونُ أمامك، وأذكرُ الطلب، فأكونُ خلفك، ومرةً عن يمينك، ومرةً عن يسارك لا آمَن عليك! فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه. فلما رأى ذلك أبو بكر حمله على كاهله، وجعل يشتد به حتى أتى فَم الغارِ فأنزله. ثم قال: والذي بعثك بالحق! لا تدخلُ حتى أدخله فإن كان فيه شيء نَزَل بي قبلك! فدخل فلم ير شيئا، فحمله فأدخله، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاعٍ وخشِي أبو بكر أن يخرج منها شيء يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقمه

قدمه فجعلن يَضْرِبنه ويلسعنه، وجعلت دموعه تنحدر وهو لا يرفع قدمه حبّاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم! وفي رواية: أنه سد كل خرق في الغار بثوبه قطّعه لذلك قطعاً، وبقي خرق سَدَّه بعقبه رضي الله عنه.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي أنزل الطمأنينة القلبية على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ والمراد بالجنود الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب وحنين. وقيل هم ملائكة أنزلهم الله تبارك وتعالى ليحرسوه في الغار. ويؤيده ما أخرجه أبو نعيم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه أن أبا بكر رآى رجلا يواجه الغار، فقال: يا رسول الله إنه لرآنا قال: ((كلا إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها)) فلم ينشب الرجل أنْ قَعَدَ يبول مُسْتَقبلهما! فقال رسول الله: ((يا أبا بكر لو كان يرانا ما فعل هذا)) ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ أي جعل كلمتهم التي اتفقوا عليها في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة حيث نجّاه ربّه سبحانه على رغم أنوفهم، وَحَفِظَه من كيدهم، مع أنه لم يَدَعوا في القوس مَنْزَعاً في إيصال الشرّ إليه، وجعلوا الدية لمن يقتله أو يأسره عليه السلام، وخرجوا في طلبه صلى الله عليه وسلم رجالا وركبانا، فرجعوا صِفْرَ الأكفّ..

ثم يحرض الناس الأصفياء على الجهاد ويقول: ﴿انْفِرُوا﴾ أيها الناس ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ حالان من ضمير المخاطبين۔ أي انفروا على كل حال من يسر أو عسر حاصلين من أي سبب من الصحة والمرض، أو الغني والفقر، أو قلة العيال وكثرتهم، أو الكبر

والحداثة، أو السمن والهزال، إلى غير ذلك من الأحوال بعد الإمكان والقدرة في الجملة.

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي يزيد المديني قال: كان أبو أيوب الأنصاري والمقداد بن الاسود يقولان: أمرنا أن ننفر على كل حال ويتناولان الآية. وأخرجا عن مجاهد قال: قالوا: إن فين الثقيل وذا الحاجة، والصنعة والشغل، والمنتشر به أمره. فأنزل الله تعالى خفافا وثقالا، وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا وثقالا وعلى ما كان منهم. فما روي في تفسيرهما من قولهم خفافا من السلاح وثقالا منه، أو وركبانا ومشاة، أو شبانا وشيوخا، أو أصحاء ومرضى الى غير ذلك ليس تخصيصا للامرين المتقابلين بالإرادة من غير مقارنة للباقي. وقوله تعالى ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما. والجهاد بالنفس واضح، وبالمال عبارة عن إنفاقه على السلاح، وتزويد الغزاة، ورعاية عائلتهم في غيابهم، أو بعد استشهادهم. وقوله ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ كلمة خير صفة مشبهة أي ذلكم خير عظيم لكم. وقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون الخير تعلمون أن ذلكم خير لكم أجمعين.

ثم قال الباري تعالى مؤنباً للمتثاقلين: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي ما دعوا إليه من النفر للجهاد في هذا الموسم الحرج ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي متاعا سهل المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي وسطا بين القريب والبعيد، والقاصد كالتامِر واللابِنِ، أي ذا قصد وتوسط ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أي لوافقوك في النفير والمسير ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي المسافة تطوى وتقطع بمشقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أولئك المتخلفون ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إلى ما تدعوننا إليه ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بهذا التخلف والحلف الكاذب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ولما حلف أولئك المنافقون على وجود العذر لهم في التخلف،

وعدم مساعدة ظروفهم للسفر، واستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في البقاء في المدينة، وأذن لهم صلى الله عليه وسلم.. أنزل الله تعالى قوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ أي لاي سبب أذنت لهم حين استأذنوك معتذرين بعدم الاستطاعة وكان الأنسب بواقع الحال أن لا تأذن لهم وتمنعهم عن التخلف ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في ما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني لِمَ سارَعْتَ إلى الإذن لهم وما توقفت حتى تستكشف حقيقة أحوالهم؟ ولو توقفت وحققت عنها تبينت أن لا عذر لهم في التخلف، وأن اعتذارهم ناشئ عن سوء أفكارهم وفساد اعتبارهم، وعلمت أنهم كاذبون في ما أخبروا به من المعاذير، ولو كانوا مؤمنين حقا ما تخلفوا، لأنه ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾ في التخلف عن ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ فإنهم من المتقين عن مخالفة الله ورسوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ووقعت في ظلمات الشكوك والأوهام ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ وشكهم المستمر ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ ويتحيرون، وكان مقتضي طبع المرتابين التكاسل والتقاعس عن الخروج إلى الجهاد بل ما أرادوه.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي أهبة من الزاد وما يحتاجون إليه في السفر ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي خروجهم للجهاد لعلمه بسوء أحوالهم وأفعالهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي أقْعَدهُم وعَوَّقهُم ﴿وَقِيلَ﴾ لهم من جانب الحق تعالى: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ولله الحمد في قعودهم وركودهم عن الخروج معكم و﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي شرا وفسادا بإلقاء الوساوس والأوهام إليكم ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ والايضاع: سير الإبل بسرعة، أي وأسرعوا النمائم خلالكم، وجعلوا فيها وسائل النزاع حالكونهم ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون أن يفتنوكم ايقاع الخلاف فيما

بينكم وتهويل العدو عليكم، وإلقاء الخوف في قلوبكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ لا لضعف إيمانهم بل لضعف عرفانهم وصفاء صدورهم. فإن المؤمن عرّ كريم، والمنافق خبٌّ لئيم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وليس دأبهم الفاسد المفسد شيئا حادثا بل شيء سابق راسخ في قلوبهم.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ وتفرق جمعكم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا اليوم مرات، وبالأخص في يوم أحد حين انصرف عبدالله بن أبي بن سلول مع أتباعه المنافقين الفاسقين المارقين، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ المكايد ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي النصر من الله والفتح ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي دينه المأمور به ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لذلك النصر المبين.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس: ((يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟))

فقال: يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن! فائذن لي ولا تفتني، فَنَزلت الآية. أي ومنهم من يقول: ائذن لي في التخلف، ولا توقعني في المعصية والإثم بمخالفة أمرك في الخروج إلى الجهاد. وفي هذا الكلام على هذا إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن له صلى الله عليه وسلم أو لم يأذن.

ومنهم من فسر الفتنة بالضرر أي ائذن لي ولا توقعني في الضرر فإني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي لعدم وجود من يقوم بمصالحهم. ومنهم من فسر الفتنة بالتعب أي ائذن لي ولا تعذبني بتكليف الخروج في شدة الحر، فلقوله تعالى ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ هذه التفاسير ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ قابلهم الله تعالى بجملة تدل على اختصاص الفتنة بهم، وقال ألا في الفتنة سقطوا لا في شيء مغاير لها. وذلك في الدنيا والآخرة أو في الدنيا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لا يخلصون فيها من عقوبة الآخرة. وهذا وعيد لهم بتحقق عقاب أخروي على جزاء ما فعلوه في الدنيا.

﴿إِنْ تُصِبْكَ﴾ يا حبيبي ﴿حَسَنَةٌ﴾ من النعماء والغنيمة والظفر بالأعداء ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تلك الحسنة أي تورثهم مساءة وحزنا لفرط حسدهم ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كافتقار وانكسار ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي وَصَلْنا إلى مُرادنا ونجونا من قبل أنْ تتورط في السير والحرب والهزيمة ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ أي وينصرفوا ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما أصابك من المساءة والآلام. ﴿قُلْ﴾ في الرد عليهم: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وقرره في علمه الأزلي من الأفراح والأتراح ﴿هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي يفوضوا الامور اليه تعالى ويرضوا بما يجري.

ومما ينبغي أن يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان سيد المتوكلين، وكان متخلقا بأخلاق جميع الأنبياء والمرسلين، ومنذ بدء نزول

الوحي اليه لم يتكاسل عن سبب من الأسباب المشروعة في الوصول إلى نتائج حسنة من إبلاغ رسالته. وأهم تلك الاسباب السعي في نشر شريعته، والجهد لتكثير أتباعه، وإعداد الأسباب للظفر بالأعداء مع التذرع بالصبر والصدق في السراء والضراء وحين البأس، فليس معنى التوكل على الله التكاسل عن العمل المشروع، والسعي حول تحصيل المعيشة المباحة والراحة، إنما التوكل الاعتماد على الله والإيمان بأن كل ما أتاه من الخيرات من الأسباب والمسببات أتاه بخلقه وإحسانه وكرمه وجوده، ولم يكن لأسبابه تأثير إيجابي إلا حسب المعتاد المقرر للعباد، فإذا تكاسل إنسان قادر على العمل والسعي عن أداء واجبه، وتباطأ في السير نحو الخير فهو مغرور مخالف لأخلاق الرسول. نعم العاجز عن مباشرة الأسباب لا مجال له إلا التوجه الى العليم القادر الوهاب.

فعليكم بالجهد في تحصيل العلوم النافعة، وعليكم بمباشرة الصناعات الرفيعة والدوام على الأعمال بدون إهمال، سواء كانت في ترك المحرمات والمكروهات، أو في فعل الواجبات والمندوبات؛ فإنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وليتنبه المسلم لاغتنام الفرصة والاهتمام بالعمل اللازم في اليوم بدون التسويف والتأخير إلى الغد، وليستعد لمقابلة ما يعارضه بانشراح الصدر والتذرع بالصبر، فإن الله مع الصابرين. ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي قل لأولئك المنافقين: أنتم تتربصون بنا وتنتظرون إحدى خصلتين هي بالنسبة إلينا إحدى الحُسْنَيين، فإنكم تحبون أنْ تتورط في الحروب مع الكفار لعلنا نقتل وتبقى الدنيا وزخارفها لكم تمرحون فيها، ونحن إذا تورطنا وظفرنا وانتصرنا أخذنا الغنائم، وهي الخصلة الحسنى في الدنيا، واذا غلب الاعداء علينا وقتلونا مُتْنا شهداء، والشهادة هي الخصلة الحسنى لنا بالنسبة للآخرة. فلا تتربصون بنا إلا إحدى

الحسنيين لنا. وقد صح من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((تكفل الله تعالى لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة))

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوءيين الأولى ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ فيهلككم كما أهلك الأمم الطاغية السابقة. الثانية ما ذكره بقوله الكريم ﴿أَوْ﴾ يصيبكم بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ فنقتلكم ونرسلكم الى جهنم وبئس المصير، فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا العاقبة ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبة أمر كل من الجانبين.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ نزلت كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما جوابا عما في قول الجدّ بن قيس حين قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ((هل لك في جِلادِ بني الأصفر؟)) أي جهادهم: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن، لكن أعينُك بمالي. ونفي التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم.

ويحتمل أن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه. فأنزل الله تعالى الآية. واخرج الكلام مخرج الأمر للمبالغة في مساواة الإنفاق طوعا والإنفاق كرها في عدم القبول. كأنهم أمروا أن يجربوا الأمرين، وينظروا هل يتقبل منهم في أحدهما. وقال: يا رسولي ﴿قُلْ﴾ للجمع المذكورين: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ رغبة أو عن سخط وعدم رضا، إن أنفقتم على أي الحالين ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ أي لا يؤخذ منكم لأنه مال خرج عن خبث النية، والعطاء عن خبث النية خبيث، والخبيث لا يتسلمه الطيب، أولا ثواب فيه لأن الثواب ناشئ عن الاحتساب، ولا احتساب في إنفاقكم لأنا لا نرى الاحتساب في الفاسقين و﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي إلا حال كونهم متثاقلين عن القيام إليها ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ للإنفاق. ومن لم يتنور قلبه بنور الإيمان بالله ورسوله، ولم يتحضر بالنشاط للوفاء بفريضة الله، ولم يصرف نفقات الجهاد بالمحبة والاستعداد فالله بريء منه، ورسوله فارغ عن الميل إليه ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ ولو كانت كثيرة وفيرة ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ ولو كانوا على جمال الصورة، فلا خير لا في هذه ولا في تلك ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ أي أصحاب تلك الأموال والأولاد ﴿بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالمكابدة في جمعها وحفظها، والمقاساة في تربيتها بدون أي نفع منها يعود إليهم في الدنيا أو الآخرة. وقوله ﴿وَتَزْهَقَ﴾ معطوف على (يُعَذب) أي إنما يريد لتزهق ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ أي تخرج بصعوبة من الدنيا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ خاسرون. ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ ويريدون انتصاركم ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ ولا يحبون بقاءكم بل يكرهون لقاءكم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي يخافون منكم أن تعاملوهم معاملة المشركين فينطقون بالشهادتين وقاية لدمائهم ولأموالهم.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ أي حصناً يتحصنون به ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ وكهوفا يختفون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وتفقا وسراديب يتحجرون فيه ﴿لَوَلَّوْا﴾ أي توجهوا ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى ما ذكر ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يخرجون عن الإطاعة ويسرعون إليه بكل قوة وطغيان، كالفرس الجموح.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أي ومن المنافقين من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُقسّم غنائِم حنين فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اعْدلِ، فإن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله! فقال له الرسول: ((ويحك ومن يعدلُ إذا لم أعدلْ! خِبْتُ وخَسرتُ إن لم أكن أعدل)). فقال له عمر بن الخطاب: ائذن لي يا رسول الله فأضرب عنق هذا المنافق. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((دَعْهُ. ثم قال: رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)). وفيه نزلت ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية... رواه البخاري وغيره. واسم هذا المنافق حُرقوص بن زهير التميمي الملقب بذي الخويصرة.

يقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أي يعيبك ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي في شأنها، وكيفية تقسيمها ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ أي

إن خلقهم الحرص على الدنيا وجمع الأموال، فإن أُعطوا من تلك الصدقات رضوا بالقسمة واستحسنوها، ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾ شيئا أو ما يقتنعون به ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي يفاجئهم السخط ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ طيبي النفوس به قليلا أو كثيرا ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي كفانا فضله ورحمته وما قسمه لنا ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بعد هذه الساعة إن عاجلا أو آجلا ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ولا يهمنا الا ما قسمه الله. والجواب محذوف أي لكان خيرا لهم.

ثم بين سبحانه وتعالى أن أفعاله صلى الله عليه وسلم موافقة للحق ومناسبة لإصلاح الدين وأهله لا لأغراض نفسانية، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ الفقير عند الإمام الشافعي: من ليس له مال ولا كسب يقع موقعا من كفايته. وذلك كأن يكتسب يوميا أقل من نصف ما يحتاج إليه، فله أقسام ثلاثة:

الأول: من لم يكن عنده مال ولا كسب أصلا.

الثاني: من له كسب لا يليق به كأصحاب العلم والشرف والبيوت الذين يقدرون على كسب لا يناسب مقامهم.

الثالث: من له مال أو كسب لائق لكنه لا يفي إلا باقل من نصف ما يحتاج إليه.

والمسكين: من قدر على مال أو كسب يقع موقعا من حاجته ولا يكفيه، كأن احتاج الى عشرة دراهم، وهو قادر عن خمسة فصاعدا إلى العشرة، فالمالك للتسعة فقط مسكين.

وعند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه معناهما بعكس ما عند الإمام الشافعي رضي الله عنه.

ولا يمنع الفقر والمسكنة مسكنه وثيابه، ولو للتجمل في بعض المناسبات، وكذا حُلِيُّ المرأة اللائق بها المحتاجة إليه للتزين، وكُتُب علم يحتاجها، وماله الغائب عنه بمرحلتين، والدَّينُ المؤجل، والكسبُ الذي لا يليق به شرعاً، لكونه حراما، أو عرفا كأن يخل بمروءته. ولا يمنعهما ايضا اشتغاله عن كسب يناسبه بحفظ القرآن الكريم، أو الفقه، أو التفسير، أو الحديث أو ما كان آلة لذلك كالنحو والصرف، والبلاغة، والأصولين، والمنطق وآداب البحث، أو بتدريسها وكان ممن يحتاج إليه فيه.

﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ كجابي الصدقات ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ بالعطية وهم من أسلموا ونيتهم ضعيفة كجديدى الإسلام، أو له شرف يتوقع بإعطائه إسلام غيره من نظرائه، فيعطي لأجل ذلك ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي وللصرف في فك الرقاب ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ وهم الذين عليهم دين ولا يجدون وفاءً. نعم الغارم لإصلاح ذات البين للمصالح العامة كبناء المدرسة والمستشفى يجوز صرفها له ولو كان عنده الوفاء من ماله، إبقاءً لهذه الخدمة الشريفة. والظاهر أن من يؤلف وينشر تأليفه مجانا لإرشاد المسلمين كذلك ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المراد به عند أبي يوسف منقطعو الغزاة، وعند محمد منقطعو الحجيج. وقيل: المراد طلبة العلم. واقتصر عليه في الفتاوى الظهيرية، وفسره في البدائع بجميع القرب. فيدخل فيه كل من سعى في طاعة الله وسبل الخيرات. وقال في البحر: ولا يخفى أن قيد الفقر لابد منه على الوجوه كلها فحينئذ لا تظهر ثمرته في الزكاة وانما تظهر في الوصايا والأوقاف. إنتهى. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله. ولا يجوز أن يأخذ أكثر من حاجته ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي فرض لهم الصدقات فريضة من الله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بأحوال الناس واستحقاقهم.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنها نزلت في جماعة من المنافقين منهم الحلاس بن سويد بن صامت، ورفاعة بن عبدالمنذر، ووديعة بن ثابت... وغيرهم قالوا: ما لا ينبغي في حقه صلى الله عليه وسلم فقال رجل منهم: لا تفعلوا، إنا نخاف أن يبلغ محمداً صلى الله عليه وسلم ما تقولون فيقع بنا. فقال الحلاس: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم أُذُنٌ، وفي رواية أذُنٌ سامِعة.

وعن محمد بن إسحاق أنها نزلت في رجل من المنافقين يقال له: نبتل بن الحرث، وكان رجلا آدم، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوه الخلقة، وكان ينم حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل. فقال: انما محمد صلى الله عليه وسلم أُذُنٌ: من حدثه شيئاً صدقه، نقول شيئاً ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ((من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث)) وأرادوا سوّد الله وجوهم وأصمهم وأعمى أبصارهم بقولهم ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أنه صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقال له ويصدقه،

وإطلاقه عليه صلى الله عليه وسلم مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكل ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ من قبيل رجل صدق أي نعم هو أذن. ولكن نعم الاذن هو أذن خير لكم يسمع ما يقال وما كان خيرا من مسموعاته يستفيد منه ما يعود بالنفع لكم، وما كان على خلاف ذلك ألهمه الله تعالى تركه وإهماله وعدم الاهتمام به ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ايمانا لائقا بأشرف الأنبياء والمرسلين ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدق الكلام المنتسب للمؤمنين المخلصين في التنوير والتبصير والتذكير والتحذير ﴿وَ﴾ كل سيد للامة شأنه ذلك فهو ﴿رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ إيمانا خالصا عن النفاق ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالأعمال والأقوال الفاسدة الناشئة من نفاقه وشيطنته ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا أو الاخرة بالعار ونار الجحيم.

ثم نبه سبحانه وتعالى عباده المؤمنين المخلصين من أصحاب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على بعض أحوال المنافقين لينتبهوا ولا ينخدعوا بهم وقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أولئك المنافقون ولا يدرون أنه لا ينفعهم إرضاؤكم بالأحلاف الكاذبة ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ بالإيمان الخالص والأقوال الصادقة، والأعمال الصالحة ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ صادقين ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي أولئك المنافقون ﴿أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يخالف أمر الله ورسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي فحق أن له نار جهنم ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ أي مقدرا خلوده فيها ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا مخلص منه.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69)﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ يعني يخاف المنافقون ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي تنزل من الله على رسوله في شأنهم وبيان أحوالهم الناشئة عن نفاقهم ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ﴾ أي تنبئ المنافقين وتعلن للصادقين بما في قلوبهم من النفاق والشقاق والعداء للرسول ولمن معه، حتى لا يطلع الناس على ما عندهم من الاستهزاء والسخرية بالمسلمين ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ أي استهزؤا قلبا، أو أظهروه بينكم سرا ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي أن الله تعالى ينزل السورة التي تخافون من نزولها حتى يطلع الناس على ما عندكم من النفاق والعداء

للإسلام وأهله، كي تبتلوا بالعار من أحلافكم الكاذبة، وأخلاقكم الفاسدة حتى لا تبقى ثقة المسلمين بكلامكم، ولا يطمئنوا من سلامكم، فإن من السعادة أن يعرف الإنسان أهل الزمان ويميز الأعداء من الخلان ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ عن سبب ما قالوه من الكلمات التي أفشوها بينهم ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ولم تكن الكلمات خارجة عن ألسنتنا بالجدّ والاهتمام ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوته إلى تبوك إذ نظر إلى أناس بين يديه من المنافقين يقولون: أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات! هيهات! فأطلع الله نبيه عليه الصلاة والسلام على ذلك فقال: ((احبسوا علي هؤلاء الركب)) فأتاهم، فقال صلى الله عليه وسلم: ((قلتم كذا وكذا)) قالوا: يا نبي الله إنا كنا نخوض ونلعب، فنزلت. وأصل الخوض الدخول في مائع مثل الماء والطين، ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أي لا تستمروا على الاعتذار عما فرط منكم فلا يفيدكم ذلك ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي أظهرتم الكفر البواح بعد إظهار الإيمان ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لتوبتهم وخلاصهم من سوء الأفكار وصحبة الأشرار ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أخرى منكم لدوامهم واستمرارهم على النفاق والإثارة ومحبة الفجار ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مستمرين على الإجرام والآثام. ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ متوافقون في المبدأ الفاسد، ومتعاونون في العمل الكاسد ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ وهو تكذيب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتوحيده، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾

﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله أي عامَلَهم معاملة الناسي لهم بمنع لطفه وفضله عنهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله ورسوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ جهارا ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقابا وجزاء ﴿وَلَعَنَهُمُ﴾ وأبعدهم عن رحمته وخيره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي نوعٌ من العذاب ثابتين فيه ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الكفار ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا﴾ وتمتعوا جدا ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي بنصيبهم من دنيا هم ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ﴾ في المناهي ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي كالجمع الذي خاضوا، فإن الجمع مفرد لفظا وجمع معنى ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بالصفات الذميمة في طرفي التشبيه ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يظهر أنها توجب المثوبة الحسنى ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بحبوط الأعمال ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني ﴿أَلَمْ يَأْتِ﴾ المنافقين ﴿نَبَأُ﴾ هلاك الكفار الطغاة ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وأبدل من الموصول قوله ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ عليه السلام وقد هلكوا بالطوفان ﴿وَ﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ وأهلكوا بالريح ﴿وَ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السلام أتباع نمرود الذي أهلكه الله ببعوض دخل في أنفه، وتمزق قومه من بعده ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ أي أهلها وهم قوم شعيب عليه السلام،

وقد أهلكوا بالنار يوم الظلة، أو بالصيحة والرجفة أو بالنار والرجفة ﴿الْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ أي أهل القرى المنقلبة بجعل أعاليها أسافلها ثم أمطر عليها حجارة من سجيل. وهي قرى قوم لوط عليه السلام وتلك الأمم الهالكة ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالايات الواضحات والمعجزات التي شهدت لهم بالرسالة من الله، فكذبوا الرسل وأنكروا البينات، فأهلكهم الله تعالى جزاء عنادهم وتمردهم على الحق، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي لم يكن من سنة الله في الكون أن يعمل شيئا يشبه الظلم كالعقوبة بلا جرم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تمردوا بالعقائد الفاسدة المفسدة وبالاعمال السيئة بسوء اختيارهم، فعاقبهم الله تعالى وجَزاهُمْ بالطوفان والرياح والرجفة والصيحة والظلة وما شابهها.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات بعد بيان سوء حال المنافقين بكمال الفسق فيقول ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي أحباء وأصدقاء ونصراء لبعضهم: وعادتهم أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ اعتقادا وعملا ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كذلك ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يؤدونها على رعاية آدابها وشروطها وأركانها

خاشعين لله متواضعين ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ مستحقيها في وقتها بدونِ مَنٍّ وأذىً ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائرِ الأحكام المندرجة في الاسلام ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل ما أراده ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضعُ الأشياء في مواضعها ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ قصوراً عالية من لآلٍ غالية ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ وهو مكان مخصوص على ما أخرج البزار والدارقطني، وابن مردويه من حديث أبي الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((عَدْنٌ دار الله تعالى لم تَرَها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصديقون، والشهداء. يقول الله سبحانه طوبى لمن دخلك)) ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي وأقَلُّ رضوانٍ من الله بالنسبة الى أي عبدٍ من عباده أكبر من كل عطاء آخر ﴿ذَلِكَ﴾ العطاء ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ دون ما يتصوره الناس من متاع الحياة الدنيا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ أي الكفرة المجاهرين بالكفر ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي الكفرة المظهرين للإيمانالمبطنين للكفر بعد ثبوت كفرهم بالدلائل القطعية، أو المراد جهادُ الأولين بالسيف، وجهاد الآخرين

بالحرف، والتنبيه والتأنيب والتوبيخ ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في الجهاد بقسميه ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لكفرهم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ لأهل القصور، ومن جملة جرائمهم أنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ كلمة فاسدة تنال من شرف الإسلام ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ وهي كلمات الشتائم وسوء الأدب مع الله ورسوله، وقد سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي جهروا بالكفر المستور في قلوبهم بعد أن كتموه وأعلنوا إسلامهم نفاقا. والحاصل أنهم تحولوا من النفاق الى الجهر بالكفر والشقاق ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع من غزوة تبوك ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أي وما عابوا شيئا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم. أي ما كانوا يجدون عيبا يعيبون به الله ورسوله إلا عيباً وهو أن الله شرع دية القتيل والرسول طبق ذلك التشريع وسلم الدية الى آخذها وهو الجلاس، أو أغناهم الله ورسوله بعد مجيئه إلى المدينة بتجهيز الجيوش، وإرسال السرايا، وأخذ الغنائم من المحاربين وتقسيمها بين المجاهدين ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ أي أولئك الفاسدون عما هم عليه من الذنوب ﴿يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي يكن رجوعهم الى الله خيرا لهم في الدارين ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ ويستمروا على الكفر والشقاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ﴾ عذابا أليما ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ على كفرهم ونفاقهم وسوء معاملاتهم بمتاعب ومصائب ﴿وَ﴾ في ﴿الْآَخِرَةِ﴾ بعذاب النار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم.

أخرج ابن جرير والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر اليكم بعيني شيطان، فاذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال: على مَ تشتمتني أنت وأصحابك؟ فانطلق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله تعالى ما قالوا حتى تجاوز عنهم. فأنزل الله تعالى الآية في تكذيبهم، وإغناء الله ورسوله له أنه كان له غلام قُتل، وقد غلب على ديته فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإثني عشر ألفا فأخذها واستغنى.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آَتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ الآية... نزلت في ثعلبة بن حاطب ويقال له ابن أبي حاطب وليس هو البدري لأنه قد استشهد بأحُدٍ رضي الله عنه اَخرجَ الطبراني والبيهقي في الدلائل، وابن المنذر وغيرهم عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة ابن حاطب إلى رسول الله قال: يا رسول الله اُدْعُ الله تعالى أن يرزقني مالا، فقال صلى الله

عليه وسلم: ويحك يا ثعلبة! أما تحب أن تكون مثلي؟ فلو شئت أن يسير الله تعالى ربي هذه الجبال معي ذهباً لسارت. قال: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يرزقني مالا، فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله سبحانه مالا لأعطين كل ذي حق حقه. فقال:
ويحك يا ثعلبة! قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه قال: يا رسول الله أدع الله تعالى. فقال: اللهم أرزق ثعلبة مالا.
فاتخذ غنما فبورك له فيها ونمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة! فتنحى بها، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يشهدها بالليل. ثم نمت كما ينمو الدود، وكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة الى جمعة مع رسول الله. ثم نمت كما ينمو الدود، فضاق به مكانه حتى تنحى بها. فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الاخبار. وفقده رسولُ الله، فسأل عنه فأخبروه أنه اشترى غنما وأن المدينة ضاقت به فقال صلى الله عليه وسلم: ويح ثعلبة بن حاطب! ويح ثعلبة بن حاطب! ثم إن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخد الصدقات وأنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ الآية.. فبعث رجلين: رجلا من جهينة، ورجلا من بني سَلمة يأخذان الصدقات. وكتب لهما أسنان الابل والغنم، وكيف يأخذانها. وأمرهما أن يمرا على ثعلبة ورجل من بني سليم.
فخرجا فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة، فقال: أرِياني كتابكما.
فنظر فيه، فقال: ما هذا إلا جزية، انطلقا حتى تفرغا ثم مُرّا بي. فانطلقا، وسمع بهما السلمي فاستقبلهما بخيار إبله فقالا: إنما عليك دون هذا فقال: ما كنت أتقرب إلى الله الا بخير مالي. فقبلا، فلما فرغا مرا بثعلبة فقال: أرياني كتابكما فنظر فيه فقال: ما هذا الا جزية انطلقا حتى أرى رأيي.

فانطلقا حتى قدما المدينة فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يكلمهما: ويح ثعلبة بن حاطب، ودعا للسلمي بالبركة! وأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ الآيات الثلاث... فسمع بعض من أقاربه فأتاه فقال: ويحك يا ثعلبة! أنزل فيك كذا وكذا. فقدمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي فقال عليه الصلاة والسلام: أن الله قد منعني أن أقبل منك، فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه، فقال صلى الله عليه وسلم: ((هذا عملك بنفسك؛ أمرتك فلم تطعني)) فلم يقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مضى، ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر اقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار. فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلُها؟ ! فلم يقبلها أبو بكر. ثم ولى عمر رضي الله عنه فقال: يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي. فقال: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أبو بكر أقبلها أنا؟ ! ثم ولى عثمان رضي الله عنه، فلم يقبلها منه، وهلك في خلافته رضي الله عنه. فيقول الباري سبحانه ومن المنافقين من عاهد الله تعالى والتزم أنه إن آتانا من فضله وخيراته لنصدقن عليها ونخرج منها الصدقات الواجبة وننفق منها في سبيل الله، ولنكونن من الصالحين العاملين المطيعين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿فَلَمَّا آَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ أي بالمال أي بأداء الواجب منه ﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ أي فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم اعتقادا فاسدا وعملا غير صالح ﴿فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي الى يوم يلقون الله تعالى أي يوم الموت، أو يوم اللقاء والحساب وذلك ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ وذلك النفاق والشقاق بسبب

إخلافهم بوعدهم الذي وعدوا الله به، وبسبب كذبهم مع الله ومع رسوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي من عاهدوا الله وأخلفوا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ المستور في القلوب ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ الملقى الى الأصدقاء الفاسدين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ لا تخفى عليه خافية.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي الذين يعيبون الناس المؤمنين الصادقين الذين يتطوعون بأموالهم حالكونهم من المؤمنين فيعيبونهم ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ ويقولون: إنما يصدقون بها رياء أو سمعة وليس لوجه الله ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي ويعيبون المؤمنين لا يجدون أموالا يصرفونها في سبيل الله الا شيئا قليلا يبلغون بجهدهم وصرفهم له غاية الطاقة ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ بقلة الصدقة ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي يستهزئ بهم وينظر اليهم نظرة الى انسانٍ تافهٍ لم يكن له خيرٌ لأي أحد ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على معاملتهم هذه لانهم لا ينتمون الى الحق والحقيقة، وإلا فكيف يعيبون الناس المنفقين من الصدقات مع كثرتها ويعيبون الفقراء من أرباب الحاجات الذين ليس لهم طاعة في الصرف إلا قليلا؟

روي أنه صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة في خطبة خطبها قبل خروجه الى غزوة تبوك فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة. فقال صلى الله عليه وسلم: ((بارك الله لك فيما أعطيت، وفيما أمسكت)) فبارك الله له في ماله حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم، وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر، فتكلم المنافقون على المكثر والمقل. وكانوا يقولون: إن المكثرين يراؤن الناس، وإن المقلين إن أرادوا الا معرفة الناس بأحوالهم الاقتصادية حتى يتصدقوا عليهم، فنزلت الآية

الكريمة. ورد الله عليهم بها وأفادت أن الأمر موكول الى الله تعالى. ولا ينبغي لأحد أن يتهم أحدا بسوء الظن ويضيع حقوق الناس، وأن الذين يسخرون من المؤمنين يسخر الله تعالى بهم، ولهم في الآخرة عذاب أليم.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي للذين يلمزون المتطوعين الذين سخر الله تعالى منهم ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ بيان لعدم المغفرة وان استغفر لهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي امتناع المغفرة لهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي المتمردين.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ظاهره أن كلمة أو فيه للتخير بين الاستغفار وعدمه. ويؤيد إرادته هنا فهم الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فكأنه قال سبحانه وتعالى له صلى الله عليه وسلم: إن شئت فاستغفر لهم وإن شئت فلا. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لما قال له عمر في حادثة موت عبد الله بن أبي حين أراد أن يستغفر له: كيف تستغفر لعدو الله وقد نهاك الله عنه؟ قال صلى الله عليه وسلم: ((ما نهاني ولكن خيرني)).

وقال كثير من المحققين ومنهم البيضاوي: إن كلمة أو للتسوية، والآية جملة طلبية استعملت خبراً يعني أن الاستغفار وعدمه سيان في عدم إفادة المنافقين العفو والمغفرة، وذلك لكفرهم وسيئات أعمالهم. فتكون كلمة أو كما في قوله تعالى ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ويدل على ذلك ظاهر قوله تعالى ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. وأما قوله صلى الله عليه وسلم ((ما نهاني ولكن خيرني)) فكأنه قال لي ان شئت فاستغفر وان لم تشأ فلا تستغفر لهم. فذلك بالنظر الى ظاهر لفظ

الآية، فإنه يدل على الجواز في الجملة، لانه لما سوى الباري تعالى بين الاستغفار وعدمه ورتب عليه عدم القبول ولم ينه عنه فهم أنه مخير ومرخص فيه. وهذا مراده صلى الله عليه وسلم لا أنه فهم التخيير من كلمة أو حتى ينافي التسوية المرتب عليها عدم المغفرة.

وأما عزمه صلى الله عليه وسلم على الاستغفار لهم مع وجود قوله تعالى ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فكان مبنيا على فهمه صلى الله عليه وسلم من ذكر العدد التحديد لا التكثير، وراعى مفهوم المخالفة كما يظهر من قوله صلى الله عليه وسلم ((خيرني الله وسأزيد على سبعين)) أي خيرني ربي بين أن أستغفر لهم سبعين مرة ولا يغفر لهم إذا زيد على ذلك العدد من الاستغفار ويغفر لهم وسأزيد عليه. على أن التسوية في الاستغفار وعدمه متوجه إلى الكل من المنافقين لا الى كل فرد بطريق القطع، فيجوز أنه نظر إلى احتمال خروج بعض الأفراد من العام، بَلْه ملاحظة كثرة رأفته بالعباد وحرصه على شمول المغفرة لهم.

وفي فتح الباري ما نصه: ومنهم من قال: إن النهي عن الاستغفار لمن مات مشركا لا يستلزم النهي عن الاستغفار لمن مات مظهرا للاسلام لاحتمال أن يكون معتقده صحيحا، وهذا جواب جيد. انتهى.

ثم انه ظهر مما مر أن هذه الآية وان كانت مربوطة بردّ اللامزين للمتطوعين في غزوة تبوك، وكذلك مربوطة بموت عبدالله بن أبي بن سلول، فإنه ذكر في فتح الباري ما نصه: ذكر الواقدي ثم الحاكم في الإكليل أنه مات أي عبد الله بن أبي بن سلول بعد منصرفهم من تبوك، وذلك في ذي القعدة سنة تسع، وكانت مدة مرضه عشرين يوما ابتداؤها من ليال بقيت من شوال. وقالوا: وقد كان تخلف هو ومن تبعه من غزوة تبوك وفيهم نزل

قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ وهذا يدفع قول ابن التين أن هذه القصة كانت في أول الاسلام قبل تقرر الاحكام. انتهى.

ووجه الدفع: أنها كانت في السنة التاسعة من الهجرة كما نقلته قبلُ. قلت: وكذا يدفع قول الشهاب إيرادا على البيضاوي في قصة موت عبدالله ابن أبي بن سلول ونص عبارة البيضاوي: روي أن عبد الله بن عبدالله بن أبي، وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام، فنزلت الآية. فقال صلى الله عليه وسلم لأزيدن على السبعين فنزلت: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ انتهى.

وحاصل إيراد الشهاب هو أن سورة براءة آخر ما نزل فكيف تكون هذه الآية نازلة بعدها وهي من سورة (المنافقون)؟ ! فإن أجيب أنه باعتبار أكثرها وصدرها فلا مانع من تأخر نزول بعض الآيات عنها، منع بأن هذه الآية من سورة المنافقين، وصدرها يقتضي أنها نزلت في غير هذه القصة لأن أولها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6)﴾ وكونها نزلت مرتين لا يقال بالرأي فالحق أن هذا مشكل. انتهى. ووجه دفع إيراد الشهاب ما في فتح الباري ونصه: روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال لما نزلت ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لأزيدن على السبعين » فأنزل الله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ورجاله ثقات مع إرساله. ويحتمل أن تكون الآيتان معا نزلتا في ذلك، انتهى. يعني يحتمل أن تكون آية

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ المثبتة في سورة المنافقين نزلت مع آية ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ المثبتة في سورة براءة معاً كما نزلت آية ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وحدها في سورة المنافقين، واكتفى بكتابتها في المصحف هنا، كما يقال في سورة الفاتحة أنها نزلت مرتين وكتبت في محل واحد والله أعلم.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85)﴾

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الآية... عن ابن عباس قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن ينبعثوا معه الى تبوك، وذلك في الصيف. فقال رجال من المنافقين: يا رسول الله الحر شديد، ولا نستطيع الخروج في الحر. فنزلت الآية. رواه ابن أبي حاتم، فيقول الباري سبحانه وتعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي الذين خلفهم النبي صلى الله عليه وسلم

وأذن لهم في التخلف، أو خلفهم الله تعالى بخذله إياهم وصَدِّهِم عن مَكْرمة الجهاد لحكمة ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي بقعودهم وبقائهم بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إيثارا للتمتع بمتاع الحياة على الجهاد، ﴿وَ﴾ علاوة على تخلفهم ذاتا ﴿قَالُوا﴾ لإخوانهم تثبيطا لهم عن الجهاد: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي لا تخرجوا الى الجهاد لان الخروج في هذا الوقت غير مستطاع عادة. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ من هذا الحر الذي تنفرون منه، فإن خلصتم من حر الدنيا وقعتم في حر الآخرة وحرها أشد وأبقى ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك ما آثروا البقاء على اللقاء ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ أي أولئك المتخلفون ﴿قَلِيلًا﴾ في مدة دنياهم ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في دار عقباهم. أو فليبكوا في الدنيا كثيراً وليضحكوا فيها قليلا، لان من كان مقاله ذلك وجب أن يكون حاله كذلك ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من فنون المعاصي وأنواع مشتهيات النفس والابتداع من إطاعة رب العالمين.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي من سفرك هذا ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي من المنافقين المتخلفين ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك الى غزوة أخرى بعد هذه الغزوة حتى تكون هذه الغزوة جبرا لما فاتهم وتداركا لذلك العمل المبرور ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ ما دمت ودمتم ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ من الاعداء ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ﴾ والاستراحة في أوطانكم بدل السير والتعب في الغربة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من الخروج الى الغزوة في تخوم الجزيرة ﴿فَاقْعُدُوا﴾ في أماكنكم ﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي المتخلفين. ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ لانهم خرجوا عن قابلية الروح والرحمة بالكفر بالله ورسوله كفر بالذات وكفر بالنعمة ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ أي ولا تقف عليه ولا تتولّ دفنه

ولا تدع له بالخير بعد مماته ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ واستمروا على ذلك ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ بالتعب لتحصيل المال وتحسين الحال والسعي في الزواج ومقدماته حتى اذا حصل المال والأزواج ووجدوا الاولاد وقعوا في محن الادارة وشئونها، وصيانة المال والمَنال، وتربية الأولاد ومعاونتهم، وربما يجرهم المال والولد الى اتعاب ومحن لا تحد ولا تحصى. وهذا بالنسبة الى الدنيا. وأما في الآخرة فالعذاب أشد وأبقى.

وفي مورد نزول قوله تعالى ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ روى عن ابن عسير أنه لما توفى عبدالله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبدالله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه، فأعطاه. ثم سأله أن يصلي عليه فقام ليصلي عليه فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين؟ قال: ((إنما خيرني الله)) فقال ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده على السبعين. قال: انه منافق، فصلى عليه فأنزل الله الآية، فترك الصلاة عليهم، أخرجه الشيخان.

﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ المراد بها هذه السورة المعنية التي تهم عالم الاسلام في الاعتماد على الله والتضحية في الجهاد. وقيل: المراد كل سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد ﴿أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي أنزلت بالامر بالايمان بالله وبالجهاد مع رسوله في سبيل اعلاء كلمة الله ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ طلب الإذن منك في القعود والتخلف عنه اولو الفضل والسعة من المنافقين وقالوا لرسول الله: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أتركنا وخل سبيلنا لنستريح ونقعد مع القاعدين المتخلفين. ثم استأنف لبيان سوء فكرهم وفساد أمرهم، وقال ﴿رَضُوا﴾ أي أولئك المستأذنون ﴿بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي مع المتخلفات القاعدات من النساء، وأعجبهم البقاء في متاع نفسي حقير ﴿وَ﴾ سر ذلك أنه ﴿طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدخلها ما يرشدهم الى الخير ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون ما ينفعهم ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ استدراك لما يفهم من الكلام على ضرب من التوهم أن تركهم للجهاد يضر القائمين به فيقول: لكن الذين قاموا بحق الاطاعة تقرر لهم كامل الجزاء، ولهم الخيرات والمنافع في الدارين. أما في الدنيا فظفر وفتح وشرح صدر وكلمة عالية مقبولة. وأما في الآخرة فجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (93)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ شروع في بيان أحوال الأعراب بعد بيان أحوال أهل المدينة.
والمعذرون: بتشديد الذال من باب التفعيل، من عذر اذا قصر في الأمر وتوانى وتأخر، وحقيقته أن يوهم أن له عذرا في ما يفعله، ولا عذر له في الواقع، فيكون المعذرون كاذبين في أمرهم، أو من باب الافتعال من اعتذر، والأصل المعتذرون، فيحتمل صدقهم وكذبهم في الاعتذار. وقرأ يعقوب المُعذرُون اسم فاعل من باب الأفعال من اعْذَرَ إذا كان له عذر. ويحتمل صدقهم وكذبهم على هذه ايضا. فعلى الاحتمال الأول من القراءة الأولى الدال على كذبهم قطعا يكون قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ مخبرا عن كذبهم، وانما أعاده للتنصيص على كذبهم، وإظهار ذمهم بعنوان الموصول والصلة الدال على تقرير الحال. وكذا احتمال الكذب في المستفاد من أصل باب الافتعال، ومن القراءة الثانية المأخوذة من باب الإفعال. وأما على احتمال الصدق المستفاد منهما، فيكون المراد بالموصول والصلة فيه غيرهم، ويكون المراد بهم أناسا من الاعراب أيضا منافقين وكاذبين في دعوى الإيمان بالله

ورسوله، أو في الاعتذار أيضا أن اعتذروا كالاولين ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكلمة من اما للبيان أو للتبعيض ان كان فيهم من آمن بالله ورسوله واعتذر صادقا لعدم استطاعته الخروج.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ كالشيوخ ومن فيه نحافة خلقية ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ من نفقات السفر وأسباب الجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ في تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أخلصوا دينهم وأتوا بما في وسعهم مما يُعلي كلمة الله تعالى ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي الناصحين ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ من حرج إذ لا وجه لإحراجهم مع سلوكهم على منهاجهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ للعباد ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم في عفو ما جرى من التفريط اذا لم يخرجوا عن منهج الرشاد ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ إلى الجهاد في سبيل الله ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ من الظهر ونفقة السير. وقوله ﴿تَوَلَّوْا﴾ مستأنف اذا كان الجواب قلت: وجواب اذا حذفت حرف العطف عليه أي وقلت لا أجد ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ أي تسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي دمعها. ومن بيانية، وهي مع مجرورها في محل النصب على التمييز ﴿حَزَنًا﴾ مفعول له، أو حال، أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله ﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ أي من أن لا يجدوا ﴿مَا يُنْفِقُونَ﴾ في حاجياتهم للسفر مع خير البشر عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في التخلف عن السفر ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ والسبب في استئذانهم أنهم ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي القاعدات المتخلفات من النساء ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ من سوء اختيارهم وفساد رغباتهم ﴿فَهُمْ﴾ بحيث ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب ما هم فيه.

الجزء الحادي عشر

<185>

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96)﴾

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في تخلفهم عنكم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذا السفر ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بأكاذيبكم الواضحة عندنا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي بعض أخباركم حول ما في ضمائركم من الشر والفساد ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ هل تبقون على ما أنتم عليه أو لا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ علما شاملا أزليا أبديا بحيث لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الحياة، وما تلقونه بعد الممات، ويطبق عليكم جزاء السيئات.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ على صدقهم فيما اعتذروا به على تخلفهم ﴿إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي اذا رجعتم إلى أوطانكم ووجهتم التوبيخ إليهم، وانما يحلفون لكم ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وتصفحوا عما جرى منهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لا إعراضا عن الأحباب بل إعراضا عمن يستحق الاجتناب ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾

أي أهل رجس في الاعتقاد والأعمال ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جزاءً بما كانوا يكسبون ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وتعدوهم من أفراد الأمة المسلمة وليسوا كذلك ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ وهم منهم بعلم اليقين.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99)﴾

قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ هي صيغة جمع وليست بجمع للعرب، لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد، فإن العرب هذا الجيل المعروف مطلقا، والأعراب سكان البادية منهم. ولذا نسب إلى الاعراب على لفظه فقيل: أعرابي ولو كان جمعا لكانت النسبة إليه كالنسبة الى العرب. ويفرق بين الواحد والجمع بالياء فيهما، فيقال للواحد: عَرَبي وأعرابي، وللجمع عَربٌ وأعراب، وكذا أعاريب ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لبعدهم عن التعليم والتربية، والتزام النظام، وعدم اختلاطهم بأهل الحكمة والسلام. عن ابن عباس رضي الله عنهما: مَنْ سَكَنَ البادية جفا، ومن اتبع الصيدَ غَفَل، ومن أتى السُّلطانَ افتتن. ثم إن الحكم أغلبي، وإلا فقد يكون من الاعراب من يكون أوفى وأصفى من هل المدن بدرجات. والآية نزلت في أسد وغطفان، ولكن العبرة بعموم

اللفظ. ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من الأحكام التكليفية والوضعية. وقيل: المراد إطاعة الرسول في الجهاد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس كلهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقرره من جزاء الأعمال.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أي يصرفه في سبيل الله تعالى ﴿مَغْرَمًا﴾ أي غرامة وخسرانا ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي ينتظر نزول النوائب والمصائب عليكم لتشتغلوا بها ويتخلصوا منكم ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ جملة دعائية كناية عن حلول الغضب عليهم لسوء نياتهم وسيئاتهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بأقوالهم الفاسدة وأعمالهم الكاسدة ﴿عَلِيمٌ﴾ بها.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي ويجعل ما ينفقه في سبيل الجهاد سواء من الصدقات الواجبة المقررة للاصناف الثمانية، أو المقصودة للغزاة في سبيل إعلاء الحق مما ينفقه عليه وعلى أصحابه في تلك الاسفار كسفر غزوة تبوك ونحوها.. وسائل للقرب من الله وقبولهِ ورضاه، ولصلوات الرسول ودعواته لهم على عادته وسنته الشريفة من الدعاء للمتصدقين والمتصدقات. وعلى هذا التفسير تكون الصلوات معطوفة على القُرُباتِ ويجوز عطفها على الموصول أي ويتخذ صلوات الرسول لهم وسائل قربةٍ من الله تعالى عز وجل.

ولما كان كونها قربات عند الله حسب رجالهم ولم يكن متيقنا أكد الله ذلك وقرر كونها قرباتٍ قطعية فقال: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي تنبهوا أيها المسلمون أن تلك الصدقاتِ والنفقات قربة لهم من الله تعالى ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ الواسعة باستيعابها لهم في الدنيا بانشراح الصدور وتسهيل الامور، وفي البرزخ بتنوير القبور والراحة لهم والحبور، وفي البعث والنشور بالسعادة الابدية ولقائه تعالى ونضارة وجوههم بلقاء الودود الغفور ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ويزيد لهم الرحمة زيادة على ما

يستحقونه من الأجور. وهذه الآية نزلت في بني مقرن من مزينة، وقال بعض: نزلت في اَسْلَم وغِفارٍ وجُهَينة.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ المراد بالأولين من المهاجرين من كانوا من أهل بدر، أو الذين صلوا إلى القبلتين، أو أهل بيعة الرضوان، وكانت بالحديبية. ومن الأنصار أهل بيعة العقبة الأولى وكانت في سنة احدى عشرة من البعثة، وهم سبعة أشخاص وأهل البيعة الثانية، وكانت في سنة اثنتي عشرة منها، وكانوا سبعين رجلا وامرأتين، ومن أسلموا من المدينة حين جاءهم من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم أبو زرارة مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وكان قد أرسله عليه الصلاة والسلام مع أهل العقبة الثانية يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين. ولاشك في أن من اعتبر أهل بدر، أو أهل بيعة الرضوان، أو الذين صلوا إلى القبلتين من المهاجرين من السابقين الأولين أعتبر من دخل فيهم من الأنصار كذلك ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ أي متلبسين بالإحسان، والمراد به الخصال الحسنة، وبالموصول اللاحقون بالسابقين من الفريقين، وهم باقي المهاجرين والأنصار. هذا اذا كانت كلمة ﴿مِنَ﴾ للتبعيض أي السابقون الأولون في الهجرة والنصرة الذين هم بعض من المهاجرين والأنصار، وأما إذا كانت للبيان بمعنى والسابقون الاولون في الإيمان بالله ورسوله وهم المهاجرون والأنصار كلهم، فيكون المراد بالتابعين

لهم جميع المؤمنين الذين تبعوهم في دين الاسلام بإحسان إلى يوم القيامة، وهو معنى شامل وواسع ورحمته تعالى واسعة الى أبد الآبدين ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول كل ما قدموه من العقائد والاعمال الصالحة، والمسامحة عما فرط منهم من العوارض السانحة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ في الدنيا بأنوار في الصدور واطمئنان في القلوب وتسلية لما لقوه من الكروب، وفي الآخرة بالرضا والرضوان وجنة فيها لقاء الملك المنان، وعصمة من الزلل والخلل وكل ما يورث الأسى والأسف للإنسان ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز فوقه وهو منتهى النعيم.

ومن هنا يظهر ظهور الشمس في رابعة النهار لأولي البصائر والابصار بعد مدح الباري للامة المحمدية بصورة عامة في قالب الاخبار وثناء أصحاب محمد في قوله ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية وإظهار الرضاء عن أصحاب الحديبية بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، أن الأمة الإسلامية أفضل الأمم، وأن أصحابه الكرام من المهاجرين والأنصار ممن تأخر أو تقدم كلهم على درجات عالية عند الله الأكرم، وأن السعيد من يعتقد هذه العقيدة بالوجه الأسلم.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ شروع في بيان منافقي أهل المدينة ومن حولها من الاعراب بعد بيان حال أهل البادية. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ أناس يظهرون الايمان ويضمرون الكفر فهم منافقون والمراد بهم كما ذهب اليه جماعة من المفسرين قبائل: جهينة، ومزينة، وأشجع،

وأسلم، وغفار من اللّائي كانت منازلهم قريبة من المدينة المنورة. ولا ينافي ذلك ثناء الرسول صلى الله عليه وسلم كما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((قريش وجهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار موالي الله تعالى ورسوله لا موالي لهم غيرهم)) وقوله: ((أسلم سالمها الله تعالى، غِفار غفر الله لها. أما إني لم أقُلها لكن قالها الله تعالى))، لأن القبائل مستوعبة لأناس كثيرين من الصالحين الأخيار، ومن المنافقين الأشرار، فيتوجه المدح إليهم باعتبار جماعة، والقدح باعتبار أخرى ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي ومن أهل المدينة أناس تمرنوا وتمهروا واستمروا على النفاق ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أنت لحذاقتهم في أمر النفاق، أو لا تعلمهم بالتفصيل في جهات النفاق ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ كذلك ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ مرة في الدنيا بالفضح. كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قام خطيبا يوما من أيام الجمعة ففضح ستة وثلاثين منهم، وأخرجهم من المسجد الشريف، ومرة في البرزخ في قبورهم. أو في الدنيا مرة بالجوع ومرة بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو عذاب نار الجحيم.

﴿وَآَخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآَخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106)﴾

قوله تعالى: ﴿وَآَخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية... بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم في أمر الدين، ولم يكونوا منافقين. فيقول سبحانه وتعالى ﴿وَ﴾ يوجد عندكم جمع ﴿آَخَرُونَ﴾ غير من سبق ذكرهم ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ ومن جملتها التخلف عن غزوة تبوك، ورضاهم بالجوار للمنافقين، ولم يعتذروا بالمعاذير المفتعلة. ولما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم اذا رجع الى المسجد مر عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة وجمع معه تخلفوا عنك يا رسول الله، وقد أقسموا أن لا يُطلِقوا أنفسهم حتى تكون أنتَ الذي تُطلقهم. فقال رسول الله: ((وأنا أقسم بالله لا أطلق سراحهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم)) فأنزل الله تعالى الآية. فأرسل عليه الصلاة والسلام إليهم فأطلقهم، وأعذرهم.

وفي رواية أنهم كانوا ثلاثة، وأخرى كانوا ثمانية، وأخرى كانوا خمسة. وتتفق روايتان على أن أبا لبابة بن عبد المنذر منهم. ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الجهاد، ﴿وَآَخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو التخلف عنه في غزوة تبوك. وقيل: العمل الصالح يشمل كل عمل بر وطاعة، والسيء ما كان ضده ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مطلقا ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى كثير المغفرة وواسع الرحمة. وهذا تعليل لما أفاده قَبلُ من قبول توبتهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم لما أطْلقوا انطلقوا فجاءوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا

فَتَصدق بها عنا واستغفر لنا فقال عليه الصلاة والسلام: ((ما أمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً)) فنزلت الآية فأخذ صلى الله عليه وسلم منها الثلث. فليس المراد بالصدقة الصدقة المفروضة أعني الزكاة لكونها مأمورا بها، وانما هي كفارة لذنوبهم كما ينبئ عنه قوله عز وجل ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي عن أوساخ المخالفة والتخلف عن غزوة تبوك مع رسول الله ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة حال من ضمير فعل الأمر. وقيل: جملة مستأنفة، أي وأنت تزكيهم بها. أي تنمي بتلك الصدقة حسناتهم وأموالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي أدع لهم واستغفر لذنوبهم. وعن ابن عباس أن المراد وصل عليهم صلاة الجنازة اذا ماتوا. واستدل بالآية على استحباب الدعاء للمتصدقين. واستحب الامام الشافعي أن يقول للمتصدق آجركَ الله. ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ يعني أن دعواتك بالرحمة ومغفرة الذنوب ونماء الاموال راحة لقلوبهم، وسكون لأنفسهم. فإن الله تعالى يقبل منك الدعاء ويفيدهم الخير وراحة النفوس ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع الاعتراف بالذنوب، وعليم بما في ضمائرهم من الندم على ما فرط منهم، والالتجاء الى الله الرؤوف الرحيم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ التائبين بالصدق والاخلاص ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ويقبلها قبولا حسنا بإعطاء الجزاء عليها أضعافا مضاعفة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي القابل للتوبة، كثير الرحمة.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ أي ما تريدونه من الأعمال ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ خيرا أو غيره ﴿وَ﴾ يراه ﴿رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ من أنفسهم فيما يطلع عليه وبإعلام الله تعالى لرسوله بالذات وإبلاغ الرسول للمؤمنين فيما يهم الاطلاع عليه ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ أي بعد الموت ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ عند الحساب والميزان ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي ومنهم أناس آخرون غير المعترفين المذكورين مؤخرون وموقوف حكمهم

لأمر الله الى أن يظهر أمر الله في شأنهم. والمراد بهم كما في الصحيحين: هلال ابن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع. وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الهمِّ باللحاق به عليه الصلاة والسلام. فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق، لأنهم كانوا من المخلصين. فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم وكان ما كان من المتخلفين. قالوا: لا عذر لنا الا الخطيئة، ولم يعتذروا، ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتنابهم وشدد الأمر عليهم الى أن نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية... ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المخلصين والمنافقين و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يطبقه من الأحكام عليهم وهو أحكم الحاكمين.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)﴾

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾. عن ابن عباس أن جماعة من الأنصار قال لهم أبو عامر الراهب العدو لدين الاسلام: ابنوا مسجدا واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فأتي بجند من الروم فأخرجُ محمدا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم اتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة فنزلت.

وأخرج ابن اسحاق وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أتى أصحاب مسجد الضرار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال صلى الله عليه وسلم: ((إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم فصلينا لكم فيه)) فلما رجعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفرهِ ونزل بـ (ذي أوان) بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار أتاه خبر المسجد فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي، وأخاه عاصم بن عدي، فقال: انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدِماه وأحْرِقاهُ. فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رَهْطُ مالِكٍ، فقال مالك لصاحبه: أنظرني حتى أخرج لك بنار من أهلي. فدخل الى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه فأحرقاه وهدماه. وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القران ما نزل.

وكان البانون له اثني عشر رجلا: خذام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج المسجد، وعباد بن حنيف من بني عمرو بن عوف أيضا، وثعلبة بن حاطب، ووديعة بن ثابت وهما من بني أمية

بن زيد رهط أبي لبابة بن عبد المنذر، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة ابن الازعر، وحارثة بن عامي وابناه مجمع وزيد، ونبيل بن الحرث ونجاد بن عثمان، وبجدح من بني ضبيعة. فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وفيمن ذكرناهم من المنافقين الجمع الذين اتخذوا مسجدا، وبنوه لا لطاعة الله بل لمضارة المؤمنين وإلقاء الضرر عليهم ولإنشاء الكفر وتقويته وتفريق المؤمنين بعضهم عن بعض، ولترقب رجوع أبي عامر الراهب الهارب الى الروم الذي حارب الله ورسوله من قبل ظهور النفاق في الناس، أو من قبل بناء المسجد، فإنه كان أعدى أعداء الرسول، وقد قال له يوم احد: لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم! فلم يزل يقاتله الى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن، وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يُحارب بهم رسول الله فلم يتمكن من ذلك ومات بقنسرين وحيدا طريدا.

وقيل: كان بجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج الى الشام، وأوعز الى جماعته أن يبنوا مسجدا بدعوى إعانة الإسلام للأغراض الفاسدة المذكورة. فدمرهم الله تعالى وهدم مسجدهم واستأصلهم وجعلهم أحاديث للناس وعبرة للمعتبرين.

وقيل: إن الرسول صلى الله عليه وسلم لما وصل في طريق هجرته الشريفة قباء ونزل هناك أسس مسجد قباء وصلى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنين إلى الجمعة، ثم إن بني عمرو بن عوف بنوه وأخبروا الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوه الى المسجد فذهب وصلى فيه للبركة، فحسدهم بنو غنيم بن عوف فبنوا مسجدا. ولا مانع من أن يكون بناؤه لذلك ولامتثال ايعاز أبي عامر الراهب أيضا.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ المضارع لجمع المذكر الغائب، وقد أكد بالنون الثقيلة، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، ودلالة ضمة ما قبلها عليها. يعني: ويقسمون القسم المؤكد أنهم ما أرادوا ببناء ذلك المسجد إلا الخصلة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما أقسموا عليه ﴿لَا تَقُمْ﴾ يا رسولي للصلاة ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك المسجد ﴿أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ أي بني أساسُه ﴿عَلَى التَّقْوَى﴾ أي تقوى الله تعالى وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده، وهو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام بقائه بقباء من الاثنين إلى الجمعة ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أولى وأليق بأن تصلي فيه من مسجد الضرار الذي له شرف مزعوم عند من بناه، وليس المفضل عليه المسجد الذي بناه صلى الله عليه وسلم بعده وهو مسجد المدينة النبوية المتصل بحجرة قبره الشريف؛ لأنه لو كان كذلك لكان مسجد قباء أفضل من المسجد النبوي، وكان يداوم صلى الله عليه وسلم على الصلاة فيه، وليس كذلك إجماعا. والحاصل أن مسجد قباء أليق بالصلاة من مسجد الضرار وما سواه، غير المسجد النبوي المعروف. ثم أكد ما قرره بقوله الكريم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ أي في مسجد قباء رجال يحبون أن يتنظفوا ويستنجوا بالماء. أخرج أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في تأريخه أنه قال صلى الله عليه وسلم لأهل قباء: ما هذا الطهور الذي خصصتم به في هذه الآية أي آية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد يخرج من الغائط إلا غسل مقعدته ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي يرضى عنهم ويجزيهم الجزاء اللائق بهم. ثم قرر سبحانه وتعالى شرف أهل مسجد قباء البانين له، وفضلهم على من عداهم ممن لا يصلون الى درجاتهم فضلا عن شرفهم على أناس لا مقام لهم ولا كرامة،

بل لهم الدرك الأسفل من النار فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ أي مبنية ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ من جانب الله وارد عليه ورضاء من جانبهم عن الله تعالى ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي على حافة بئر رخو التراب لم يُطْوَ، ومنصدع ومُشرف على السقوط ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي فأدى به لخوره وقلة استمساكه الى السقوط في النار وهارٍ: نعت لجرف، وأصله هاورٌ أو هاير: فقلبت العين الى محل الياء وبالعكس وأعل إعلال قاض. وفيه استعارة مصرحة تحقيقية حيث شبه الباطل والنفاق بشفا جرفٍ هارٍ في قلة الثبات ثم أستعير لذلك، والقرينة المقابلة. وقوله تعالى ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ ترشيح وباؤه اما للتعدية أو للمصاحبة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الواضعين للأشياء في غير مواضعها، والمراد الجاعلين للمساجد التي بنيت لعبادة الله مكامن لبث الفتنة والفساد بين الناس. ثم أكد على عقدة قلوبهم ومزيد ضلالهم وكروبهم فقال: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ أي بناؤهم الذي بنوه ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي عقدة شبهة وسدة شهوة فاسدة وداء محنة في قلوبهم في كل وقت من الأوقات ﴿إِلَّا﴾ وقت ﴿أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ وتمزقت وخرجت عن قابلية تحمل الإدراك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس و﴿حَكِيمٌ﴾ بمعاملته معهم في الدارين.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾ ترغيب للمؤمنين في الجهاد بعد أن بين أحوال المتخلفين وما افتعلوه من المعاذير غير الواقعية فيفيد سبحانه وتعالى أنه تعالى لا تحابب له إلا مع أهل الصدق والاخلاص الذين يضحون بما يملكون في سبيله، فإذا استقبل بابه قومٌ قائمون على قدم الاستقامة فعند ذلك يعاملهم.
ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المخلصين ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ التي هي أنفس شيء عندهم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ التي عليها قيام أمورهم ﴿بِ﴾ بديل بلا مثيل وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ خالدين فيها على أساس أنهم ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ابتغاء مرضاته ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ الأشرار من الكفار ومن حذا حذوهم ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ مستشهدين ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ من حيث الوفاء به وعدا مذكورا مقررا ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ وذكر ذلك في الأولين على وجه التبشير بأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ستجاهد في سبيل الله الكريم على الوجه المذكور، أو أن فيهما ذلك تشريعا عند الإيجاب، فيكون أصلا من أصول أحكام الله تعالى في الكتابين كما في القرآن ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني ومن سلكَ مسلك الوفاء بما تقرر من صرف الأنفس والأموال في الجهاد والقتال ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ إلتفات الى خطابهم لزيادة الاحترام والتشريف ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ حيث انكم صرفتم أموالكم في حسن مآلكم وبذلتم أرواحكم في قالب أبدانكم المؤقتة المحددة بأرواح في أجسام نورانية خالدة مؤبدة ﴿وَذَلِكَ﴾ المنتوج الحاصل لكم ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز فوقه.

ثم ذكر الباري سبحانه المختارين من عباده المؤمنين فقال: ﴿التَّائِبُونَ﴾ أي هم التائبون ﴿الْعَابِدُونَ﴾ والمراد التائبون عن الكبائر كفرا أو دونه

والعابدون بالإخلاص لله رب العالمين ﴿الْحَامِدُونَ﴾ له تعالى بالقلب واللسان وسائر الأركان في السراء والضراء
﴿السَّائِحُونَ﴾ أي الصائمون ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ في الصلاة ﴿الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعا وهو الواجب والمندوب ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كذلك وهو الحرام والمكروه ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ المراعون لها بإقامتها بقتل القاتل قصاصا وقطع السارق وجلد الزاني والشارب للمسكرات والقاذف للمحصنات ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصوفين بالصفات السابقة بأنهم أصحاب مثوبات لا تعد ولا تحصى.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116)﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية... الصحيح أنها نزلت في أبي طالب. فقد أخرج احمد، وابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، وآخرون عن المسيب ابن حزن قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبدالله ابن أبي أمية، فقال النبي: أي عم قل لا اله الا الله أحاجُّ لك بها عند الله. فقال: أبو جهل وعبدالله ابن أبي أمية:

يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعاودانه بتلك المقالة. فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول لا إله إلا الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ واستبعاد ذلك بأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة بثلاث سنين وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة.. مردود بأن النازل منها آخر ما نزل غالبها، فلعل هذه الآية مما نزل عند موت أبي طالب. ولا يبعد أيضا أن يقال أن الرسول عليه السلام استمر في الاستغفار لعمه حتى نزلت هذه الآية أخيرا فتركه. ويؤيد الجواب الأول ما أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن علي كرم الله وجهه، قال: أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بموت أبي طالب فبكى، فقال: ((اذهب فغسله وكفنه ووارِهِ غفر الله له ورحمه)) ففعلت وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر له أياماً، ولا يخرج عن بيته حتى نزل عليه جبريل عليه السلام بهذه الآية اي ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ فإنه ظاهرٍ في أن النزول قبل الهجرة لأن عدم الخروج من البيت فيه مُغَيّاً به.

يقول الباري سبحانه: ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صح ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ في حكم الله عز وجل ﴿وَ﴾ لا للـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على الوجه المقرر أن يستغفروا للمشركين به سبحانه ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي المشركون ﴿أُولِي قُرْبَى﴾ أي ذوي قرابة للمستغفر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي ماتوا على الكفر او علم ذلك بالوحي.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أي آزر ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي وعد ابراهيم أباه بذلك الاستغفار ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي ظهر لإبراهيم ﴿أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ أي أن آزر عدو الله بسبب كفره وإشراكه به ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾

أي قطع ابراهيم الصلة عنه، وابتعد عن الاستغفار له وتر كه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ أي كثير الرأفة والرحمة ورقة القلب وكثير الحلم، أي صبور على الأذى وصفوح عن الجناية عليه.
أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان من حلمه صلى الله عليه وسلم أنه اذا آذاه الرجل من قومه قال له: «هداك الله » ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ أي ما يستقيم من لطفه تعالى ورحمته أن يضل قوما بعد هدايته لهم الى الاسلام ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ أي حتى يكشف لهم بالوحي الى الرسول الى ذلك القوم ما يتقون أي ما يجب اتقاؤه والابتعاد عنه. عن مقاتل أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم قبل تحريم الخمر وصرف القبلة الى الكعبة، ثم رجعوا إلى قومهم فحرمت الخمر وصرفت القبلة، ولم يعلموا ذلك حتى قدموا بعد زمان الى المدينة فعلموا ذلك، فقالوا: يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن في ضلال، فأنزل الله تعالى الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن جملته حاجتهم إلى البيان، فبين لهم كي يكونوا على بصيرة في دينهم ومعرفة في الأحكام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي إن التصرف بإنزال الأحكام وبيانها من جملة ما يقع في الكائنات وأهمها أحكاما فاذا لم يبين فانتظروا، واذا بين فاعملوا بها واعتبروا، وان ما تعتمدون عليه من متاع الدنيا تابع للحياة، والله يحي ويميت فإذا وفيتم بالآداب يوف لكم الحساب، والا فمالكم من دون الله ولي يتولى أموركم، ولا نصير يدافع عنكم.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)﴾

قوله تعالى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ﴾ الآية... قال أبو حيان في تفسيره المعروف بالبحر المحيط ما نصّه: قال ابن عطية: التوبة من الله رجوعه لعبده من حالة الى حالة أرفع منه، وقد يكون في الأكثر رجوعا من حالة المعصية الى حالة الطاعة، وقد يكون رجوعا من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وتحمل مشاقها الى حالة بعد ذلك أكمل منها. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لان تكون من نقصان الى طاعة وجِدّ في الغزوِ ونصرة الدين. واما توبته على الفريق فرجوع من حالة محطوطة الى حالة غفران ورضا. إنتهى.

قلت: رحم الله الناقل والمنقول منه للافادة والاجادة، وهذه العبارة الذهبية تفيد أن ليست التوبة من الله غفران الذنوب والآثام حتى تحتاج الى تأويل ما ورد منها على سيد الأنام صلى الله عليه وسلم، ولا من العبد عبارة عن طلب المغفرة عن معصية كبيرة أو صغيرة ارتكبها صاحبها، بل التوبة من الله عبارة عن رجوعه بالتجليات الى عباده سواء كان في مقابلة كبيرة ارتكبوها من أكبرها الى أصغرها، أو صغيرة اكتسبوها، أو غفلة من الله تعالى غفلوها، كما لكبار الناس من الأولياء والأنبياء، أو برفع درجة استحقوها، كما في هذه الآية الكريمة حيث ان الله تعالى رجع

والتفت ونظر الى حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم برفع درجاته على قبول محنة غزوة تبوك بلا نفقة زائدة ولا أموال عائدة ومحنة خذل بعض الناس الجاهلين الأغبياء الأغنياء، حيث حرموا الجيش من المتابعة والمشايعة والمساعدة بالأموال، ومحنة تخلف المنافقين، والاتيان بالمعاذير المفتعلة الباطلة التي تحتها نفاق وشقاق، وهذه محنة لا محنة فوقها، ولو كان الرسول عليه الصلاة والسلام راجعا من تبوك خائبا منهزما لطالت اليه ألسنة النفاق وسيوف أهل العداء والشقاق، وكانوا ينقلبون عليه في الآفاق فلله الحمد والمنة على نصرة رسوله ووصوله إلى مأموله. وقد رجع من الغزوة منصورا ومسرورا، وتهافت المتخلفون عليه بالاعتذار والانفعال والخجل والحرمان فصفح وسامح وعفا وأوفى. فيقول سبحانه وتعالى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي بالتجليات، ورفع الدرجات، وبث نفوذه في البريات ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ إفادة العزة والمنعة والنصرة ورفع الدرجات لهم على اتباع سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ من المؤمنين الضعفاء، أي يميل الى الظن بأن لا نصرة ترد عليهم ولا منحة ولا مدد توصل اليهم فكاد أن يقعدوا خائبين ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على هذا الفريق لإرجاع الضمير الى أقرب المراجع. فكرر التوبة بالنسبة اليهم لمزيد حاجتهم اليها، ويجوز إرجاع الضمير الى الكل فالتكرار تأكيد لإفاضة الرحمة على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأخيار رضي الله عنهم أجمعين وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ استئناف تعليلي لأن من له الرأفة والرحمة من آثار فضله الكرم والتوبة.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أي خلف أمرهم وأخر عن أمر أبي لبابة وأصحابه حيث لم يقبل منهم معذرة، ولا رُدَّتْ ولم يقطع بشيء في

شأنهم. وقد يفسر المتعدي باللازم أي الذين تخلفوا عن الغزو وهم: كعب بن مالك من بني سلمة، وهلال بن أمية من بني واقف، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾غاية للتخليف أي أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾شرط جوابه محذوف وقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ من عطف العلة على المعلول. أي ضاقت عليهم آفاق تجوال أنفسهم ليجدوا شيئا مما يخلصهم عن المحنة، صار ذلك سببا لضيق الأرض عليهم مع رحبها وسعتها فإن الإنسان إذا اغتم فوق العادة لا تبقى له فسحة، فيرى الدنيا كأنها قفص ضيق لمحكوم في قفص الاتهام. وذلك لانه لما تركهم الرسول صلى الله عليه وسلم تركهم الاحباب والاقارب فلم يبق لهم مؤنس يستأنسون به ومسعف يستنجدون منه.

واعتقادي أن هذا المعنى أقوم من جعل ضيق الأرض سببا لضيق أنفسهم عليهم، فإن السعة والضيق مبدآن من النفس، فاذا ضاقت النفس ضاقت الارض عليه.

﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي علموا أن لا لجوء من سخط الله الا اليه وقوله ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ مرتبط بالجواب المحذوف، أي وفقهم للتوبة والإنابة والاستغفار عما اعتراهم من الغفلة وعدم الاهتمام بتبعية سيد الأنام، فتجلى عليهم بالإقدار على إظهارها ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ويعلنوا التوبة، وذلك بإنزال قوله الكريم ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أي لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ولذلك يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويلهم المخطئين الغير المتجاسرين الانابة والاستغفار.

ولما كان سبب تخلف الثلاثة عن السير للجهاد الغفلة والابتعاد عن حضور الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ عما لا يرضى به ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أشباحا وأرواحا حتى تنزل عليكم البركات مساء وصباحا. والكينونة الشَّبَحية عبارة عن المجاورة والمحاورة والاستفادة من كلامهم وسلامهم. والكينونة الروحية عبارة عن الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، ولذلك شرعَ الله سبحانه وتعالى في الصلاة التي هي صِلَة العباد بالمعبود ومعراج المؤمن الى مناجاة واجب الوجود الخطاب مع الرسول المسعود بجملة: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

وفي الكشاف: روي أن ناسا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم من بدا له وكره مكانه (أي تندم على تخلفه وكره بقاءه كذلك) فلحق به صلى الله عليه وسلم كأبي ذر وأبي خيثمة رضي الله عنهما ومنهم من بقي ولم يلحق به صلى الله عليه وسلم ومنهم الثلاثة. قال كعب رضي الله عنه: لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فردّ عليّ كالمغضب بعدما ذكرني، وقال: ليت شعري ما خلف كعبا؟ فقيل له: يا رسول الله ما خلفه الا حُسنُ بُرديه، والنظر في عطفيه! فقال معاذ: أالله (أي والله) ما أعْلَم عنه إلا فضلاً وإسلاماً. ونهي عن كلامنا أيها الثلاثة (من باب الاختصاص) فتنكر لنا الناس، ولم يكلمنا أحدٌ من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن، فلما تمت خمسون ليلة إذ انا بنداء من ذروة سَلَعَ أبْشِر يا كعب بن مالك! فخررت ساجدا وكنتُ كما وصفني ربي سبحانه وتعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾

وتتابعت البِشارة فلبست ثوبي وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، فقام إليّ طلحة بنُ عُبيد الله يهرولُ حتى صافحني، وقال لِتَهْنِك توبةُ الله عليك فلن أنساها لطلحة.

وقال لي رسول الله وهو يستنير استنارة القمر: ((أبشر يا كعب بخيرِ يومٍ مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك!)) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا الآية.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120)﴾

ثم بعد بيان أحوال المتخلفين على اختلاف مشاربهم أخذ يعاتبهم، ولاسيما الذين لهم طول وحول، على تخلفهم من الرسول في الجهاد الذي يعود بإحدى الحسنيين للمجاهدين.
فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وأضرابهم ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ صلى الله عليه وسلم عند توجهه الى غزوة تبوك الغزوة التي فيها القوة والصيت والانتصار للحق على الباطل ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي ولا يصرفوا ولا يبعدوا بأنفسهم عن نفسه النفيسة المقدسة النافعة للمسلمين بإرشادها لهم الى سلوك سبيل التوحيد والعبادة الخالصة لله وكسب العزة والرفعة في الدارين، وما كان ينبغي لهم أن يترفعوا بأنفسهم عن نفسه العالية بأن يكرهوا المكاره لأنفسهم ولا يكرهوها له

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني وذلك النفي المعروف في معنى النهي المستفاد منهما وجوب الاتباع له صلى الله عليه وسلم بسبب أنه لو كانوا معه واتبعوه في سبيل الله ما كان يصيبهم عطش في ذلك الجهاد ولا تعب جسمي أو نفسي ولا مجاعة في سبيل الله ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي ولا يجعلون القدم في أرض تكون موطئا للاقدام بحيث يغيظ الكفار أي يغضبهم ويضيق صدورهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ أي ولا يصابون من أعدائهم بمصيبة كالقتل والأسر والجرح وغيرها ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي كتب في كتاب الأعمال لهم بسببه ثواب عمل صالح لله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم وأعمالهم الصالحة لله.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121)﴾

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ تمرة فما دونها ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ حسب المعروف كما أنفقه سيدنا عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة المتوجه الى تبوك ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ وهو المنعرج من الجبال والآكام التي يسيل فيها الماء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي أثبت لهم في صحائف أعمالهم الحسنة ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على معنى أن الله تعالى ينظر في أعمالهم فأيها كان أحسن يجعله مقياسا لجزاء باقي الأعمال لهم، وان لم يكن على تلك الدرجة من الحسن والبهاء وذلك من فضله تعالى والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية... عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقد كان تخلف عنه ناس في البدو يفقهون قومهم، فقال المنافقون: قد بقي ناس في البوادي، هلك أصحاب البوادي فنزلت هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم.

وعن عبدالله بن عبيد بن عمير قال: كان المؤمنون لحرصهم على الجهاد اذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية خرجوا فيها وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة في رِقَّةٍ من الناس. فنزلت الآية رواه ابن أبي حاتم.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ معناه: ما صح وما استقام للمؤمنين أن ينفروا جميعا لنحو غزوٍ أو طلب، كما لا يستقيم لهم أن يتقاعدوا ويتكاسلوا جميعا. فإن الطرفين خارجان عن الاعتدال، والخروج عن الاعتدال يوجب اختلال الأمور في الحال والمآل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي فهلا نفر من كل جماعة كثيرة طائفة قليلة ولو اثنين أو ثلاثة ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي ليسعوا وليتكلفوا الفقاهة والفهم في أحكام الدين أصولا وفروعا ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وانما خص الانذار بالذكر مع أنه يجب على الفقهاء الانذار والتبشير اشارة الى أن رفع المفاسد أهم من جلب المصالح فيجب قبل كل شيء منع الناس عن الانكار لوجود الباري، ثم عن القول بالاشتراك له تعالى، ثم عن الغفلة عن عبادته وطاعته بالقدر المستطاع، ثم الأمر بالإيجابيات فيها، ثم النهي عن ترك اتباع الرسول بحجة الاكتفاء بالعقول، وارشادهم الى أن طور الانبياء أعلى من طور العقول، فإنها لا تظفر بالغيبيات من السؤال والجواب ومحاسبة الله تعالى وجزاء الأعمال وخلود المكلفين في داري الثواب والعقاب.

ويستفاد من قوله الكريم: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وقوله: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أنه يجب أخذ الفقه من الاساتذة أصحاب الأسانيد المتصلة بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز بحال من الأحوال الاغترار بالعلم الشخصي الناتج عن الثقافة العادية، لأن الدين، وإن نزل باللغة العربية، لكن فيه اصطلاحات كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج... المنقولات من المعاني اللغوية الى المعاني الشرعية المشروطة بشروط، والمتحققة بأركان وغير ذلك. وكلها يحتاج الى الأخذ والتلقي من الاستاذ العالم، كما يحتاج هو الى أستاذ آخر وهكذا... حتى يصل الى ينبوع الحكمة والرحمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سيد الأمة. كما يستفاد أن تفسير القرآن الكريم وبيان الأحكام المأخوذة منه محتاج الى الفقه والفهم الدقيق الواسع الذي يفرق به بين الخاص والعام، والمقيد والمطلق، والمجمل والمبين، والناسخ والمنسوخ. وقواعد التعادل والتراجيح في الآيات التي ظاهرها يخالف ظاهر آية أخرى. وهذا الفهم هو المعبر عنه بالاجتهاد لمن وصل فيه الى درجة ملكة الاستنباط بشرط أن يكون صاحبه مسلما عادلا ليوثق بكلامه في البيان، فلا يجوز لأي عامي أو مثقف غير متوسع أن يستقل برأيه، لانه لا يعلم حقيقة الموضوع وقد قال تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكما يحتاج العالم الى فهم معاني اللغات يحتاج الى فهم أصناف المفردات والمركبات كما ذكرنا. وكذلك يجب معرفة السنة النبوية القولية والفعلية والتقريرية في ما يتعلق بفهم آيات الاحكام، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فصار بهذه الآية الكريمة معرفة البيانات النبوية شرطا في أخذ الأحكام من الكتاب الذي يحتاج الى البيان.

كما أن كل إنسان مسلم فاهم عالم يدرك أن الكتاب والسنة رغبا في اتباع ما درج عليه جمهرة المؤمنين العالمين قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم: ((لا تجتمع أمتي على ضلالة)) ولا شك أن المراد بالمؤمنين العلماء الأمناء الغيارى، كما أن المراد بالامة هي الامة العالمة الأمينة المخلصة في الدين، فصار اتباع اجماع الأمة المسلمة واجبا على كل فرد من أفراد المؤمنين.

وقد تقرر الإجماع على اتباع المجتهدين في أحكام الاسلام والعمل بما استنبطوه من الكتاب والسنة النبوية، فاستدلال المجتهد دليل معتبر من أدلة الدين.

وكذلك يستفاد من الآية الكريمة أن خبر الآحاد يجوز العمل به بل يجب اذا كانت مستوفية لشروط الاعتبار من العدالة والابتعاد عن الابتداع، وذلك لان أقل الفرقة ثلاثة وطائفة من ذلك أقل مما يوجب اليقين من الأخبار المتواترة. فالآية الكريمة محتوية على فوائد هي قواعد للدين المبين.

ثم الفقه لغة: الفهم، وفي عرف أصول الفقه: الفقيه المجتهد، والمجتهد هو الفقيه، وهو العالم بالاحكام الشرعية العملية المكتسبة من الأدلة التفصيلية. وفي روح المعاني: قال حجة الاسلام الغزالي عليه الرحمة: كان اسم الفقه في العصر الأول اسماً لعلم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الي نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، وتدل هذه الآية عليه، فما به الإنذار والتخويف هو الفقه دون تعريفات الطلاق واللعان والسلم والإجارات. انتهى.

وقال الحسن: إنما الفقيه الزاهد عن الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم. ولم يقل في جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى. انتهى وهو من الحُسن بمكان، لكن الشائع إطلاق الفقيه على من يحفظ الفروع مطلقاً، سواء كان بدلائلها أم لا. انتهى

قلت: اذا نظرنا إلى اللغة: فالفقه هو الفهم والفقيه هو الفاهم. أو الى عرف أهل الفروع فالفقيه العالم الحافظ للفروع مطلقا. واذا نظرنا الى أصول الفقه فهو العالم بالاحكام الشرعية العملية، واذا نظرنا إلى مقاصد الاسلام والدين فهو المعنى الذي بينه الامام حجة الاسلام فهو النافع للمسلمين يوم لقاء الملك العلام.

وقد يستدل بالآية الكريمة على أن التفقه في الدين من فروض الكفاية لقوله تعالى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ هذا اذا كان المراد بالفقه المعنى الواسع كما ذكرنا. وأما اذا أردنا من الفقه العلم بالواجبات الدينية أصلا وفرعا فهو فرض عين على كل مكلف مطلقا لكن على وجه يكون سهلا على الناس أي بالاقتصار على المجملات من الآداب وهي الشروط والأركان للعبادات، وما اتفق عليه المسلمون في باب الاعتقادات، ولا شك أن على هذا يلزم تأثيم كثير من المسلمين المتمكنين من معرفة تلك المجملات والمتغافلين عنها. نسأل الله الصيانة والامان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية تخطيط ووضع تنسيق لجهاد الرسول صلى الله عليه وسلم مع الكفار، فيأمره بقتال الأقرب مكانا فالاقرب، لان صاحب الامر اذا لم تصف جوانبه المتصلة به من الكفر والشقاق يصعب عليه الحركة الى البعيد وتجهيز الجيش، فربما يغتنم الاقربون مكانا فرصة الهياج على الضعفاء في المركز من النساء والرجال والشيوخ، وتدور الدائرة عليهم. ثم لا تخلو قلوب المجاهدين من القلق اذا كان نساؤهم وأولادهم تحت رحمة الاعداء حولهم، وهذه سنة الرسول ويجب أن تكون سنة من ينتسب اليه كذلك. فيقول الباري تعالى اقتلوا الكفار الذين يقربون منكم، ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي شدة في الجلادة والجسارة والعنف، والصبر على القتال، أي اتصفوا بهذهِ الصفات العالية حتى يجدوها منكم، ولا يجدوا نقطة ضعف في الامة الاسلامية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ومن التقوى الاستعداد للجهاد، والتوكل على رب العباد، والصبر والاستقامة في الحرب مع الكفار الغلاظ الشداد. ومنهم من يقول: المراد بالذين يلونكم الاقرب فالاقرب نسبا حتى تصلوا إلى الأبعد. ولذلك قاتل الرسول صلى الله عليه وسلم أولا قومه، ثم انتقل الى قتال سائر العرب، ثم الى قتال يهود قريظة والنضير وخيبر وأضرابهم، ثم الى قتال الروم. وجرى الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم على سنته وسيرته القويمة على المنهج المستقيم.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127)﴾

124/124

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن الكريم ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ أي فمن المنافقين من يقول لسائر المنافقين استهزاء بالقرآن واستنكارا لها، وتثبيتا لإخوانه على الكفر والنفاق: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ايمانا؟ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لأن نور الإيمان بشيء يجلب نور الايمان بمثله فيكون هناك نور على نور ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها، لانه مدد على مدد ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من الكفر والنفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ السورة النازلة ﴿رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي كفرا لاحقا مضافا إلى كفرهم السابق، لأن ظلمة الكفر السابق تجلب ظلمة الكفر اللاحق، والشر لا يأتي الا بالشر: ظلمات بعضها فوق بعض ﴿وَمَاتُوا﴾ على هذه الحالة السيئة ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ بالله ورسوله وبكتابه المبين.

ثم إنه تعالى ترك جواب المنافقين ان كان السؤال موجها لهم فقط، وجوابهم وجواب المؤمنين الحاضرين أن كان السؤال موجها اليهم جميعا اكتفاء بجوابه، والتفصيل المبني على حقيقة الامر لان الله أعلم بأحوال الناس منهم بأحوالهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ثم أستمر الباري في الموضوع موبخا لهم فقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ﴾ أي المنافقين ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بأنواع البلايا المخزية التي لا تفيدهم أجرا ولا سمعة طيبة ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أن تلك البلايا خزايا أتتهم من فساد نياتهم وأعمالهم.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ليتفاهموا على ترك المجلس معا قائلين رمزا واشارة: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ حتى اذا رآنا لا نخرج حذرا عن اتهامنا بالنفاق واستكراه سماع السورة، أو هل يراكم من أحد حتى إذا رآنا خرجنا لنفهمهم أنا نستكره سماع ذلك الكلام إذ ليس بشيء عندنا حتى نستمع له ﴿ثُمَّ﴾ بعد ظهور ما رأوه من الصلاح ﴿انْصَرَفُوا﴾ وخرجوا عن المجلس المبارك ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان ومحبة الله ورسوله وكلامه بدليل انصرافهم عن المجلس، وذلك الانصراف ﴿بِ﴾سبب ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الصلاح لهم حالا ولا مآلا.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الخطاب للعرب فيقول: لا شك أنه قد جاءكم من الله العزيز الحكيم رسول عظيم القدر، واسع الأمر، صاحب الغلبة والنصر، ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من سلالة أصنافكم العربية الأمية الأمينة. وقيل: الخطاب للبشر على الاطلاق. ومعنى كونه من أنفسهم أنه من نوع البشر. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما وابن محيصن والزهري ﴿مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ بفتح الفاء أفعل تفضيل من النفاسة، أي من أشرف العرب. أخرج الترمذي وصححه والنسائي عن المُطَّلِبِ بن ربيعة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغه بعض ما يقوله الناس فصعد المنبر فحمد الله تعالى واثني عليه وقال: ((مَن أنا؟)) قالوا: أنت رسول الله. قال: ((أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، أن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفساً)).

ثم جاء بنعوت متوالية: أولها ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يعز ويصعب عليه عَنَتكم وهلاككم، ومعناه أنه جاء مساعدا لكم وطالبا لسعادتكم في الدارين شأن الوالد الرؤوف الرحيم.

ثانيها أنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي راغب جدا في إيمانكم وأمانكم وعقلكم وعِلمكم وأيمانكم وعُهُودكم... ثالثها: أنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

<216>

ثم لون الباري الخطاب ووجهه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن الايمان بك وهو سبب لأمانهم في الدارين ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وكفى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يعلم مقداره إلا هو. وفي الخبر: «إن الأرض بالنسبة الى السماء الدنيا كحلقة في فلاة، وكذا السماء الدنيا بالنسبة الى السماء التي فوقها، وهكذا الى السماء السابعة وهي بالنسبة الى الكرسي كحلقة في فلاة، وهو بالنسبة الى العرش كذلك».

قلت: ويحق أن نقول بما روي من الحديث الشريف ((سقف الجنة عرش الرحمن)) أي أن الجنة التي عرضها السماوات والأرض أعظم وأوسع مما دونها، وهي تحت العرش، والنار أيضا وإن لم يتعين محلها في النصوص لكنها في محل آخر من هذه الكائنات الواسعة التي لا يقدر قدرها أحد إلا الله. فإنهما بحسب ظاهر النصوص مخلوقتان الآن، وستبقيان إلى الأبد. ونداء أصحاب النار لأصحاب الجنة منصوص في سورة الأعراف، وقد مر تفسيره سابقا. والباري سبحانه وتعالى قادر على إبراز صورة واقعية يرى

عينيه بحيث لا يكون المنادي ممنوعا من النداء إلى من أراد، ولا يكون الرائي ممنوعا من رؤية من أراد بشرط إرادة الباري تعالى لذلك، وتهيئة الظروف المعتبرة في عالم الأخرة كمكالمة الناس اليوم بعضهم مع بعض، ولو كانت المسافة بعيدة، فإن كل ذلك ممكن، والله على كل شيء قدير. هذا ونسأل الله تعالى قبولنا في زمرة أمة ذلك النبي العظيم الرؤوف الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فرغت من تفسير سورة التوبة قبيل ظهر يوم الخميس الثالث من رجب من شهور سني ألف وأربعمائة وأربع هجرية، المصادف لليوم الثالث من الشهر الخامس من سنة ألف وتسعمائة وأربع وثمانين ميلادية. وأنا المؤلف عبدالكريم بن محمد الكردي الشهرزوري غفر الله تعالى له ولوالديه ولسائر المسلمين آمين.

<218>

سورة يونس عليه السلام مكية، وهي مائة وتسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4)﴾

قوله ﴿الر﴾ الأكثرون على أنها اسم للسورة، فمحلها الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي هذه السورة مسماة بكذا، وهذا أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعدُ فحقها الإخبار بها لا جعلها عنوانَ الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بجهة انتساب الخبر اليه <219>

﴿تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ اشارة الى ما تضمنته السورة أو القرآن من الاي، والمراد من الكتاب أحدهما، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أي أكان لمشركي العرب أمرا متعجبا منه وشيئا غريبا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ في تأويل المصدر اسم كان ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي أخبرهم بما فيه تخويف لهم من مغبة عقائدهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة وجزائهما يوم القيامة؟ والاستفهام لاستنكار ذلك أي لم يكن، ولا يكون ذلك الإيحاء غريبا غير معروف، فإن الناس من أول نشوئهم الى يوم بعث الرسول الكريم استمرت فيهم الرسالة والدعوة الى الحق القويم والصراط المستقيم، وهو الاعتراف بواجب الوجود ووحدته وقدمه وبقائه واستغنائه عن الحوادث وعدم مماثلته لما سواه، واتصافه بالصفات الذاتية من: الحياة، والعلم والقدرة، والارادة، والسمع، والبصر، والكلام. وأن الناس خُلِقوا لعبادة الله وطاعته وسيجزي الله كلا حسب اعتقاده وأعماله. فالرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل، ولم يكن بعثه بين قومه غريبا يتعجب منه ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي سبقا وعلوه في المنزلة عند الله. والقدم هو العضو المخصوص، وهو هنا مجاز مرسل عن السبق والتقدم في المنزلة؛ لأن السبق يكون بها، كما تستعمل اليد مجازا عن النعمة لصدورها منها. والصدق اذا نسب إلى الكلام هو الخبر المطابق للواقع سواء طابق الاعتقاد أو لا، أو إلى المتكلم وهو الشخص الجائي بخبر مطابق للواقع كذلك. وقد يستعمل في الأفعال كقولك: صدق زيد في القتال اذا وفاه حقه. وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ جملة مستأنفة مبنية على السؤال، كأنه قيل ماذا قالوا بعد التعجب؟ فقيل: قال الكافرون: إن هذا لسحر مبين، أي ظاهر لا شك في كونه سحرا. وفي هذا <220>

القول دلالة على أنهم رأوا في تضاعيف معاني الآيات المنزلة أمورا خارقة للعادة من التأثير في قلوب الناس وإفادة النكات الدقيقة، وبيان الأمور التي لم يكن من عادة الرسول صلى الله عليه وسلم بيانها.

وقوله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جملة مستأنفة ذكرت لابطال تعجبهم من الإيحاء المذكور، يعني أن الموحي له التصرف في ملكوت الكائنات، فكيف يتعجب من إيحائه المذكور حيث ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في ستة برهة من الأوقات كل برهة منها كيوم من أيام الدنيا كما هو المناسب لإظهار قدرة الله تعالى في تصرفاته وأعماله، أو في ستة أيام من أيام الآخرة التي كل يوم منها كألف سنة مما تعدون ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ على المعنى الذي أراده سبحانه وتعالى، أو أنه استولى وملك العرش المحيط بالكرسي المحيط بالسماوات والارض ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ استئناف آخر لبيان حكمة استوائه. والتدبير في اللغة النظر في أدبار الامور وعواقبها، لتقع على الوجه المحمود، وفي العرف عبارة عن التقدير والابداع الجاري على مقتضي الحكمة. والمراد بالامور كل ما جرى في علمه الأزلي وجوده على وجه مخصوص. وهو سبحانه وتعالى مستقل في تحقيق شؤونه بلا تدخل أحد حتى انه ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ﴾ يشفع لأحد في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ في شفاعته له ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلك الذات المعروف الموصوف بتلك الصفات العلية هو ربكم المستحق لان يعبد هو لا غيره ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ لا غيره، لأن غيره لا يستحق العبادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تعلمون أن المعبود هو الله الموصوف بالكمال المذكور ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بدون استثناء أحد لا الى غيره ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر لفعل محذوف أي وعد وعد الله وهو مؤكد لمضمون الجملة السابقة ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه المصدر الأول

مع عامله، وكيف يكون مرجع الناس ﴿الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل وتطبيق الجزاء على الأعمال بالوجه الموافق المناسب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي فيجزي الذين كفروا بسبب كفرهم بشرب شراب حار جدا، وبالتعذيب بعذاب شديدٍ مديد الى الأبد والعياذ بالله.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)﴾

ثم بين بعض وجوه تدبير الباري سبحانه وتعالى لأمر الكائنات فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ أي ذا ضوء أو مضيئا أو ضوءً منبعثا من حقيقته الشخصية في أصل خليقته بحيث يستنير بها الكواكب الموجودة تحت إشعاعها ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي ذا نور، ومنيرا أو نورا مبالغة في قوته النورية المستفادة من مقابلة الشمس كما قاله العلماء الفلكيون أو نورا مخلوقا في ذاته ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي قدر مسيره في منازل. وهي ثمانية وعشرون. وهي السرطان والبطين، والثريا والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك الأعزل، والعفرة، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بَلَع، وسعد السّعود، وسعدُ الأخبية، وفرع الدلو المقدم، والفرع المؤخر، وبطنُ الحوت. وهي

مقسمة على البروج الاثني عشر المشهورة. فيكون لكل برج منزلان وثلثٌ. والبرج عندهم ثلاثون درجة حاصلة من قسمة ثلثمائة وستين أجزاء دائرة البروج على اثني عشر. والدرجة عندهم منقسمة بستين دقيقة، وهي منقسمة بستين ثانية وهكذا. ويقطع القمر بحركته الخاصة في كل يوم بليلته ثلاث عشرة درجة، وثلاث دقائق، وثلاثا وخمسين ثانية، وستا وخمسين ثالثة. وتسمية ما ذكر منازل مجاز، لأنه عبارة عن كواكب مخصوصة من الثوابت قريبة من المنطقة.

والمنزلة الحقيقية للقمر الفراغ الذي يشغله جرم القمر على أحد الأقوال في المكان فمعنى نزول القمر في هاتيك المنازل مسامتته اياها، وكذا تعتبر المسامتة في نزوله في البروج، لانها مفروضة أولا في الفلك الأعظم، وأما تسمية نحو الحمل والثور والجوزاء بذلك فباعتبار المسامتة أيضا. انتهى نقلا.

قلت: هذه مبنية على نظريات الفلكيين المتقدمين۔ وأما المتأخرون فلهم منهج آخر في ذلك الموضوع.

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾أي لتعلموا عدد السنين التي يتعلق بها غرض متعلق بمضي السنوات والحساب الكسري المبني على معرفة الأشهر والأيام لمقدار الأعمار، والإيجار، والتجارات، والديون، والمعاملات، والمناكحات، والعدد، والنفقات... فإن كل ذلك مبني عند جمهرة الناس على معرفة السنين والاشهر والايام ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلق ذلك بحال من الأحوال الا متلبسا بحال حق من رعاية مصالح العباد في البلاد ﴿يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ﴾الكونية المفيدة للبصيرة في رعاية المصالح ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة وأسرار الأحكام۔

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ نورا وظلمة، طولا وقصرا، أو بحسب ما فيها من الوقائع والحوادث، أو في تعاقبهما على وجه الاستمرار ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الأشياء البديعة من الحركات البطيئة والسريعة، والأجرام النازلة والرفيعة، والتجاذب من بعض الأجرام مع بعض، وتبعية الحاصلات لاختلاف الفصول الناشئ عن اختلافهما..

﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي يعرفون ربهم وكمال قدرته فيتقونه ويعبدونه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ بيان لمآل حال الكافرين وسوء عاقبتهم، فيقول: إن الذين لا يرجون لقاءنا يوم القيامة لأنهم يكفرون بالبعث والنشور والحساب والميزان وجزاء الأعمال ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والتمتع بها وإيثارها مع خستها على الجنة ونعيمها الخالد ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وسكنت قلوبهم واستراحت بمباشرة حالها وانتظار مآلها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يعني لا ينظرون إلى الآيات النفسية والآفاقية، ولا يستدلون بها على وجود الصانع الحكيم: ولا يعتبرون بما يجري فيها من الأحوال ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ﴾ ومرجعهم ﴿النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ باتباع النفس الأمارة واستيفاء اللذائذ والمشتهيات، والاغترار بالاستراحة فيها

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بالله ورسوله وما أتى به من عنده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى إيثار الآخرة على الدنيا بسبب ﴿إِيمَانِهِمْ﴾ به وبكتابه المنزل على رسوله. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي في جنات هي ظروف للنعيم ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ أي في تلك الجنات: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي هذا الكلام وتقديره: اللهم إنا نسبحك تسبيحا لائقا بكبرياء ذاتك وعظيم صفاتك، والدعوى وإن كانت مشهورة في الادعاء لكنها وردت بمعنى الدعاء أيضا ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ فيها أي وتحيتهم لله الذي شرفهم بالجنات ﴿سَلَامٌ﴾ أو تحية الملائكة لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴿وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ أي وخاتمة دعائهم ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والخلاصة: أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله مجدوه وعظموه وسبحوه تسبيحا مناسبا لجلال الباري تعالى. ثم حيتهم الملائكة بالسلام مما كانوا يخافون منه قبل دخول الجنة، فلما سمعوا التحية وأطمأنوا بها قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ يعني إن الناس الفاسدين المفسدين يستعجلون الشر استهزاء وسخرية استعجالهم بالخير، ويقولون: اللهم إن كان هذا القرآن هو الحق فأمطر علينا حجارة! ولكن الله لا يستعجل لهم الشر، ولا يجيب طلبهم ذلك، كما يجيب طلبهم للخير، ولو كان استعجل

لهم ذلك ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ وماتوا وهلكوا، ولكنه يؤخر عذابهم وعقوبتهم كما قال ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وتجاوزهم عن الحدود ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتيهون ويتحيرون. ثم ذكر الباري وأفاد أن الإنسان مخلوق عجيب إذا جاءته فرصة من الصحة والمنحة والراحة طغى وبغى واستهتر وسخر بالدين واستحقر.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ من مرض وفقر وحقارة ﴿دَعَانَا﴾ وترجانا لكشفه وإزالته ﴿لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي تضرع إلينا مضطجعا أو قائما ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ على طريقه السابق المعتاد واستمر على بغيه وعناده غير مبال بما كان ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ أي الى كشف ضرّ مسه ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ جمع قرن بفتح القاف أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران لاقتران الناس بعضهم مع بعض في الأعمال والاحوال. وقيل اربعون سنة، وقيل ثمانون، وقيل مائة. يعني والله قد أهلكنا أهل الأزمنة الماضية من المتمردين عن طاعة الله ورسوله، كقوم نوح وعاد وثمود الذين كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بعصيانهم وطغيانهم ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالأدلة الواضحة الموضحة على أن الله حق ورسالة رسله حق ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي وأصروا على كفرهم بحيث ما كانوا على حالة ليؤمنوا بالله ورسوله عليها فهذه التي ذكرناها سنتنا في خيلقتنا لا تتبدل ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الموجودين في الحال أو المستقبل، فكلما جاءهم الرسول بالبينات وعصوا وتمردوا أهلكناهم وجئنا بقوم آخرين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض بعد إهلاك أولئك القرون التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثار ديارها المدمرة ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي ليتعلق علمنا بأعمالكم وكيفياتها وكمياتها، فيجازيكم عليها كالأوّلين ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي الآيات الدالة على التوحيد وبطلان الشرك دلالة واضحة لا شبهة فيها لمن ليس على قلبه غبار العناد ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي قالوا لرسولنا الذي يتلو عليهم الآيات: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ في الصفة أي في الدلالة بأن لا يكون فيه نداء إلى التوحيد الله ولا الآيات الدالة على البعث بعد الموت وحساب للأعمال والميزان، وذلك بأن يكون القرآن على ذلك الأسلوب من البلاغة لكن يخلو عن التوحيد والبعث وما يتبعه ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ذاتا بكلام آخر وأسلوب آخر كالعبارات الاعتيادية ﴿قُلْ﴾ يا رسولي في جواب أولئك المتعنتين في الطلب الذين لا يريدون إلا الإنكار لآيات الله والاستنكار للتوحيد والبعث وجزاء الأعمال ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي لا يصح ولا يمكن لي

تبديل القرآن ذاتا ولاصفة، فإنه قرآن مجيد في لوح محفوظ نازل إلي بالعناية ومحفوظ إلى الأبدِ بالرعاية، وليس لي صلاحية في تغييره وتبديله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ بحفظه وكتابته وتبليغه ورعايته، إني لست على طبيعتكم وعلى قلوبكم المستنكرة للحق المتجاسرة على الدين القويم، وهذا الذي تقترحونه عصيان يليق باللئيم ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ﴾ لهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا أتلوه على الناس ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ﴾ الله ولا أعلمكم ﴿بِهِ﴾ على لساني والفعل من الدراية وماضي باب الإفعال، وفاعله راجع الى الله تعالى، أي ما كنت أتلوه عليكم حتى تستمعوا ألفاظه، ولا أعلمكم الله بمعانيه. وعن الحسن قراءة ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ﴾ بقلب الياء همزة أي ولا أعلمتكمْ به أي لا أسمعتكم أنا ألفاظه ولا فهمتكم معانيه ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ هذا كالتعليل لما سبق، يعني أنه لو كان هذا القرآن من مبتكرات فكري كنت تلوت بعضا منه قبل وقت نزول القرآن لأني لبثتُ فيكم عمرا، أي مدة قبل هذا الوقت ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تتأملون بالعقل حتى تعلموا أن هذا القرآن كلام الله تعالى ولا علاقة فيه لمن سواه من العالمين؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كلاما على وجه الكذب في نسبته إليه تعالى، فلو ألفت كلاما من جانب نفسي ونسبته إلى جانب القدس كنت أظلم الناس حيث افتريت على الله رب العالمين، وكذلك لا أحد أظلم ممن جاءته الآيات البينات من الله على لسان رسوله وكذب بها وعاندها وأنكر نسبتها إلى الله، أو استنكر معانيها وعاندها عاصيا، فلو كان إنسان على ذلك المنهج المعوج لكان مجرما وما كان ينجو من العذاب الأليم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولا ينجو من المعائب والمصائب في الدنيا والآخرة۔

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ استئناف لبيان خصلة أخرى من خصالهم الذميمة وهي أنهم يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، أي يعبدون أوثانا جامدة هامدة لا يضرهم بمنع الخيرات عنهم، ولا ينفعهم بجلبها اليهم، فهي أشباح بلا أرواح، وهياكل منحوتة منصوبة، ومن شأن المعبود أن يستقل بالاضرار والانفاع من كل الوجوه لمن شاء نفعه أو ضره، أو المعنى لا يضرهم أن تركوا عبادتها، ولا ينفعهم ان عبدوها ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في مقام التبرير لمواقفهم الضيقة والحرجة في الجدال: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الأوثان ﴿شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ في يوم اللقاء والعرض والحساب ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولي: ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بشيء باطل لا وجود له في الكائنات قطعا حيث لم يتعلق به علمه تعالى، ولو كان موجودا متحققا فيه لتعلق به علمه كذلك، أي أن كونهم شفعاء لكم عند الله تعالى لا أصل له ولا اساس ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم لمن سواه في عبادته واطاعته مطلقا فضلا عن اشراك الهياكل الجامدة المستلزم لتلك المقالة الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ما كان الناس كافة من أول الخليقة إلا متفقين على الحق والتوحيد وعبادة الله تعالى وحده. فقيل من عهد آدم

الى أن قتل قابيل هابيل، أو الى زمن ادريس عليه السلام، أو الى زمن نوح عليه السلام الى أن توغل الانسان في مطامع الدنيا الدنية وحصل الاختلاف بينهم، وحدث الخروج عن نظام العدل والمسؤولية وكفر بعضهم وأنشأ عبادة الأوثان والهياكل ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ بذلك في الأصول والنظام وفي الكفر والإسلام ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وحكم جرى به القضاء على تأخير العقاب الى مسافة زمنية في الدنيا أو الى البرزخ أو الى يوم الميزان والحساب لهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من التوحيد وغيره بإنزال آيات ملجئة الى الايمان، أو بتعجيل العقوبة وإهلاك الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آَيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكاية لمذمة أخرى لهم، يعني ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في مقام القدح عن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي آية من الآيات التي اقترحناها كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص من عيسى عليه السلام ومعنى إنزالها إظهارها وإحداثها. وانما طلبوا أحداثها تعنتا، والا فقد رأوا من الرسول معجزة القرآن المعجز الذي لم يظهر في الكائنات مثله، وقد ظهرت معجزة شق القمر، وتسليم الحجر، ومجيئ الشجر إليه، بل وفي ظهور نفس الرسول وما آتاه الله من النجاح في مهمته معجزة عالية عالمية، كما أن أخلاقه من: صبره، وصدقه، وأمانته، وثباته، واستقامته، وترحمه، ووفائه بعهوده.. معجزات تدهش

العقول.

﴿فَقُلْ﴾ يا حبيبي في جواب أولئك المقترحين: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾ أي الحكم الغائب عن الأبصار وهو التصرف في هذه الأمور وإبداعها وظهورها حسب الميسور ﴿لِلَّهِ﴾ القادر على كل شيء يظهرها لمن يشاء ويسترها عمن يشاء. أو أن الأمر الغائب عنكم وهو عقوبة الله المنصبة على المتعنتين الله عاجلا أو آجلا ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ حدوث ما أراد الله حدوثه ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك.

ثم هذه الاقتراحات الواقعة على سبيل التعنت والاستهزاء انما هي من غرورهم الحاصل من وفور النعمة عليهم ﴿وَ﴾ إنا ﴿إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ كالصحة والجاه والمال والأولاد ووسائل السيطرة في العباد ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أي من بعد الحالات المضرة بالعظمة كالفقر والحقارة والمرض والنذالة وقلة الأولاد التي خالطتهم وامتزجت بهم حتى أثرت فيهم وظهرت آثارها في وجوههم... ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ﴾ وخديعة ﴿فِي﴾ إنكار ﴿آيَاتِنَا﴾ والطعن فيها وتشويه سمعتها ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ومكيدة وانتقاما ببلايا شديدة ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ المراقبين لكم بامرنا ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ ويكونون شهداء عليكم عندما تحاسبون، فلا محالة تدركون سوء عاقبتكم وأحوالكم في الدنيا أو في مآلكم.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ شروع في بيان غَلَبَة محبة الدنيا ومطامِعِها على ذكاء النفس الإنساني وميلها إلى جانب الرشد والزهد وعبودية الله تعالى، ونسيان نعمة الله على ذكرها وشكرها، وتقلبها وتجوالها مع الهوى على ثباتها واستقامتها، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ﴾ بتسييركم في القوافل الكبيرة والصغيرة الى أقطار الأرض والبلاد البعيدة ﴿وَ﴾ يسيركم في ﴿الْبَحْرِ﴾ الواسع بالسفن ذوات الأعمدة الروافع ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ملائمة لسيرها ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ لتقريبها لكم الى الموانئ المقصودة ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي قاهر كاسر موافق للاضطراب ومخالف للاقتراب ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ أي المياه الكثيرة المائجة الهائجة ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من الأمام والخلف والشمال والجنوب ﴿وَظَنُّوا﴾ أي الساكنون فيها ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ بجيش البلاء الموجب للفناء، واعتقدوا بالهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ المجيب ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قائلين: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ المصائب ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ في مستقبل عمرنا ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ منها ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ولما ذكر الباري أحوالهم هذه ناداهم بصورة الخطاب ووجه لهم اللوم والعتاب قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ وطغيانكم وجسارتكم وعدوانكم ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ لا على غيركم ولا تريدون بذلك الا أن تتمتعوا ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانية ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الآية كلام مستأنف نزل لوصف تمتع الانسان بالحياة الدنيا وقلة مدتها ثم استعقاب التمتع للأخطار والأضرار من جهات شتى. والمثل ما شبه مضربه بمورده ويستعار للامر العجيب المستغرب، فيقول: إنما مثل الحياة الدنيا في نضارتها ونظارتها أولا، ثم انتهائها آخرا ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي فكثر بسببه ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ من أفراد وأصناف وأنواع كثيرة ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ من البقول والزروع والعشب والمراعي ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي استكملت حسنها وبهجتها ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ بوجوه الزينة ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي قادرون على الاستمتاع بتلك الأرض وما نبت فيها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي نزل بها حسب صدور أمرنا بالإمحاء والإفناء ما قررنا وقدرنا لها من العذاب في جزء من ليل أو نهار ببردٍ أو بَرَد او سموم معلوم ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي فجعلنا ثمارها شبيهة بما حصد من

أصلها ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي كأن لم تلبث ولم تكن تلك الثمار بالامس. وهذا المثل مثل في الوقت القريب، والممثل به زوال خضرة النبات فجأة وصيرورته حطاما بعد أن كان غضا طريا، وزين الارض وطمع فيه أهلكه. وحاصله اتصال ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس كقول الشاعر:

كما أبرقت قوما عطاشا فلما رأوها أقشعت وتجلت

﴿كَذَٰلِكَ﴾ المثل ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في مبادئها ليعرفوا مقاصدها ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو﴾ المكلفين من الجن والإنس ﴿إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ المؤبد بإطاعته في مدة وجيزة ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته ممن توجه بحسن استعداده الى طريق رشاده وسلكه سلوكا مناسبا لإسعاده، وهو المراد بقوله ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج فيه بحيث لا يتحير فيه السائر ويسترشد به الحائر، فإن الله بفضله وكرمه قرر أن للذين أحسنوا العقيدة والعمل المثوبة الحسنى. ومعنى إحسان العقيدة والعمل أن يتصف بهما بإخلاص كامل لذات الباري بأن يكون له حضور وشعور كأنه يرى ربه وان لم يره يعتقد أنه يراه تطبيقا لتفسيره صلى الله عليه وسلم له بقوله ((الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي النظر إلى وجه ربه الكريم، كما روي مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرق كثيرة ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي غبار من الغم والحزن ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ من الهوان والحقارة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الملازمون ها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي جنسها كبيرة أو صغيرة ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ جزاءً وفاقا بموجب العدالة الربانية وهذا إذا لم يغفر له بأن كانت السيئة كفرا أو دونه ولم تتعلق الارادة بالغفران وإلا فله ذلك ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي وتغشى أولئك الكاسبين للسيئات هوان عظيم

﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم من سخط الله ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي يعلو وجوههم يوم القيامة قتر وسوادٌ كأنما أغشيت وألبست قطعا من سواد الليل مظلما ذلك الزمان ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبَدَ الآبدين.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ كلام سيق لبيان بعض ما يأتي عليهم يوم القيامة. وكلمة ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بفعل مقدر، أي خوفهم بذلك اليوم ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي المؤمنين والكافرين ﴿جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من بينهم: الزموا ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي الذين زعمتم أنهم شركاء لله في العبادة من جانبكم ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وفرقنا بينهم لا في الجسم والتواصل الحسي بل في العلاقة المعنوية والوصلة النفسية بينهم لأنه لما تبين الحق من وحدته تعالى وعدم دخالة أحد في العبادة معه صار الفريقان فريقين متعاديين، ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ بل كنتم تعبدون أهواءكم ونزعاتكم التقليدية الفاسدة وهذا القول بإنطاق الله الجمادات أن كانوا من الأوثان والأصنام، وعلى المنهج المعتاد ان كانوا من الملائكة الكرام وعزير والمسيح عليه السلام وعليه فقوله فقال

الالهة: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا﴾ أي إنه قد كنا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ـ إيانا في الدنيا ﴿لَغَافِلِينَ﴾ غير عالمين لأن الجمادات لا علم لها أو غير راضين وغير مقتنعين لان الملائكة والأنبياء الكرام براءٌ من الرضا بالكفر والإشراك.

﴿هُنَالِكَ﴾ يوم القيامة وساعة المواجهات ﴿تَبْلُو﴾ تعلم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ حقيقة ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ـه من العقائد والاعمال حقة أو باطلة وجزاءها خيرا أو شرا، فيبدو عِزّ المؤمنين وخزي المشركين، ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَضَلَّ﴾ أي ضاع وذهب ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن لهم آلهة دون الله ويشفعون لهم عنده يوم الحساب.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)﴾

﴿قُلْ﴾: يا حبيبي لأولئك المشركين في مقام الاستدلال على توحيد. الباري سبحانه ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ رزقا ناشئا ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالامطار وإنباتِ الزروع؟ ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي بل من الذي يملك خلق السمع وإبداع قوة الاستماع فيها، ويملك الابصار وايجاد قوة الابصار فيها الجهازين الذين يحار من وقف على تحليلهما والاطلاع على ما أودع فيهما من الدقائق المفيدة للقوتين والمبيدة لما يخالفهما؟ ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾أي الحي بالحياة الاعتيادية الموجبة للحس والحركة

الإرادية من مادة لا روح فيها فعلا وان كان فيها قابلية تعلقها كالانسان من النطفة والفروخ من البيض؟ ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ويخرج النطفة من الانسان مثلا والبيض من الطيور؟ أو من يخلق المهتدي من الضال ويخرج الضال من المهتدي؟ ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ومن الذي يتولى تدبير أمر العالم العلوي والسفلي وعالم الغيب والشهادة ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بعد رعاية الانصاف والتفكر الصافي أن المبدع المدبر هو ﴿اللَّهُ﴾ جل جلاله وعم نواله فقل:

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله الذي تعترفون بأنه الملك والمالك وغيره مملوك هالك ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الذي إليه الأمر كله ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي بعد اتباع الحق والاهتداء بنوره ﴿إِلَّا الضَّلَالُ﴾ والحيرة والهيمان في بيداء الخسران ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن الحق الى الضلال وأنتم تدعون العقل والعلم والكمال.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي كما حقت كلمة الربوبية والوحدة لله تعالى حقت كلمة الله وحكمه وقضاؤه على الذين خرجوا عن طاعته ولم يوفوا حقه ذلك بسبب ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويستمرون على التمرد والعصيان. أو أن الكلمة هي ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لصرفهم الاستعداد الى جانب الهوى والعناد، وابتعدوا عن الهدى والرشاد.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ استدلال آخر على توحيد الباري سبحانه وتعالى فيقول: ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لهؤلاء المشركين: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أيا كان ﴿مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ والايجاد وله قدرة إخراج الحقائق العلمية من العلم الى العين ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي وله قدرة قاهرة باهرة على إبادة أولئك المبدوئين بالوجود وتحويلهم الى العدم والفناء ثم على اعادتهم إلى الوجود العيني في عالم النشأة الثانية؟ وبعد إلقاء هذا السؤال الى العقلاء منهم لا يمكنهم الاجابة الا بسلب الوجود عمن يقدر على الابداع ثم الاعادة إلا الله، فإذا اعترفوا بذلك ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ قل لهم مرشدا لهم الى الحق والحقيقة: الله هو الذي يبدأ الخلق أولا ثم يميته ثم يعيده، ولا أحد غيره قابلا لهذه المضغة التكوينية والإفنائية والإعادة ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون قلبا وقولا الى نسبة ما ليس في الإمكان أن يتحقق من غيره تعالى الى ذلك الغير البرئ من الخير وهو عاجز عن رعاية نفسه فضلا عن التصرف في ما عداه من أجزاء العالمين.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي للاحتجاج على المطلوب: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ الذين تدعون لهم القابلية للالتجاء والاعتماد عليه ﴿مَنْ يَهْدِي﴾ الضال ﴿إِلَى﴾ طريق ﴿الْحَقِّ﴾ وبحسب الواقع لا تسمعون الجواب الا بالسلب، واذا توقفوا فـ ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ لا غيره من الخلق لان الايصال الى المطلوب لا يمكن الا منه تعالى، فان اتفقتم على أن الله هو الهادي إلى الحق قل ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ﴾ وأليق بـ ﴿أَنْ يُتَّبَعَ﴾ ويعبد ﴿أَمَّنْ لَا يَهِدِّي﴾ بكسر الهاء والدال المشددة أي لا يهتدي لنفسه ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ من غيره.

فَمَا لَكُمْ تغفلون عن الحق والواقع وكَيْفَ تَحْكُمُونَ بأن الضال يهدي الحائرين.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ أي أكثر المشركين في معتقداتهم الفاسدة الباطلة إِلَّا ظَنًّا واعتقاداً راجحاً غير مستند على سند يعتمد عليه إِنَّ الظَّنَّ الموصوف بما سبق لَا يُغْنِي الانسان مِنَ اتباع الْحَقِّ شَيْئًا من الإغناء إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ من اتباع الظنون الفاسدة.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39)

قوله تعالى: وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ شروع في الرد على من ادعى أن القرآن المنزل على حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم ليس منزلا من الله تعالى وإنما هو كلام مختلق ومفترى على الله من جانب الرسول، ومعاذ الله وتعالى كتاب الله أن يكون كذلك، فيقول الباري سبحانه وتعالى: وَمَا كَانَ أي وما صح وما استقام أن يكون هَذَا الْقُرْآَنُ مما يُفْتَرَى به على الله تعالى وصادر مِنْ دُونِ جانب اللَّهِ تعالى لأدلة قاطعة:

الأول: ما أشار اليه بقوله: وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وبيانه أن من أنزل عليه القرآن رجل أمي لم يدرس ولم يصاحب أهل العلم بالتواريخ

ولم يخرج من مكة المكرمة بحيث يظن أنه غاب لدراسة الكتب السابقة فلم يطلع على ما في التوراة والانجيل من العقائد والاحكام مع انه جاء ببيان أحوال صاحبي الكتابين وهما موسى وعيسى عليهما السلام وبيان ما جرى وما ايد الله به سبحانه ذينك الرسولين وأحوالهما ونشوءهما في آيات متعددة وسور كثيرة، ولولا أن القرآن منزل من الله تعالى ما أمكن لهذا الرجل الأمي بيان الكتابين وصاحبيهما بذلك الوجه الوجيه السليم.

الثاني: أن هذا القرآن مشتمل على تفصيل الشرائع السابقة المنزلة على الرسل الكرام وبيان أحوال الرسل القدماء السابقين على موسى وعيسى عليهما السلام من: آدم، ونوح، وهود، وصالح، وابراهيم، واسماعيل، واسحاق ويعقوب والأسباط... ولو لم يكن هذا القرآن منزلا من الله تعالى لم يكن كذلك لأنه يمتنع أن يعلم انسان غير ممارس لتلك الشرائع في العهود القديمة أن يبحث عنها وعن أصحابها، وعليه يكون المراد من ﴿تَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ تفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع وأصحابها. وفي التأويلات النجمية أن المراد بتفصيل الكتاب تفصيل الجملة التي هي المقدرة المكتوبة في الكتاب الذي عند الله لا يتطرق اليه المحو والاثبات، لانه ازلي أبدي ودلالته على صحة نسبة القرآن الى الله واضحة لائحة، لأن المراد بالكتاب حينئذ هو علمه القائم بذاته، لكنه لابد على هذا أن يراد بتفصيل الكتاب تفصيل نبذة منه.

الثالث: ما أفاده بقوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وحاصله أن هذا القرآن مشتمل على قواعد كونية رصينة وعلى عقائد صحيحة حصينة وأمور عقلية من أحوال العالم العلوي والسفلي، ولا يمكن بيانها الا من عليم خبير، ولهذا ربط هذه الفقرة بقوله ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أن القرآن جاء بحقائق لا يرتاب فيها أصحاب العقول السليمة، أو لا ينبغي أن يرتابوا فيها، وذلك دليل على

أنه نازل من رب العالمين. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أم فيه منقطعة وهي مقدرة بكلمة بل الاضرابية والهمزة الاستفهامية الاستنكارية. والمعنى أبل هم يقولون افتراه ويأتون بهذه الدعوى الباطلة؟ وما دلم جاؤا بذلك ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول المبلغ لوسيلة الوصول: ﴿فَأْتُوا﴾ أيها المدعون لذلك ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي مثل ما فيه من السور طويلة أو قصيرة حاوية على ما فيه من وجوه الإعجاز بلاغة أو إخباراً عن الغيب، أو مغايرة بأسلوبه لأسلوب كلام الناس، أو مؤثرا بما فيه من الحقائق والأمور الواقعية في قلوب العاقلين المنصفين الصافين عن كدر العناد ﴿وَادْعُوا﴾ للمدد والعون وتأييدكم في هذا المطلوب ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ دعوته من آلهتكم التي ألهْتكُم عن ملاحظة الحقائق التي تزعمون أنها تعينكم في النوائب والمهمات، أو من الكُتّاب والأدباء والشعراء وأصحاب البيان حالكونه ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي متجاوزين عن الإتيان بشيء من الله، أو المقصود ادعوا غيرَ الله من شئتم من خلقه للتعاون معكم في ما سبق ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن القرآن ليس كلام الله وأنه مفترى عليه، وان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا الله رب العالمين.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ ضراب وانتقال من الله تعالى عن إظهار بطلان دعواهم بالتحدي إلى الإتيان بسورة مثلهِ الى إفادة أن أولئك الجهال ليسوا في مستوى العقلاء المستدلين حتى يناظروا، وانما كذبوا القرآن الكريم ونزوله من الله تعالى لانهم ليسوا في درجة أناس عارفين ولم يحيطوا بعلم ما فيه، وليست الحقائق المندرجة فيه من الأصول والفروع مما يصل اليه عقولهم. فالكلام معهم كلام عاقِلٍ عالم مع صبية غافلين وزاد على ذلك قوله ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي لم يقفوا إلى الآن على تأويل معانيه وعواقب أسراره الدقيقة الدالة على علو شأنه ومستواه، وإلا كانوا يتوقفون عن ذلك الهذيان، ووقفوا على قدم الصدق والتصديق به بين الأعيان. أو

معناه ولما يأتهم مال هذا القرآن المنزل لتنبيه الغافلين وتوجيه العاقلين الدال على أنه كلام نازل من رب العالمين الذي يُمْلي للناس ثم يؤاخذهم بغتة ويفاجئهم دفعة، أو لم يأتهم إلى الآن جزاء من وقف في مقابل كلام الله تعالى بالتعاند والتخاصم، وسيأتيهم الجزاء يوم لا يوجد فيه خلة ولا شفاعة، وهو يوم عقاب الكافرين وهذه سنة الله تعالى مع الناس في الدنيا، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل تكذيبهم ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وسيأتيهم مثل ما أتى الظالمين.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي ومن الناس من يؤمن ويصدق به في نفسه أنه حق منزل من الله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي لا يصدق به في نفسه كما لا يصدق به ظاهراً لفرط غباوته المانعة عن العلم به. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا يؤمنون به ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ أي أصروا على ما هم عليه من الضلال والكفر والتكذيب بك وبالكلام المنزل عليك ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿لِي عَمَلِي﴾ وتبليغي للرسالة ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ من الإفساد والتكذيب

﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ ذاتا وجزاءً ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إذ لا يسري جزاء أعمال أي مكلف الى غيره.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ يعني ومن أولئك المشركين ناس يستمعون إليك ويسمعون كلامك عند تلاوة القرآن أو في الأوقات الاخرى ولكنهم لا يستفيدون بما يسمعون اذ ليس عندهم عقل وشعور يكتفى بهما، فهم كالصم الغفل ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ والجواب بالسلب لأن الأصم اذا كان عاقلا أمكن أن يستفيد شيئا بالفراسة لكن اذا أضيف عدم العقل الى الصمم فهناك فقدان الفوائد والعوائد ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ لكن لا نظر الناقد الخبير بل نظر الجاهل الفاقد فهو والاعمى سواء في عدم إدراك المقصود ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي ولو أضيف الى عماهم في الابصار عماهم في البصائر؟ والجواب هو السلب أيضا كما مر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ مما ارتبطت به مصالحهم حسب ما يباشرونه من الأعمال وما يحفظونه من العقائد ان كانت على حسب الواقع السليم ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بترك الاستبصار والاعتبار والاستدلال بالآفاق والأنفس، فمن عاند الله ورسوله هو الذي منع وصوله، ومن أساء الاختيار فهو الذي اختار لنفسه الخسران، ومن سلك سبيل الاهتداء إلى الحق فهو الذي ترقي طبقا عن طبق. فالناس أمام الله سواء، والفارق هو صرف الاختيار الى جانب الإقبال أو الإدبار. أعاذنا الله من الفساد وهدانا سبيل الرشاد.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (45) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يوم منصوب بمضمر، أي أذكر لهم أو أنذرهم يوم نحشرهم ونجمعهم لموقف الحساب وجملة ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في موقع الحال من مفعول يحشرهم. يعني وأنذرهم يوم يحشرهم الله تعالى للميزان والحساب وأخذ الثواب ونيل العقاب، حالكونهم متأسفين من عدم انتفاعهم بالحياة السابقة، أو قلتها وعدم الاعتبار بها بالنسبة الى عالم الآخرة الأبدية كأنهم لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ أي مقدارا قليلا منه ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضا بالذوات والأحوال والاوضاع التي جرت بينهم. ومعناه أنه ليس ذلك الوقت وقت الغفلة والجهل بما مضى، أو ليس وقتا وهميا يدركونه بلا شعور بالحقائق، بل يعلمون أنهم هم الناس السابقون الذين جرى عليهم ما جرى في الدنيا من الطاعة والمعصية، وفي تلك الساعة ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ ولم يؤمنوا به فلم يطيعوا رسوله ولم يخضعوا لاحكام كتابه المنزل ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ الى الصراط المستقيم. فهذا حالهم في الآخرة. وأما في الدنيا ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من الدمار والهلاك كما أريناك عذابهم يوم بدر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك وان لم تبصر ما يأتي عليهم في الدنيا وتوفيناك قبل ذلك فلا تظن أنهم يخلصون من العذاب ﴿فـَ﴾ إنهم ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الاعمال السيئة ولا شك أنه يجزيهم عليها.

ثم أتى بمجمل ما يجري يوم القيامة وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ يوم القيامة ﴿رَسُولٌ﴾ تدعى باسمه ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ ووقف بين يدي الله ليشهد على أعمالهم ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي يقول الكافرون: متى وفي أي زمان يتحقق هذا العذاب الموعود به في الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الأخبار بوقوعه وروده علينا ﴿قُلْ﴾ في جوابهم ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا﴾ بإنزال العذاب الموعود ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ بدفعه عنكم ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المكذِّبين ﴿أَجَلٌ﴾ وقتٌ معين لحلول العذاب عليهم ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقرّر ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيل إذا جاء أجل العذاب فطلب تأخيره معقول دون طلب تقدمه فما وجه قوله ولا يستقدمون؟

وأجيب بأجوبة:

الأول: إن صيغتي الاستفعال بمعنى صيغة التفعل، فالمعنى لا يتقدم أجلهم ولا يتأخر.

الثاني: إنّ ربط الجواب بالشرط مؤخر عن اعتبار العطف أي إنه إذا جاء أجلهم فلا مجال للتأخر والتقدم، وكلاهما مستحيل.

الثالث: إنّ جملة لا يستقدمون عطف على جملة الشرط، أي إنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرونه كما أنه لا يتقدم الأجل على الزمان الموعود المقرر له.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا﴾ أي وقت بيات أي في الليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ عند اشتغالكم بأمور المعيشة ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي أيّ نوع من العذابين يستعجل المجرمون: عذاب الليل أو عذاب النهار؟ أي فالكل مكروه فماذا يريد المجرمون؟ معناه إنّ العذاب الموعود سيتحقق بلا شبهة إما في الليل أو في النهار وكل منهما مكروه لا ينبغي الاستعجال له، والواقع إن الكافر ينكر ورود العذاب، فلا يتحقق في زعمه واستعجاله مبني على الاستنكار لوجوده. والباري تعالى يَرُدّ عليه ويقول: إنّ ورود العذاب عليهم محقق لا شبهة فيه فلا وجه لاستعجاله والسؤالِ عن زمان وروده ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أي أإذا وقع العذاب عليكم آمنتم به؟ ﴿آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أتؤمنون به الآن، أي بعد أن خَرج من القوة إلى الفعل ومِنَ العدم إلى الوجود فما هي فائدة هذا الايمان والحال انكم قد كنتم به تستعجلون استهزاء واستنكارا وإنكاراً لوروده؟ ! والكلام على ما قيل مسوق من جهته تعالى.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بعد ورود العذاب عليهم في الدنيا بلسان الملك الموكل به، أو في الآخرة على لسان المأمورين به: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي تعذبوا بعذاب مؤبد خالد وارد عليكم جزاء وفاقا لما صدر عنكم، ولا مجال للتعجب من ذلك العذاب الخالد ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من

الكفر والجحود والعناد إزاء رب العباد ورسوله الآتي بالرشاد والإرشاد ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي يستخبرونك ويسألونك أحَقٌّ ذلك العذاب الموعود؟ ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي: ﴿إِي وَرَبِّي﴾ نعم قسماً بربي ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي بفائتين العذاب وإنه وارد بكم حقا ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولو أنها ملكت جميع ما في الأرض ﴿لَافْتَدَتْ﴾ به عن نفسها للتخلص من العذاب ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ عما صدر عنهم ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ولكن لا ينفع الندم إذ ذاك ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي وحكم بينهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ عندما يحكم عليهم بالعذاب.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)﴾

قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه تذكير وإرشاد إلى الإيمان بالباري سبحانه وتعالى، وبوجوب وجوده ووحدته من جهة الاستدلال بالآثار على وجود المؤثر وبإتقانها على علمه وباستمرار نظامها على وحدته. فيقول: أيها الناس انتبهوا إن ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى خلقا وإيجادا وإبداعا كل ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الجماد والنبات والحيوان، فوجودها الممكن المحتاج الى المرجح يدل على وجوده تعالى، وإتقان صنعها يدل على علم الباري وقدرته، ونظامها المستمر يدل على وحدته تعالى، وكما أن وجوده بصفاته الكمالية حق كذلك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بفناء العالم

وموت الأحياء ثم بعثهم وحسابهم، وميزان أعمالهم ﴿حَقٌّ﴾ وكل ذلك مما يرشد إليه الرسول الكريم فهو حق أيضا وتبليغه حق، والإيمان بما يبلغه حق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق الثابتة لتماديهم في الغفلة وقلة تفكرهم في العواقب ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو الذي يفعل الإحياء والإماتة في الدنيا، لأن كل عاقل بصير يعلم أن الوجود وفيضه على الممكن من آثار واجب الوجود دلالة من الأثر على المؤثر الغني عما عداه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وكما أنه هو الذي يحيي ويميت فهو الذي يبعث الأموات لإيصال جزاء العاملين إليهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر. وهذه شيمة أعدل العادلين.

ثم يرغب الناس في الاستفادة من ينبوع القرآن ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآية الكريمة من الآيات المهمة الدالة على درجات القرآن الكريم من حيث إفادته للعقلاء ما يوجب سعادة الدارين بوجوه:

الأول: إنه موعظة وتنوير وتذكير بوجه لَيّن مُليّنٍ للقلوب يوجههم إلى الخير، فيرشدهم إلى الاعتدال في كل الأمور المادية والمعنوية، يرشدهم إلى اكتساب العلم والمعارف لتحصيل المعيشة من الوجه الحلال، وصرفه في ما ينفعه في الحال والمآل، وإلى صرف بعض الأوقات في طاعة خالق الأرضِ والسماء الذي أنعم عليهم بما لا يُعَد ولا يحصى. وذلك شكراً للنعمة وجلباً لمزيدها مع الرحمة، وإلى أنّ جزاء الاعمال الحسنة جزاءٌ مؤبد خالد لا نهاية له، فإن الإنسان، وإن كان حادثا يفنى ومركبا يَبْلى، لكن هذه العوارض مختصة بالدنيا، وأما في الآخرة فالإنسان في نشأة ثانية أبدية ومخلوق في بنية قوية وإدراك شامل وإحساس كامل وروحانية سالمة صافية خالدة أبدية... وهذه الموعظة الوافية الكافية ﴿جَاءَتْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ العليم العظيم.

الوجه الثاني: إن القرآن قرآن وشفاء لما في الصدور من أكدار الجهل والغباوة، ومن أقذار العناد والشقاوة، فإن القرآن حاور على علوم الأولين والآخرين، فمن تعلمه وعمل بما فيه انشرح صدره بعلوم كثيرة وفوائد وفيرة، ومن تنور بأنوار معانيه ومقاصده شُفِي من مرض الكفر والإلحاد والعداوة والعناد، وتوجه بروحه إلى رب العباد، وبقي صحيحاً سالماً إلى يوم الميعاد، وهناك لا يكون فساد وخلل من العرض والمرض.

الوجه الثالث: إن القرآن هَدْيٌ وهِداية وعَوْنٌ وعناية على مستويات معلومةٍ عند أصحاب الدراية فإن فيه هدى إلى بيان العقائد والأحكام الإسلامية، ومن أخذها على وجه السلامة اهتدى إلى مستوى المسلمين الرابحين، ومن استفاد من الإخلاص في تطبيقها بالإذعان بها ورعاية الأدب والخشوع والخصوصية فيها تَرَقَى إلى مستوى الأولياء والصالحين، ومن اعتنى به زائدا على هذه الدرجة وصل إلى مستوى الصديقين، وأي هدي وأي رحمة وفضل أحلى وأعلى من الوصول إلى تلك المستويات الرفيعة والمقامات العالية؟ وكل المؤمنين مشتركون في هذه الهبات الوافرة على حسب درجاتهم في العلم والعمل والإخلاص، ومن حيث عناية الله تعالى بهم، ولذلك ختم الآية الكريمة بقوله للمؤمنين.

﴿قُلْ﴾ يا رسولي للناس ليفرحوا: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ وليغتنموا ما في القرآن الذي أنزل موعظة وشفاء وهدى ورحمة من الفضل ومن النور المشتعل في القلوب بتلاوته وحفظه ورعايته والعمل بآدابه ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ لا بغيره من الشهوات النفسية والملذات الحيوانية، ومطامع النفس الدنية ﴿هُوَ﴾ أي المذكور من فوائد القرآن الكريم ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي يجمعونه من الأموال والأنعام والحرث ونحوها، فإنها سائرة الى الفناء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60)﴾

قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي قل يا حبيبي أخبروني ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من مقام المنعم الرفيع القدر إلى مستوى العباد النازلين ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾ لكم من المأكولات والمشروبات والملبوسات والمسكونات وسائِر ما تَمتعْتُم به ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ بهوى النفس لا بهدى القدس ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في تبعيضه وتقسيمه إلى الحرام والحلال فقسمتموه كذلك ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ والجواب الصحيح أنهم افتروا على الله الكريم في ذلك.

وحاصل الآية الشريفة أمره برسوله عليه السلام أن يستنكر تصرفاتهم الهوائية في نعمة الباري تعالى وتقسيمه إلى الحلال والحرام والاعتراف بأن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله، ورجوعهم إلى الإيمان به تعالى في سائر التصرفات والشؤون بدليل تهديدهم على ذلك بقوله الكريم ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي ما هو ظنهم بجزائهم وعذابهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هل يظنون أن لا عذاب عليهم في ذلك اليوم وهو ظن مخالف لسنة الله في عباده أو أنهم يعذبون وهذا هو الحق الواقع فلم لا ينتهون عن إجرامهم وآثامهم؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في تأجيل عذابهم إلى ذلك اليوم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآَنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية.. نزل تطمينا لخاطر الرسول وتنويراً لقلبه الشريف بأن الله تعالى يراقبه في حالاته كلها، فهو تحت الرعاية والعناية فيقول تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أنت يا حبيبي ورسولي ﴿فِي شَأْنٍ﴾ من الشؤون التي يُعتنى بها ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ﴾ أي من ذلك الشأن ﴿مِنْ قُرْآَنٍ﴾ وحاصله وأي شأن من شئونك يتلى وذلك هو القرآن. فالضمير المجرور راجع إلى الشأن و﴿مِنْ قُرْآَنٍ﴾ بيان لذلك الشّأن المتلو ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أيا كان ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رقباء مطلعين حافظين ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تشرعون فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي في الجهتين العالية والسافلة. والمراد بهما دائرة الوجود ﴿وَلَا أَصْغَرَ﴾ من ذلك أي من مثقال ذرة ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ أي منه ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي واضح عند صاحبه وهو علم الله الأزلي أو اللوح المحفوظ. ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ جمع ولي وهو القريب والمحب والنصير ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات مطلوب. واستشكل بورود نصوص تدل على وجود الخوف والحزن للرسل الكرام الذين هم أكبر الأولياء كقوله تعالى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ وقوله

حكاية عن يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ وأجيب عنه بأنه ليس المراد بالخوف والحزن المنفيين الخوف والحزن الغريزيان اللذان يلزمان العقلاء، ولا الخوف من الله تعالى الذي يلزم كل عبد صالح، ولا الحزن من القصور في حق عبادته، وإنما المراد أن أولياء الله تعالى محفوظون بفضل الله وعونه من الآثام والذنوب التي توجب الخوف يوم القيامة، ومن القصور في أداء الواجبات وترك المحرمات التي توجب الحزن عليها. فهم في يوم القيامة يغشيهم الأمن والفرحُ من بشرى الملائكة لهم كما أن الناس الغافلين يغشيهم الخوف والحزن من مباشرة الآثام والمعاصي، فهم على مقابلة لهم ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وعلى هذا يكون نفي الخوف والحزن عن الأولياء بالنسبة إلى يوم القيامة فقط لا في الدنيا أيضا لأنهم بشر كسائر الناس.

وقد يقال: إن لأولياء الله تعالى حالتين حالة اعتيادية ناشئة من ملاحظة الأسباب والمسببات حسب جريان سنة الله تعالى، وحالة ربانية أي ذات علاقة بالاستغراق في مراقبة الباري جلّ جلاله. فهم في هذه الحالة في الدنيا لا يأتيهم الخوف ولا الحزن من أية جهة من الجهات، لأن القلب المشغول به تعالى كالعضو المخدر لا يبقى فيه الإحساس بالآلام، ويتبعون الرضا بجريان القضاء، وفيهم حالة نفسية وقوة إيمانية مانعة من ورود الخوف والحزن عليهم من هذه الجهة لرضائهم المطلق بما يجري به القضاء.

والأولياء في الآية الشريفة هم ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بجميع ما جاء من عند الله تعالى مما علم من الدين بالضرورة والبداهة لا مما اختلف فيه بين كونه من الدين أولا ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ عما يجب الاتقاء منه من الكفر بأنواعه والكبائر بأنواعها وسائر ما يبعدهم عن الله تعالى، وهو المراد في قوله تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ﴾ أما في

الحياة الدنيا فبِطرق كثيرة منها: الرؤيا الصالحة التي يراها وتوجب رفع الكدر عن قلبه، أو دفع البلايا والأذى وما يوجب ابتلاءه به. ومنها تيسير أموره وحل مشاكله بسبب الناس المتعاونين معه ولذلك وجوه كثيرة. ومنها إلهامه ببعض الحلول التي ليس مما يعرفه بذاته. ومنها إهلاك أعدائهم بدون مباشرتهم لأسباب إهلاكهم. ومنها تحويل قلوب الأعداء من السخط إلى الرضا ومن القهر والعناد الى اللطف والمحبة. ومنها انشراح صدورهم بلطف من الله بحيث تحصل لهم حالة عالية غالبة على مشاعرهم حتى ينمحي عندها كل ما في قلوبهم من الفزع والقلق. ومنها تهافت الأرواح الصالحة أو الملائكة عليهم عند احتضارهم. ويدل على ذلك ما يخبرون به في ذلك الوقت من مجيئ الناس الصلحاء إليه، أو نطقهم بعض آيات أو أبيات أو كلمات مبشرة بحيث يعلم الحاضرون أنه مبشر بها. وأما في الآخرة فبحشره مع الأخيار الأبرار، وببشارة الملائكة له، وبانقضاء دور الموقف وأتعابه عليه بسهولة وبشرف لقاء الباري تعالى سبحانه وتعالى، وبشفاعة سيد الأنام له برفع درجاته وبسائر وجوه الخير الموجبة لرضاه واستبشاره في دار القرار.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ من أقواله الواردة في البشارات للأولياء والصالحين بوجود البشرى لهم في الدنيا والآخرة، ومنها سائر وعوده بالخير لدرجات المؤمنين، ومنها كلماته المقررة لثواب أهل الجنة وعذاب أهل النار، ومنها إعلان قبول التوبة ممن تاب إليه ﴿ذَلِكَ﴾ النيل بالبشرى في الدارين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بالخيرات من الله الكريم ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي قول أعدائك وأعداء دينك في إنكار رسالتك والتقول على الكتاب المنزل عليك ونسبة العزة إلى أنفسهم ونسبة غيرها إليك وإلى أمتك ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ بكل أقسامها وطرقها في الدنيا والآخرة من كان يريد العزة فلله العزة

جميعا. وقد أخبر الله تعالى بحصرها فيمن يستحقها بقوله ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. وقد حقق الله عزتك بتخليد دينك ونشره في ربوع العالم ومهابة أهله ماداموا يمشون على منهجه القويم. ونسأل الله أن يجعلنا من أمته الأعزة في الدنيا والآخرة آمين. ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم و﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم وأفعالهم، وسيجزيهم يوم الدين.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يُنبه ويبين أن الله سبحانه وتعالى مالِك رِقاب العقلاء مِن الجن والإنس، فكيف بالحيوان والنبات والجماد المخلوق لانتفاعهم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني وما يتبع الذين اتخذوا شركاء لله طريقاً مستوياً مبنيا على اليقين المطلوب في الاعتقاديات ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وليس الظن المتبع لهم ظناً مبنيا على أدلة فيها قدر وقيمة، بل هو ظن موروث من التقليد

الباطل المبنيّ على العادة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يَحْزرون ويُقَدرون أنهم شُرَكاء بدون دليل مبين ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يعني إن الله تعالى الذي يكلفنا توحيده هو القادر الذي جعل لكم الليل زماناً مستورا هادئا لتسكنوا فيه بأمانٍ وَرَحمة، وجَعلَ لكم النهار مبصرا أي ذا إبصار لكم فيه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الجعل والتصرف وإظهار القدرة القاهرة ﴿لَآَيَاتٍ﴾ وبراهين ساطعة على وجوب وجودِه وتوحيدِه واتصافه بسائر صفات الكمال ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الأدلَّةَ القاطعة والبراهين الساطعة. وأما من لا يسمعها فلا ينفعه ما في الكائنات من الآيات البينات قطعا.

﴿وَ﴾ إنما يتبعون بعض العقائد الزائغة الضائعة المأخوذة من أهل الهوى ومن جملة عقائدهم هذه أنهم ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ لقولهم أن الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتعالى عن تلك النسب الفاسدة فإنه ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ المستغني عن جميع الكائناتِ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي حجةٍ دامغة ﴿بِهَذَا﴾ القول المذكور الباطل ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المختلقات الكاذبة. ﴿قُلْ﴾ لَهُم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فينسبون إليه الولدَ والشريكَ ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ من عذاب الآخرة ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي تلك الأكاذيب متاع نفساني حقير في الدنيا ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآَيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73)﴾

قوله ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ يعني واتل على المشركين من أهل مكة وغيرهم نبأ نوح ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي إن كان يثقل ويشق عليكم شخصي وإقامتي بينكم وتذكيري إياكم وإرشادي لكم بتلاوة آيات الله عليكم لتسمعوها مني ولتؤمنوا بها وتأخذوا طريقكم المستقيم في التوحيد ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي فلا اعتماد لي على أحد إلّا على الله، لأنه هو الذي يعين الضعفاء وينجي من لا قوة له من قهر الأعداء ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي فاعزموا مع شركائكم على أمركم في مقابلتي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا يكن أمركم ومقصودكم مستوراً غير مكشوف عليكم أي فليكن عزمكم على عداوتي ومخاصمتي علنية ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي ثم أتوا عليّ ولا تمهلوني. فإن قَتلتموني فَقَد خلصتم مني، وإن رجعتم عن عدائي وآمنتم فلله الحمد والمنة، وإن بقيتم على ما أنتم عليه وتركتموني فما خسرتم في الدنيا ولا خسرت أنا. أما أنتم فما خسرتم شيئا لأنه ما سالتكم مقابل تذكيري وإرشادي لكم من أجر أطالبكم به حتى تقعوا في المدافعة ومحاولة الخلاص وتخسروا هنالك شيئا، وأما أني فما خسرت شيئا فلأني عبد مطيع لله، وأمرت أن أكون من المسلمين المنقادين له تعالى، والواجب عليّ التبليغ

وقد بلغتُ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي فاستمروا على تكذيبه كما كانوا عليه، فحقت عليهم كلمة العذاب، فأمرنا السماء بالإمطار والأرض بالانفجار، وحصل الطوفان، وطغى الماء على البسيطة، فأمرنا نوحا أن يدخل هو وأتباعه الفلك المصنوع لهذا اليوم، فدخلوا ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي نوحا ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ وكانوا في المشهور أربعين رجلا وأربعين امرأة، وقيل دون ذلك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ عمن هلك بالغرق بسبب الطوفان ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا﴾ وهم المتمردون من قوم نوح ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74)﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ يعني أنه بعد أن أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم زمنا طويلا، وأرشدهم إلى الصراط المستقيم، وهم عاندوا واستكبروا وكذبوا وكفروا حتى أغرقتهم بالطوفان..

بعثنا رسلا آخرين إلى أقوامهم، وذلك بعث سيدنا هود إلى عاد، وبعث صالح إلى ثمود، وغيرهما من الرسل كل إلى قومه، ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي أي فجاء أولئك الرسل الكرام إلى تلك الأقوام بالمعجزات القاهرة، والأدلة الواضحة المتوافرة، لإثبات رسالتهم من الله تعالى ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني فما كان أولئك الأقوام ليؤمنوا بالحكم الإلهي الذي كذبوا به من قبل مجيء تلك الرسل إليهم، وذلك لأن تلك الأقوام لما سمعوا أخبار الرسل السابقين وقصص هلاك الأمم التي أرسلوا إليها لم يؤمنوا برسالتهم، وحملوا هلاك أقوامهم على الكوارث الاعتيادية من البركان والعواصف وغيرها... ولما جاءت الرسل إليهم استمروا على ما

كانوا عليه من التكذيب. وعلى ذلك فضمائر الأفعال الثلاثة راجعة الى الاقوام المرسل اليهم، أي كما أن الأمم السابقة عليهم لم يؤمنوا بهم كذلك اللاحقة. والباء في قوله تعالى ﴿بِمَا كَذَّبُوا﴾ للصلة هذا، ويحتمل أن يكون سببية، أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاء به إليهم الرسل بسبب عناد راسخ في قلوبهم من تكذيبهم بالرسل سابقا ولاحقا.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ الطبع ﴿نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ يعني أن مثل هذا الطبع الذي طبعنا على قلوب أولئك الأقوام الضالين بسبب شدة شكيمتهم وعتوهم وعنادهم مع الحق نطبع على قلوب الكافرين المعتدين على الرسل بالتكذيب، وعلى الله بعبادة غيره، فمن اعتدى على الله ورسوله طبعنا على قلبه ومنعناه من وصول الحق إليه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآَيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77)﴾

قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي أرسلنا من بعد نوح عليه السلام رسلا كراما الى قومهم منهم مَن قصصنا عليك كهود أرسل الى قوم عاد، ثم صالح أرسل الى قوم ثمود. ومنهم من لم نقصص عليك فإن الرسل بين نوح وإبراهيم كانوا كثيرين. ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات الواضحة الدالة على رسالتهم، أو بالمعجزات كذلك ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي فاستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد أولئك الرسل عليهم السلام، من هود

وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من بني إسرائيل وغيرهم ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أي أشراف خواصه الباغين الذين كانوا يجتمعون على رأى من الآراء الدائرة في البين فملأوا أعين الناس رهبة وهيبة ﴿بِآَيَاتِنَا﴾ المعجزات القاهرات للأعمال المدهشة الأخرى كعصا موسى، ويده البيضاء، وغيرهما ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانصياع لرسالتهما ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ شأنهم البغي على الحق والعناد لأهله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي المعجز الحق الثابت في الواقع المنزل من عندنا من المعجزات ﴿قَالُوا﴾ في تبرير موقفهم العنادي الاستكباري ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الأمر الذي أظهره موسى لكسر شوكتنا ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ واضح كونه سحرا.

﴿قَالَ مُوسَى﴾ عليه السلام في الرد عليهم مستنكرا لمقالتهم الباطلة: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ المنزل من الله تعالى لما جاءكم ﴿أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ وإنا الحمد لله من المفلحين، فلست بساحر، وليس عملي سحرا قطعا.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82) فَمَا آَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86)﴾

قوله تعالى ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ يعني قال فرعون وملأه لموسى عليه السلام حين قال لهم ما قال: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا موسى ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ أي لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الآداب والتقاليد ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي لك ولأخيك هرون الكبرياء أي الملك العظيم في الأرض؟ أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أبدا ولا نصدقكما فيما جئتما به ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لما استقر رأيه ورأى أتباعه على أن ما جاء به موسى هو السحر ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ حاذق في معرفة السحر ليغلبوا على موسى فيه ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ وحضروا في الساعة المقررة للمبارزة ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي تقدموا بإلقاء ما تريدونه من أعمالكم ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما ألقوه من الحبال وغيرها ﴿قَالَ مُوسَى﴾ عليه السلام: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ لا غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿سَيُبْطِلُهُ﴾ لأن سنة الله جرت بإعلاء كلمة المرسلين وتنزيل كلمات المبطلين، لأنهم مفسدون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ سواء كان من الواقعيات أو الأوهام والخياليات ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ أي يؤيده وينصره ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي بأوامره النافذة ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

﴿فَمَا آَمَنَ لِمُوسَى﴾ عليه السلام مع انتصاره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ إلا جمع قليل من بني إسرائيل من الذين كانت قلوبهم مشتعلة بنور الحق

والتضحية لله وذلك ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الضمير راجع إلى فرعون وملأه، أي وكان إيمانهم مع خوف من فرعون وأركان دولته العُصاة القساة ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ مربوط بالخوف، أي على خوف من أن يفتنهم فرعون. وإفراد الضمير هنا لأنه المبدأ للسيئات، وجمعه في ما تقدم نظرا له وللمباشرين من أعوانه ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ مستكبر طاغ باغ ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين في البغي والعناد وتعذيب العباد، لأن قسوة قلبه أضاعت خلقه وأدبه ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لقومه بعد أن علم ببوادر سيئات اتباع فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ وعليه اعتمدوا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ مطيعين لله رب العالمين ﴿فَقَالُوا﴾ له عليه السلام مجيبين مستجيبين ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي محل بلاء ومحنة وفتنة ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي فرعون وأعوانه المفسدين الطاغين ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ المعاندين المعهودين وغيرهم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَ﴾ الآية... كلمة ﴿أَنْ﴾ إما مصدرية، أو تفسيرية بمعنى أي، لأن الجملة السابقة فيها معنى القول لا لفظه و﴿تَبَوَّآَ﴾ قيل إنه يتعدى إلى مفعول واحد، يقال تبوأ القوم بيوتا، فإذا دخلت اللام على الفاعل فقيل تبوأت للقوم بيوتا تعدى إلى ما كان فاعلا باللام، فيتعدى لأثنين كما هنا. وقال أبو علي: هو متعد الى اثنين بنفسه واللام زائدة. فقوله تعالى ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ أحد المفعولين ﴿بُيُوتًا﴾ هو المفعول الأخير. أي اتخذا بيوتا لقومكما مباءة ومرجعا ومنزلا. وقيل هو

متعد لمفعول واحد ولقومكما متعلق بمحذوف وقع حالا من البيوت. وقوله ﴿وَاجْعَلُوا﴾ أي أنتما وقومكما. ففيه تغليب للمخاطب على الغائب وقوله ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ أي البيوت المتخذة ﴿قِبْلَةً﴾ أي منازل يصلى فيها. أو مساجد للصلاة خاصة. فقوله قبلة على الأول مجاز عن المصلى، أي اجعلوا منازلكم هذه مُصَلّيات لكم. وعلى الثاني مجاز عن المساجد لأنها فيها جهة القبلة. أي اجعلوا بيوتكم المتخذة للصلاة مساجد متوجهة للقبلة. أي ابنوها على اتجاه القبلة. والمراد بالقبلة هذه الكعبة فإن موسى عليه السلام كان يصلي إليها.

وفي روح المعاني: واعترض القول بحمل القبلة على المساجد المتوجهة إلى الكعبة بأن المنصوص عليه في الحديث الشريف الصحيح أن اليهود تستقبل الصخرة، والنصارى مطلع الشمس، ولم يشتهر أن موسى عليه السلام كان يستقبل الكعبة في صلاته فالقول به غريب. وأغرب منه ما قاله العلائي من أن الأنبياء عليهم السلام كانت قبلتهم كلهم الكعبة.

قيل: وجعل البيوت مصلى ينافيه ما في الحديث ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) من أن الأمم السابقة كانوا لا يصلون إلا في كنائسهم. وأجيب عن هذا بأن محله إذا لم يضطروا، فإذا اضطروا جازت لهم الصلاة في بيوتهم كما رخص لنا صلاة الخوف. فإن فرعون لعنه الله تعالى خرب مساجدهم ومنعهم من الصلاة، فأوحى الله إليهم: أن صلوا في بيوتكم كما روي عن ابن عباس وابن جبير. وقد يقال إنه لا منافاة أصلا بناء على أن المراد تعيين البيوت للصلاة وعدم صحة الصلاة في غيرها، فيكون حكمها إذ ذاك حكم الكنائس اليوم، وما هو من الخصائص صحة الصلاة في أي مكان من الأرض، وعدم تعين موضع منها لذلك. إنتهى.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فيها. قيل: أمروا بذلك في أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بحصول مقصودهم أي النصر المبين.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا﴾ الآية... يعني إن موسى عليه السلام لما رأى بوادر فتنة بني إسرائيل من فرعون وملأه أخذ يدعو عليهم، وقال: ربنا ﴿إِنَّكَ آَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ أي أركان دولته ﴿زِينَةً﴾ مما يتزين به الناس في مرأى غيرهم من: اللباس، والحلى، والنساء، والأسلحة الخفيفة المحمولة، والمراكب العالية الغالية، والقصور والحدائق... إلى غير ذلك ﴿وَ﴾ آتيتهم ﴿أَمْوَالًا﴾ كثيرة من النقود والمزارع والمستغلات في الحياة الدنيا

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ واللام إما لام الأمر والأمر للدعاء والفعل مجزوم، أو لام العاقبة والصيرورة والفعل منصوب. ومعرفة عاقبتهم كانت بالوحي، أو لام التعليل. ومعناه إخبار موسى عليه السلام بأنه تعالى إنما زوّدهم بالزينة والأموال الكثيرة استدراجا لهم ليزدادوا إثما وضلالاً كقوله تعالى إنما نملي لهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلكها فإن الطمس هو الإهلاك أي أمْحِها من الأساس بالإبادةِ أو أخرجها عن أن ينتفعوا بها بحيث تجعل تناولها وأكلها وشربها ولبسها أسباب أمراض وأتعاب ودمار ونغص في العيش، وتعب في الحياة حتى لا يستفيدوا منها لأنفسهم، فضلا عن جعلها وسائل للسيطرة على المستضعفين وإبادتهم ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجعلها

مشدودة مسدودة قاسية عاصية لا تتفتح لدخول روح الرحمة فيها حتى لا تنشرح للايمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ويعاينوه بحيث لا ينفعهم الإيمان

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى في جواب هذا الدعاء الناشئ من موسى وهارون المحكي بلسان الأول منهما لتقدمه: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ وإنى قضيتُ بإبادة فرعون وجنوده وغرقهم في الماء ثم عرضهم على النار غدوا وعشيا إلى قيام الساعة وإدخالهم في أشد العذاب في الآخرة خالدين، وقضيت بحرمانهم من أموالهم وزينتهم وحدائقهم وشوكتهم إلى يوم يبعثون ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ واثبتا على ما أنتم عليه من الدعوة وإلزام الحجة والصّبر على ما تلقونه من سواد الناس ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سنة الله في العالمين بإمهال الظالمين إلى وقت معلوم ثم الانتقام منهم أشد الانتقام كما آذوا الرسل وأتباعهم الكرام۔

فإن قيل: كيف ساغ لسيدنا موسى عليه السلام الدعاء على فرعون وأتباعه بالكفر المستلزم لاستحبابه والرضا به والمشهور أن الرضا بالكفر كفر؟ أجيب بأن المطلوب منه عليه السلام بدعائه قضاء الله تعالى وحكمه وتأثيره في قلوبهم بذلك، والرضاء بفعل الله تعالى وقضائه جائز بل واجب، فللكفر والمعاصي الكبائر والصغائر أيضا جهتان: جهة الإبداع والإيجاد والتأثير، والرضاء بذلك واجب على أهل الإيمان بلا شك وشبهة، وإنما المنهي المنفور المحرم الرضا بكفر الإنسان وارتكابه للذنوب من حيث إنه صفته وأثر ثابت عنده وهو واضح. فسيدنا موسى عليه السلام دعا عليهم بذلك وتأثير الله تعالى فيهم لينتقم منهم جزاءً لما ارتكبوه من دعوى الربوبية والألوهية والطغيان والبغي والاستكبار وذبح الأولاد الصغار

وسائر ما ارتكبوه من الجرائم الشنعاء... وليس في ذلك إلا طلب الانتقام من الكفرة اللئام.

وقد يجاب بأن المذموم الدعاء بالكفر على من جهلت عاقبته، لا من علم موته على الكفر بالوحي وموسى علم ذلك بذلك.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آَيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ الآية... أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى أنه أجيبت دعوته ودعوة أخيه على فرعون وملاه وجاء وقت أخذ الانتقام منهم فاخرج ببني إسرائيل واعبر النيل، فأطاع الله سبحانه وتعالى، وأمر بني إسرائيل بالخروج من مصر ليلا، وكانوا ستمائة ألف نسمة فخرج بهم على حين غفلة من فرعون وجنوده، فلما أحس بذلك خرجوا إثرهم مسرعين فالتفت القوم، فإذا الأعداء الكفرة وراءهم، فقالوا: يا موسى هذا فرعون وجنوده وراءنا، وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص؟ ! فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه، فانفلق اثني عشر

فَلقاً كل فرق كالطود العظيم، وصار لكل سبطٍ طريقٌ، فسلكوا ووصل فرعون ومن معه إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر، ومسلكهم باق على حاله، فسلكه فرعون بمن معه أجمعين، فلما دخل آخرهم وهمّ أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم، وذلك قوله تعالى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي جعلناهم متجاوزين من النيل ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي للبغي والعدوان على بني إسرائيل حصولا أو تحصيلا للزائد على ما كان ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ﴾ أي فرعون ﴿الْغَرَقُ﴾ مع الغارقين ﴿قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين انقادوا لله وأسلموا نفوسهم له.

فقال الباري سبحانه إظهارا لما استنكروه من إيمان فرعونَ حال اليأس بعدما جرى منه ما جرى من دعوى الربوبية والبغي والعدوان على من خالفه، ولاسيما على بني إسرائيل قبل مجيء موسى وهرون عليهما السلام إليه وبعده، وعلى لسان الملك المأمور بذلك القول، أو على لسان موسى بعد إطلاعه على ما قاله بوحي من الله: ﴿آَلْآَنَ﴾ يعني أتؤمنُ الآنَ حين اليأس من كل معين، ونزول البأس عليكم أجمعين ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ بنفسك وبزبانيتك، ويتحمل كبير القوم كلَّ ما فعلوه ﴿وَكُنْتَ﴾ أنت وإياهم ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ في العالم بشتى جهات الإفساد في العباد؟ ! ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ يا فرعون ﴿بِبَدَنِكَ﴾ الهامد الهالك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ من الباقين بعد غرقك من معاصريك وَمَن يأتي في المستقبل ويطلع على أمرك ﴿آَيَةً﴾ وحجة قاطعة على أن الله تعالى ينصر الحق المبين ويقهر الباغين، وقادر على كل ما أراده بالعالمين ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ وهم الناسون لله تعالى وقدرته القاهرة الباهرة ﴿لَغَافِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، وكذلك الإنسان على مَر الأيام والأزمان.

يروى أنه بعدما أغرق الله فرعون ومن معه ونجا موسى وأتباعه قال بعض الغلاة الضالين: إن فرعون لم يغرق وذهب إلى رب السماء للتفاهم معه في قضية بني إسرائيل. فأظهر الله بدن فرعون وجعله على شاطئ النيل، فوجده الأقباط وعرفوه وأخذوه وحنطوه على ما هو المرسوم لملوك الأقباط فبقي بدنه إلى يومنا هذا. فصار آيَةً لمن رآه في ذلك الزمان أو بعده، على أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم أخذ الباري تعالى يستأنف لبيان إفاضة نعمه الكثيرة على بني إسرائيل بعد إنجائهم من فرعون، فملكهم ما عاشوا فيه على تَرْفِيهٍ ويَقول: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي أنزلناهم بعد أن أنجيناهم مُبَوَّأً ومنزلا مرضيا يقال له المبوأ بالصدق ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي اللذائذ من اللحوم والشحوم والحلاوى وبقوا فيه متنعمين منفقين. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمور دينهم وكانوا متبعين أمر رسولهم عليه السلام ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بأمور دينهم أصلا وفرعا اعتقادا وعملا. أو لم يختلفوا في بعث محمد العربي صلى الله عليه وسلم على ما توارثوه من أسلافهم حتى جاءهم العلم ببعثه صلى الله عليه وسلم من بشارات التوراة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أحكام دينهم في تلك الأوان أو في بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسول آخر الزمان.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98)﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ الآية... الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل العرض والتقدير لأن تحقق الشك منه محال عادة، والمعنى إن كنت في تردد ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من قصص إهلاك فرعون وجنوده أو غير ذلك ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾ المنزل من الله تعالى من قبل بعثك فإن ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم، وكذلك نزول الأحكام الإلهية الأصلية أو الفرعية محققة عندهم ﴿لَقَدْ جَاءَكَ﴾ القول ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ العالم بالحقائق كلها ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين والمقصود إن الشك في آيات الله تعالى لا ينبغي تحققه من أي عاقل عالم مؤمن بذات الله تعالى وصفاته الكمالية التي من آثارها ما يمكن أن يوجد.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بشيء منها من الاعتقاديات أو العمليات أو قصص الماضين أو المستقبل مما هو آت ﴿فَتَكُونَ﴾ بالتكذيب ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ حآلا ومآلاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه لسوء ما يسوقه إليه نزعاته وهواؤه بل غوايته وهواه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبدا ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ تدل دلالة قطعية على وجود الباري وكرمه وجوده ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ بالإهلاك فلا ينفعهم الإيمان إذ ذاك.

وبيان ذلك: إن أفعال العباد بأسرها معلومة له تعالى ومرادة له، ولا يكون إلا ما أراده سبحانه وتعالى وتعلق به علمه، وهما متوافقان بالوجه

الواقع، ولكن الإرادة تابعة للعلم كما أن العلم تابع للحياة تبعية ذاتية. والعلم المتعلق بأفعال العباد يحكي صورة ما يتوجه إليه قصدُهم وعزمُهُم في ما لا يزال على حسب علمهم بما يَرونه مناسباً لهم، سواءٌ كانت طاعةً أو معصية، فكلما توجهت إليه إرادتهم خلقها الله لهم، ومعنى قوله تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إنهم لا يريدون إلّا ما أراده الله في الأزل إرادة تابعًة للعلم الحاكي لأفعالهم، وتوجهت قدرتهم بعد تعلق إرادتهم التابعة لعلمهم فلما كانت إرادة الله تابعة لعلمه وعلمه حاك للصورة اللايزالية ظهر أنّ أساس خلق الباري لها إرادتهم لها المعلومة للباري أزلا والمرادة له بالوجه المذكور، فليس معنى قوله تعالى وما تشاؤن إلا أن يشاء الله أن إرادة الله الأزلية موجبة ومقتضية وعلة لإرادته تعالى متبوعة لإرادتهم ومقدمة عليها تقدم الحاكي على المحكي وتقدم ظهور صورة المرآة على ذي الصورة، لأن إرادة الباري تعالى لشيء تابعة لعلمه به، وعلمه يحكيه كما يحصل من العبد في المستقبل، وذلك واضح لائح، والحمد لله رب العالمين.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكت هلاك الاستئصال آمنت قبل نزول العذاب فنفعها ذلك، وكان سببا لنجاتها منه. وعلى هذا يكون قوله ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطعا لعدم اندراجهم في الهالكين الذين لم يؤمنوا حتى حل بهم العذاب، لأن المروي أنه لما غاب سيدنا يونس عن القوم تذكروا وتابوا فكشف اللهُ عذابَ الدمار عنهم ولم ينزل عليهم. وأما إذا أريد من القرية القرية العاصية المستعدة للاستمرار في العصيان وعدم الإنابة والتوبة الى الله المنان فتكون كلمة ﴿لَوْلَا﴾ في معنى حرف النفي والاستثناء متصلا، والتقدير وما كانت قرية عاصية رجعت عن عصيانها وآمنت بربها فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس فإنهم تابوا عن العناد وآمنوا بالله وبرسوله

و ﴿لَمَّا آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ أي بعد كشف العذاب عنهم ﴿إِلَى حِينٍ﴾ مقرر عند الله تعالى.

وكان من قصة قوم يونس على ما روي من غير واحد ان يونس عليه السلام بعث الى أهل (نينوى) من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك، فدعاهم إلى الإيمانِ بالله وحده وتركِ ما يعبدون من الأصنام، فابَوا عليه وكذبوه، فَاخَبرهم أنّ العذاب مُصَبحهم الى ثلاث، فلما كانت الليلة الثالثة ذهب عنهم من جوف الليل، فلما اصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم ليس بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل..ـ وجاءَ أنه غامت السماء غيماً اسود هائلا يدخِنُ دخانا شديدا، فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت اسْطِحَتُهُم، فلما أيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه، فخرجوا إلى الصحراء بانفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المسوح وأظهروا الايمان والتوبة، وفرقوا بين الوالدة وولدها من الناس والدواب، فحنَّ البعض إلى البعض، وعَلَت الأصوات وتَضرَّعوا اليه تعالى وآمنوا واخلصوا النية، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءَهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب، وكان ذلك يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة. ولما خرج يونس ودخل السفينة وتوقفت ورموه في البحر وابتلعه الحوت ثم نجاه الباري.. رجع الى اهل نينوي فآمنوا به واكرموه، فعادت الراحة في الأمة جميعا وعاشت الامة خير عيش... وذلك معنى قوله تعالى ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ بيان وإعلان لدوران إيمان المكلفين كلهم على مشيئته سبحانه وتعالى وجودا وعدما، فمن شاء إيمانه آمن ومن لم يشأ إيمانه لم يؤمن، كما أن من شاء كفره كفر، ومن لم يشأ كفره لم يكفر، فلا يجري في ملكه إلا ما يشاء لكن مشيئته مبنية على علمه، وعلمه ناظر إلى ما له ثبوت فعلي ماضيا أو حالا أو مستقبلا، والثبوت الفعلي مبني على تحقق الحكمة فيه، وهذه الحكمة مقررة بالنسبة إلى آثار المكلفين في ما توجه إليه استعدادهم واختيارهم المرتب على علمهم حتى يتناسب فعل الخير للمثوبة الحسنى وفعل الشر للعقوبة، وإلا فلو أراد أن يجبر المكلفين كلهم على الإيمان لآمنوا، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ فإذا كان الأمر كذلك أي إن الله تعالى لم يشأ إيمان جميع المكلفين لعلمه بسوء صنيعهم واختيارهم ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بعد أن لم يتعلق مشيئته بإيمانهم ﴿وَ﴾ الحال إنه ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي ما صح لها ﴿أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بمشيئته وإرادته. والأصل في الإذن بالشيء الإعلام بإجادته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ويقرر الكفر ويحققه على قلوب الذين لا يعقلون الخير والسعادة لهم في الإيمان، بل يعقلونهما فيما يوافق الهوى والملاذ النفسية الفاسدة، فأولئك الناس ناس لا عقل لهم أساسا أي إن عيون قلوبهم عُمْيٌ

عن إبصار الخير وتمييزه عن الشر، أولهم العقول وإحساس الحواس وإدراك الحقائق لكن أهواءهم غلبت عليها حتى عاندت الحق الواضح الأبلج واختارت الطريق العوج الموجب لكل زلة وحرج.

وخلاصة الأمر: إنه ليس لك ولا لسائر الهداة في أمتك إلا تبليغ الآيات البينات والاستدلال بما في الأرض والسماوات، والجهد بقدر الإمكان في توجيه القلوب إلى طريق السعادة وسبيل العبادة، وما عليك إيمانهم وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿قُلِ﴾ يا رسولي الجليل لمن تنذره: ﴿انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من عجائب الآثار المكشوفة أو المكتشفة الدالة على أنها كائنات ممكنة الوجود وتحتاج في ترجيح وجودها على عدمها إلى واجب الوجود، ووجوب وجوده يدل على قدمه ووحدته وبقائه وعدم مماثلة الحوادث واستغنائه عما سواه واتصافه بجميع الكمالات الذاتية والفعلية بحيث لا تري نقصا وفتورا أمامه أو وراءه وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون. فإن اعتبروا بقولك البليغ ونظروا واستفادوا فلله الحمد على الإنعام ولك الأجر على إرشاد الأنام، وإن لم يعتبروا فأولئك هم الخاسرون.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآَيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ وما ترفع حجاب الغفلة ﴿عَنْ﴾ قلوب ﴿قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإن أصروا على الكفر والعناد ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل الوقائع التي وقعت والفظائع التي نزلت على الذين خلوا ومضوا من قبلهم، فإن انتظروا ذلك جهلا وعنادا ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾ ذلك ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ له فالانتظار واحد والمنتظر واحد، وجهة الانتظار متعددة، فإنكم تنتظرونه جهلا للدمار، وإنا ننتظره لتحقيق وعيده تعالى على الكفار الأشرار، فإذا نزل العذاب بساحتهم نهلك المستكبرين ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عطف على مقدر يدل عليه

قوله مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة إلى التهديد، كأنه قال نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا المرسلين إليهم ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بهم معهم وعبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورتها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك ليتصل به قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الآية... يعني ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لجميع الناس الذين في شك وتردد في دينك ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الذي أدين به وأعامل عليه وأدعو الناس إليه ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإني متيقن في أن دينكم باطل لا أساس له، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ولكني أعبد الله الذي يليق بالعبودية له، لأنه هو الذي خلقكم ورزقكم، وهو الذي يتوفيكم عند انقضاء أجلكم ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من الله تعالى ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي وأمرت بإقامة وجهي وتوجيهه

إلى تطبيق الدين الذي شرعه الله، حالكونى مائلا عن الباطل إلى الحق ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تكونن منهم بحال من الأحوال اعتقاداً وعملا ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ استقلالا ولا اشتراكا أي ولا تعبد ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إذا دَعَوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إذا تركته ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بتوجيه الطلب إلى ما لا يستحق ذلك.

ومما يجب أن يعلم أنه لا يندرج في ذلك طلب الإنسان من الرجل الصالح الدعاء له بدفع البلاء، أو رفعه أو بجلب خير ونعمة سواء كان الرجل حيا حياة اعتيادية أو ميتا، لأن أي طلب يتوجه إلى أي إنسان فإنه يتوجه إلى روحه، والروح باقية خالدة، ومن فرق بين روح الإنسان الحي المرزوق والميت فهو لم يعرف معنى الروح. ونسبة التأثير والإيجاد إلى الحي دون الميت كفر وخروج عن دين الإسلام إذ لا تأثير إيجادا وإبداعا لغير الله تعالى مطلقا ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وطلب الطالب ليس لتأثير المخاطب بل للدعاء وتوجه همته إلى المقصود ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من المرض أو الفقر أو الذل ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ وحده ولكنه قد يكون كشفه بتيسير الله أسبابه كوجدان الطبيب الحاذق للمرضى، والصديق الوفي للسعي في بعض أمور نافعة، وكبذل المال صدقة في سبيل الله أو غيرها ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ الذي أراده لك لأن تخلف المراد عن الإرادة محال ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي يصيب بذلك الخير من يشاء ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي بعد أن وفيت بواجب التبليغ وأتعبت نفسك في سبيل الله تعالى قل للناس المكلفين ﴿قَدْ جَاءَكُمُ﴾ الكتاب ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت المطابق للواقع من ربكم يرشدكم الى ما فيه سعادة الدارين علما وأخلاقا ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ إلى المتابعة بذلك القرآن ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ونفعه يعود إليها ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن الطريق ولم يأخذ بعمل التطبيق ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي على نفسه ومضرة الضلال تعود اليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ موكول إليّ أمركم ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ على سبيل الاستمرار ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ما ينوبك من المصائب ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بالنصر والغلبة لك عليهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يوجد الخطأ في حكمه.

وفي هذه الآية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد للمؤمنين ووعيد للكافرين. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرسول الأمين محمد وآله وصحبه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

سورة هود، مكية، وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4)﴾

قوله تعالى: ﴿الر﴾ اسم للسورة أو القرآن الكريم، أو إشارة إلى اسم من أسمائه تعالى، أو صفة من صفاته. وقيل: إنها من المتشابهات.

﴿كِتَابٌ﴾ خبر لها على تقدير ابتدائيتها، أو لمبتدأ محذوف، والتنوين للتعظيم ﴿أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ﴾ أي أنزلت آياته من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، ومنه إلى رسولنا محمد خاتم النبيين والمرسلين إنزالاً متقنا محفوظا منْ تطرقِ الخلل إليها من شياطين الإنس والجن، حتى استقرت في صدره المنشرح ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ وبُيّنت ما يحتاج منها إلى البيان، وجُعِلَت سُوراً مرتبة ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ ذي حكمة في أقواله وأفعاله ﴿خَبِيرٍ﴾ بمواضِعها بحيث لا يأتيها الباطل لفظاً ومعنىً ومَقاماً، وهكذا تبقى إلى أبد الآبدين.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ في موضع العلة للفعلين السابقين على تقدير اللام على أن المصدرية. أي أحكمت آياته وفصلت لتفهموها ولا تعبدوا إلا الله ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عما فرط منكم من القصور عن أداء حق عبادته ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وترجعوا إلى الله أدبا وإخلاصاً له تعالى، فإذا استغفرتموه وتبتم إليه ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ يرشدكم إلى التخلق بأخلاق حَسَنَة تَنبعث منها أعمالٌ حسنة تُوجبُ تمتعكم في الدارين متاعا حسنا، او يمتعكم متاعا مقرونا بنور في القلب يطمئن به ويرتبط بربه فيشكر على نعمته ويصبر على عذابه ونقمته، لأن المؤمن وإن كان غالبا في الأذى والتعب كما روي ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)). و((إن أشد الناس بلاءً الأمثل فالأمثل)). لكنه لما استقر في قلبه الإيمان بالجزاء يوم اللقاء يفرح بما آتاه كائنا ما كان. وذلك التمتع إلى أجل مسمى معلوم مقرر عند الله تعالى ﴿وَيُؤْتِ﴾ الباري تعالى بفضله ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ أي زيادة في العمل الصالح ﴿فَضْلَهُ﴾ أي جزاء فضله في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تتولوا أي تستمروا على العناد وترك سبيل الرشاد ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بمقتضى الرأفة بكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ الكبر ما يقع فيه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على جزاء اعمالكم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ استئناف لبيان جواب ما يقال: ماذا يعمل المشركون بَعْد إلقاء الرسول عليهم اَحْسَنَ الكتاب وفصل الخطاب؟ وحاصله إنهم لفرط جهالتهم ووفرة ضلالتهم

﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ ويتحولون بوجوههم عَن الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي يستتروا منه ويخفوا عنه ظنّاَ مِنهم أنّهِم إذا استخفوا منه عليه السلام يَستْخفون عن الملك العلام ﴿أَلَا﴾ أيها الغافل عن شمول علم الله تعالى للكليات والجزئيات ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ وغشوا وجوهَهُم بثيابهم ﴿يَعْلَمُ﴾ الله تعالى ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما دام حينَ الاستغشاء والاستخفاف يعلم أحوالهم فهو يعلمها حين الاستجلاء، لأن من يعلم فيه يعلم في غيره بالطريق الأولى ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بالخفايا المستترة فيها، فكيف بغيرها!

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ نص قاطع في أنه تعالى لم يزل عالما بكل ما يمكن أن يُعْلَم عِلْما مناسباً لذلك المعلوم، فهو يعلم الممتنعات بصورة أنها ممتنعة والممكناتِ المعدومة بصورة أنها ممكنات معدومة، والممكنات الموجودة بصورة أنها ممكنات موجودة، فالعلاقة التي بين الله وبين المعلومات ثابتة مستمرة أزلا وأبدا، وهي تعلق تقتضيها حقيقة العلم، وهو قديم لأن أشباح الموجودات وأمثالها معلومة بالذات فإن الله يعلم ذاته أزلاً ويعلم أنه علة فاعليةٌ لجميع الموجودات الممكنة ويكفي ذلك لعلمه بها مطلقا، ولا يلزم منه قدم المعلومات ذاتا وشخصا لأن تلك المعلومات صورٌ يكفي في علمه بها علمه بذاته الجليلة، وهناك تعلّق آخر لِلعلم بذات المَعلومات التي تحدث في المستقبل، وهذا التعلق أيضا مَوجودٌ عند حدوث كل موجود بقدرته تعالى عينا أو عرضاً أو أمراً اعتباريا كإمكان زيد وحدوثه، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض وما بينهما وما وراءهما وذلك على الله يسير.

الجزء الثاني عشر

<279>

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)﴾

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ والدّابة اسم لكل حيوان ذي روح ذَكَر أو أنثى، عاقِل أو غيره، تدبّ على البطن أو القوائم مطلقا واختصاصها بالفرس أو بذات القوائم الأربع عُرْفٌ طارئ. وإنما خص الدابة الأرضية بالذكر لأنها محط أنظار الناس الذين يهمهم الرزق أو أن المراد بالأرض المستقر أرضا كانت أو لا. ومعنى على الله التزامه له لا وجوبه عليه، لأنه لا يجب عليه ولا عنه شيء ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قالوا: المستقر موضع قرارها في الأصلاب، والمستودع موضعها في الأرحام وما يجري مجراها من البيض ونحوه. فالمستقر والمستودع اسما مكانٍ. ويجوز أن يكون المراد بالمستقر محل القرار الغالب كدار الوطن، وبالمستودع محل القرار الغير الثابت كمنازل المسافر والمستشفيات ونحوها.

﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي كل ما ذكرنا من الدوابّ وأرزاقها ومستقرها ومستودعها مثبت في كتاب واضح وهو اللّوح المحفوظ

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إظهاراً لقدرته في ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إعلانا لتدريجه حسب سنته لأنّ من كان قادرا على إخراج الصّور العلمية إلى الأعيان قادر على تصرفه وقوته وإمكان إيجاده لما يشاء وجوده باللحظات واللمحات، ولكن كان حكمه بالتدريج فيما مضى وما هو آت لِحكم لا يعلمها إلا أصحاب المواهب والبينات.

وتلك الأيام أيامٌ عند الله وإن يوماً عند ربك كألفِ سنة مما تعدون. فالمراد باليوم الوقت لا ما هو المتعارف عند الحكماء أي مقدار حركة الفلك الأعظم، أو ما هو عند العامة كمقدار دورة يومية، إذ لم يكن هنالك فلكٌ ولا حركة ومقدار ولا الدورة اليومية والليل والنهار.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ والمراد بكون عرشه على الماء اتصاله به وعدم وجود حائِلٍ بينهما، لا أنه كان موضوعا على سطح الماء، لأن كل موجود أمهات الموجودات له جاذبية خاصة يحفظ نفسهُ بنفسه، ولا يحتاج إلى الاعتماد على شيء آخر، ولا دَخل لشيء فيه سوى قدرة الباري سبحانه وتعالى ما دام لم يكن الموجودان مُمتزجَيْنِ كشيء واحِدٍ مثل الكرة الأرضية مع الماء. والمقصود هنا أن العرش والماء من أسبق المخلوقات، وإن كانا حادثين، فإن الأدلة القطعية والبراهين العقلية حاكمة بأنه لا قديم ذاتا وزمانا إلا الله تعالى وحده لا شريك له، ومن هنا يفسر العلماء الراسخون قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ بقولهم الرحمن على العرش استولى لبداهة بطلان استواء الباري على العرش بالمعنى المعروف، فإنه تعالى ليس بجسم ولا جسماني، وإلا لزمت الحاجة إلى غيره، ومُساواة المتمكن للمكان وتجزي المتمكن بقدر أجزاء مكانه واستغناء الباري عن المحل قبلَ خلق العرش وحاجته إليه بعده... وكل

ذلك مستحيل بقاطع الدليل، وإنما خلق السماوات والأرض وما فيهما ومنه البشر ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيجازيكم على حسبه.

﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي وَبَعَدَ أن بيَّنا أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأوجَد العالم العلوي والسفلي مع النظام البديع والشكل العجيب في مدة وجيزة، وبعد أن ذكرنا أن عرشه كان على الماء، وأن الغاية من خلقها وخلق البشر هو الابتلاء لكم في شؤونكم وأعمالكم ليجزيكم الجزاء الوافي، ومع أن هذا الوضع دليلٌ جلي قاطع على أن الله قادر على كل شيء ﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنْ قُلْتَ﴾ لهم ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ﴾ قبوركم ﴿بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ يوم المعاد والنشور ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وقدرته على التصرّف في الكائنات: ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا القول الذي أنت تقوله ﴿إِلَّا﴾ شبيه بالسحر الواضح. ووجه الشبه بينهما التأثير في قلوب العقلاء العارفين بأمور الدنيا حيث ينقادون لك، أو أنّ وجه الشبه بينهما هو البُطلانُ وعدمُ حصول أثر واقعي منه، ومقصودهم من كلامهم ذلك نفي البعث وإنكار الحشر.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (8) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)﴾

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ أي العذابَ المترتب على بعثهم يوم القيامة، أو العذاب المتوعد به لهم ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أي إلى زمان قليل في المستقبل ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي ليقولن من جهالتهم وضلالتهم أي شيء يمنع ذلك العذاب الموعود في الدنيا، أو لماذا لا يأتي بيوم العذاب حتى نرى ذلك العذاب؟ ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ذلك العذاب الدنيوي أو الأخروي ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ يعني إنه عذاب محتم جرى به القضاء ولا مجال لدفعه قبل الورود، ولا لرفعه بعده ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وورد ونزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزؤن به. وعند ذلك يعلمون أن العذاب حق وارد على سنة الله في عباده.

ثم استأنف الباري سبحانه وتعالى لبيان بعض أحوال أخرى للناس من ضجره وضيق صدره فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ لحكمة منا ﴿إِنَّهُ﴾ أي الإنسان حينئذ ﴿لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ أي قانِطٌ قَنَوطاً زائداً وكثيراً لكفره ما سبق له من نعم ربَهَ حَتّى أنه إذا سئل عنها أنكر ورودَها عليه ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ قبلُ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ مِنْ قوة البطر عنده ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي ذهبت المصائب التي كانت تردُ عليَّ لبعض الأسباب ولا تعود إليَّ بعد أبدا ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي إنه كثيرُ البطرِ ومُفرحٌ ومغتر بالنعم، وينظر إليها من زاوية الاستحقاق الذاتي بدون حجة ودليل، وفخورٌ متكبر متعاظم على الناس بدون أي سبب لتكبره وتعاظمه يجعله موصوفا بتلك الصفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما أصابهم من الضّراء إيمانا بأنها وردت عليهم من الله كفارَةً للسيئات أو ترفيعا للدرجات ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وفاءً

بالأمر بها من الله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾ جميل وثواب جليل لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٌ﴾ عند الله، لأنه فائض من إرادة الرحمة السرمدية به، وعند أهل الإدراك لأن توفيق الله سبحانه وَجَّهَهُم إلى أسبابِها.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16)﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ فيه ترجٍّ لتركِ بعض مما يُوحى إليه فرضا استهزاءً بمن تَرَجى ذلك، ومثل ذلك واقع في المحاورات كثيرا. ومعنى ظاهره لعلك يا رسولي تارك بعض ما يوحى إليك من ربك من التوحيد والاعتماد على الله تعالى وحده ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾. حيث تتتابع آيات التوحيد القاصمة لظهور المشركين، ولا ينزل شيء مما يناسب طبائعهم المطبوعة على الكفر والإشراك، وأنت مأمور

بتبليغها إليهم مخافَةَ ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ أي المشركون: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أي مال نافع كثير يصرفه في الناس لينتصر أتباعُهُ وتزداد الرغبة في اتباعه، وعند ذلك يتحقق صدقه ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ أي لولا جاء معَه ملَك ليعلنَ أنه رسول الله إعلانا بالرهبة الملكوتية حتى تزداد رغبة النفوس في رسالته وجلالته وقبول آياته ودعوته والتزام شريعته. فيا أيها الرسول المختار لحمل أعباء الرسالة لا تضق صدراً برغبة أهل الضلالة أو الجهاله، وبلغ ما أنزل إليك بكل عزة وجلالة، ولا تهتم بأحوال المشركين ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ بما أوحي اليك، وليس عليك إلا الإنذار ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حافظ مراقبٌ، فتوكل عليه وارجع في كل مضيق إليه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقولون إن هذا الكلام الذي يبلغه افتراه على الله وليس بكلامه، وإذا كان ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم وتدعون أنكم من العرب العرباء ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ في بيان ملكوت السماوات والأرض والاحتواء على المغيبات، وإرشاد الناس الى الحقائق وتزهدهم عن زخارف الدنيا مشتملة على أسرار البلاغة ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ كما أن ما عندنا مفتريات بزعمكم ﴿وَادْعُوا﴾ للتعاون معكم في ذلك الأمر ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ دعوته ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من آلهتكم المزعومة والكهنة المدعومة والأدباء، وأهل القصص وغيرهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الافتراء.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي أولئك المُدَّعون لافتراء ما عندك في دعوة الناس القادرين على سبك الكلام وما دعوهم للإتيان بالعشر من السور. أو المعنى: فإن دعوتموهم أيها المدعون للافتراء أي دعوتم من استطعتم دعوته للتعاون في الإتيان بها ولم يستجيبوا لكم، فخبتم في دعواكم وخابوا

في الاستجابة لكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ﴾ الكلام الموحى به إليك ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ الذي لا عجز فيه لشمول المعلومات، وقدرته التي لا تعجز عن السيطرة على الممكنات ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي وإن التوحيد الذي أمرتَ بتقريره في قلوب العاقلين حق لا ريب فيه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ بعد ذلك التهالك في معارضة القرآن والعجز عن الإتيان بمثل بعض منه في البيان ﴿مُسْلِمُونَ﴾ ومنقادون لله وداخلون في الإسلام ومُصَدّقون بما جاء به النبي الأمي العربي محمد صلى الله عليه وسلم من الدين وقواعد الحق واليقين.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ أي بأعماله الصالحة ظاهرا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي ما يزينها من النساء والبنين وغيرهما، ولا يريد غير ذلك من ثوابها في الآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا إذا شئنا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي وهم في الحياة الدنيا لا ينقصون من الأجور. وهذا كما مر آنِفاً مربوط بالمشيئة بقرينة آيات أخرى في الموضوع. كقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ وإلّا فكثير من الكفار لا حَظَّ لهم في حياتهم إلا الفقر والمسكنة والمرض وغيرها من الأتعاب ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ لأن الجزاء منوط بالعمل والنية، وما داموا متوجهين إلى الزخارف ومنحرفين عن الطاعة وكفروا بربهم لا يبقى لهم إلا النار في تلك الدار ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي وسقط عن الاعتبار في الآخرة ما صنعُوا في الدنيا لأخذ لذائذها ﴿وَبَاطِلٌ﴾ في الآخرة لا طائل تحته ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في دنياهم لأنه وإن كان ظاهره الخير لكن لما لم يكن بنية رضاء الله تعالى بل مع إنكار وجوده او وحدته فكأنه لم يعمل شيئا.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (17)﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال الشهاب فيه وجهان:

أحدهما أنه مبتدأ والخبر محذوف، تقديره أَفَمن كان على هذه الاشياء كغيره؟ كذا قرره ابو البقاء، وأَحْسَنُ منه أفمن كان كذا كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ وحذف معادل الهمزة ومثلُه كثير. والهمزة للتقرير أي لحمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه في الموضوع ويجده موافقا للحق عنده سلبا أو ايجابا، كان يقول في مثالنا هذا (لا يستويان) مثلاـ

والوجه الثاني: وهو الذي نحاه الزمخشري أنه معطوف على مقدر تقديره: أَمَنْ كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة سواءٌ أو يعقبونهم في المنزلة أو يقاربونهم؟ لما بينهما من التفاوت البعيدـ وهو أحدُ المذهبين في مثله، والاستفهام على هذا إنكاري. إنتهى.

قلت: لأن الاستفهام وارد على المعطوف، وهو جملة أفمن كان على بينة من ربه يعقبونهم في المنزلة ويقاربونهم، فيكون الاستفهام إنكاريا إبطاليا، لأن ما بعده غير واقع ومُدَّعي قُرْب مَن كان على البينة المذكورة عمن يُريدُ زينة الحياة الدنيا فقط كاذب، لا إنكارياً توبيخياً، وهو ما كان ما بعده واقعا ويُلامُ فاعله عليه نحو ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ والموصول على هذا الوجه ايضا مبتدأ خبره محذوف وهو قوله سواء، أو يعقبونهم أو يقربون منهم في المنزلة كما ذكر سابقا.

والبينة: الدلالة الواضحة عقلية أو محسوسة، وتطلق على الدليل. وهاؤها للمبالغة أو النقل، وهي وإن قيل إنها من بان بمعنى ظهر واتضح

لكنه اعتبر فيها دلالة الغير والبيان له. وأخذها بعضهم من صيغة المبالغة، والتنوين فيها للتعظيم أي بينة عظيمة الشأن، والمراد بها ما في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم من نور الرسالة الكاشف الشارح لصدره الشريف الهادي له إلى التوجه إلى الله تعالى بكمال قوته والإخلاص له والاعتماد والتوكل عليه.
وباعتبار هذا النور الذي يكون بُرهانا للرسول على ما يسعى له ذكر الضمير في قوله تعالى ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾ والمراد بالشاهد هو القرآن المعجز للجن والإنس النازل من حضرة القدس؛ لأن الشاهد إنما يؤتى به على الشيء الخفي، والرسالة ونورها أمر معنوي خفي والقرآن اعجازه وبيانه شاهد على صدقه في دعواه، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ والمراد بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ هو من كان على بينة من ربه كسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه وهم المؤمنون بنور الرسالة أو بالقرآن الكريم، والمراد بالأحزاب أهلُ مكة من المشركين ومن تحزب معهم على رسول الله.

وحاصل الآية الشريفة ومعناها ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ ونور رسالة ﴿مِنْ﴾ فضل ﴿رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبعه ويؤيده ويثبته ﴿شَاهِدٌ﴾ نازل من ربه وهو القرآن المعجز ﴿وَ﴾ كذلك يتبعه ويثبته ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل هذا الشاهد ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ وهو التوراة حالكون ذلك الكتاب ﴿إِمَامًا﴾ للناس الموجودين إذ ذاك ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، وحالكون ذلك النور أن ﴿أُولَئِكَ﴾ الناس الذين ذكرناهم وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي مشركي أهل مكة وأعوانهم ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ المقرر لأخذ عقابه ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي من الموعد أو النور أو القرآن الكريم. ومعادل الهمزة هو كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها محذوف. وحذف ذلك كثير. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم أو

لتعاميهم عنه. ويجوز أن يكون المراد بالبينة القرآن، وبقوله يتلوه يقرأه، والتذكير باعتباره، وبالشاهد جبريل عليه السلام والمعنى ظاهر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن نسب إليه تعالى ما لا يليق به، كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿أُولَئِكَ﴾ الناس المفترون على الله ﴿يُعْرَضُونَ﴾ يوم القيامة ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ الحاكم العدل عند محاكمتهم على سيئاتهم. ومنها افتراؤهم على الله ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ عليهم وهم الحفظة من الملائكة أو الملائكة والأنبياء وسائر المؤمنين: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وافتروا عليه ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم

بالافتراءات وبالتكذيب للآيات البينات، وعلى أنفس الناس الآخرين بمنعهم لهم من الإيمان بالله وبرسوله وبالقرآن ﴿الَّذِينَ﴾ أي الظالمين الذين ﴿يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو دينه القويم دين الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون لها انحرافا ويصفونها بذلك ﴿وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ لله تعالى عن أن يأخذهم وينتقم منهم ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يناصرونهم ويعاونونهم في مهماتهم أو يدفعون عَنهم العذاب النازل عليهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾أي في يوم القيامة لأنهم ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ للحق الذي جاء به الرسول ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ آيات الله تعالى.

﴿أُولَئِكَ﴾ الناس الموصوفون بتلك القبائح ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ باشتراء الاشراك بالتوحيد والعصيان بالطاعة والشقاوة بالسعادة ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم يشفعون لهم ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ في كلمة جَرَمَ أقوال كثيرة منها: أنه بمعنى المنع فالمعنى لا منع ولا مانع من أنهم في الآخرة هم الأكثرون خسرانا. وتستعمل في معنى القطع والجزم بما بعدها ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ أي صَدَّقوا بكل ما جاء به الرسول من عند الله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أفعالاً وتروكا ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ واطمأنّوا إليه ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون مستمرون.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ من الكفار والمؤمنين ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ فالكافر كالأعمى لتعاميه عن إبصار آيات الله الواضحة، وكالأصم لِتَصاممه عن استماع كلام الله تعالى وتمانعه عن التدبر فيه. والمؤمن كالبصير الذي يبصر ما أمامَهُ مِن المنافع فيستفيد منها، ومن المضارّ فيبتعد عنها، وكالسميع الذي يَسْمَعُ نداءً المنادي ودعوة الداعي فينتبه لما فيه

خيره، فكل منهما مشبه باثنين باعتبار وصفين، أو مشبه بشخصٍ واحد جامع بين وصفين، فالمؤمن مشبه بمن جمع بين السمع والبصر، والكافر مشبه بمن جمع بين العمى والصمم ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي الفريقان المذكوران ﴿مَثَلًا﴾ أي حالا وصفة. والجواب: كلّا. فالاستفهام إنكاري إبطالي ومُدعى المساواة كاذب ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لتفهموا أن الفريقين متباينان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الواو ابتدائية، واللام واقعة في جواب قسم محذوف، ويقدر حرفه بالباء أي ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ لا بالواو لئلا يجتمع واوان.

وقد أنزل الله تعالى في هذه السورة سبع قصص: الأولى قصة نوح مع قومه. الثانية قصة هود مع قومه. الثالثة قصة صالح مع قومه. الرابعة قصة إبراهيم مع الملائكة. الخامسة قصة لوط مع قومه، السادسة قصة شعيب مع قومه. السابعة قصة موسى مع فرعون. وذكر هذه القصص على حسب الترتيب الزماني. ونوح عليه السلام في المشهور أنّه ابن لمك بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام، وأنه أول نبي بعث بعده. وفي مولده ومدفنه أقوال قيل: مولده في دمشق، وقيل كرك في أصل جبل لبنان، وقيل الكوفة. وكان التنور الذي فار منه الماء أول الطوفان تنور داره. وأمّا مدفنه فقيل في الكوفة وقيل في الموصل، واسمه عبد الغفار، ولقب بنوح لكثرة بكائه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعث عليه السلام على رأس أربعين سنة من عمره، ولبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، وكان عمره ألفا وخمسين سنة.

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي نذير موضحٌ لكم ما يوجب عذابكم من الإشراك والطغيان والعدوان على الحقوق وما يوجب نجاتكم منه من التوحيد والاستسلام لأوامر الله تعالى. وإنما خص صفة الإنذار بالذكر مع أنه كان مبشرا أيضا لمن أطاعه لكثرة تمردهم، فإن قومه كانوا مثلا في الغباوة والقساوة والعناد، بحيث كانوا يسخرون من نوح ومن كل نصيحة ينصحهم بها ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله. على أنّ أنْ متعلقة بأرْسَلْنا أي أرْسلناه متلبساً بنهيهم عن الإشراك ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ علة للنهي، وذلك إنذار خاص من جملة إنذاراته لهم، والمراد

باليوم الأليم يوم الطوفان، أو يوم القيامة. أو كلاهما، أو سائر أيام عذابهم إن أريد باليوم الجنس، وتوصيفه بالأليم مجاز لأن الأليم هو العذاب الواقع فيه ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ وليس فيك مزية تخصك من بيننا كالرسالة من الله التي تدعيها ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ وأن تتميز بمن تبعك من العامة فليس ذلك بمميز معتبر حيث ما نريك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا المحقرون المسخرون في الأعمال البسيطة، وليس عندهم شوكة وشأن، وكونهم من الأراذل ظاهر في أول التفكر بدون تعمق، وكان معتمدهم في ذلك القول أنه لم تكن عند اتباعه ثروة هائلة ولا قوة طائلة ولم يكونوا من أصحاب السلطة المعتادة عندهم، وذلك هو المثار لاستكبار الناس بعضهم على بعض، غافلين عن أن العزة لله، وأن الغلبة بأمره المتين ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ﴾ خطاب له عليه السلام ولأتباعه أي وما نرى لك ولأتباعك الذين تعتمد عليهم ﴿عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي زيادة تؤهلكم لاتباعنا لكم ونحن أولو قوة ومنعة وجاه ومال ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ في دعوى العلاقة الشريفة المميزة لكم كالرسالة لك وتصديقها من أتباعك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي شريعة وتعاليم واضحة في ذاتها وموضحة طريق السعادة للغير ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ ومنشأ تلك الشريعة والتعاليم أنه آتاني الله رحمة من عنده موهوبة لي لا مكسوبة، وهي الرسالة السماوية المقدسة وأرسلني إليكم بها، أي وأنتم بهذه الحالة السيئة من العناد والعدوان ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وأخفيت ووقعت في غطاء ظلمات جهلكم وغباوتكم الشديدة أخبروني ماذا أقول لكم وكيف أتمكن من إفادتكم من هذه البينة والرحمة الربانية؟ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي انجبركم على التزامها والإيمان بها والاستفادة منها ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ والحال أنكم تكرهونها ولا تختارونها وتعاندتم بالاستكبار عن قبول الحق والاستماع لي في بيانه.

ولما كان قومه يتوهمون أن قصد سيدنا نوح عليه السلام هو استفادة ثروة مادية منهم حتى يصعد إلى مستواهم، وظهر له من عنادهم واستكبارهم أنهم لا يستمعون لكلامه ما دام أتباعه من الأراذل الذين يستنكف عن محاورتهم ومجاورتهم رفض كلا الأمرين فقال عطفا على ما قاله لهم ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أي لا أسئلكم على تبليغ تعاليم الله إليكم مالا تؤدونه إلي بعد استسلامكم وإيمانكم بأن يكون أجرا لي على ما أقوم به ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فهو يثيبني من فضله بما يشاء فلا تتوهموا أن لي أملا في أموالكم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بربهم وأخلصوا له دينهم ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ علة لقوله وما أنا بطارد الذين آمنوا، أي لأنهم مقربون عند الله تعالى لحسن تلقيهم لأوامره ونواهيه ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ كل ما ينبغي أن يعلم في الإلهيات جهلتم ربكم، وجهلتم وجوب وجوده ووحدته وكماله، وجهلتم قوته وجلاله، وجهلتم أن نسبة المؤمن إلى ربه نسبة المحب الى المحبوب وبالعكس، وجهلتم أن شرف الإنسان بالإحسان لا بالأموال والجاه عند أهل الزمان، وجهلتم ما سيرد عليكم من عذابه في الدنيا والآخرة. ثم رجع إلى بيان عزة المؤمنين التابعين له وشرفهم عند الله وأنه ناصرهم فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ أي من يصونني ويحفظني من عذابه ويدفع عني حلول سخطه ﴿إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ أي أبعدتهم ﴿عني﴾ وهم المقربون عند الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتفكرون في الحقائق الثابتة حتى لا تغتروا بما عندكم من العزة المادية.

ثم لما قال قومه في مقام الاستكبار عن قبول تبليغاته ودعوته ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ وأرادوا أنه ليس لك اختصاص بمميزات تميزك عنا فليس عندك أموال طائلة دنيوية، ولا علم بالمغيبات والمعنويات حتى تسيطر به علينا، ولا أنت ملك ومن غير نوعنا حتى تكون لك قوة وغلبة علينا، وإنما

وسيلة الجرأة علينا بتفنيد ما عندنا من الشعائر أتْباعك وهم أراذِلٌ لا فضل لهم وليس لهم شأن في الدنيا أو في الآخرة يَسلَّم لَهم كلَّ ما أرادوا من قولهم إلا بعضا منها مع ما يستلزمه فقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ من الماديات أو المعنويات ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وإذا علم شخص شيئا منه فإنما هو بإعلامه تعالى له لا من ذاته ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فإن المَلك نوع خاصّ ممتاز بفصل خاصّ يمتاز به عن الإنس والجن وغيرهما ﴿وَ﴾ لكني ﴿لَا﴾ أسلّم كلامكم الأخير في حق من تبعني من المؤمنين فلا ﴿أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي تستحقرهم أعينكم وتنظر إليهم بعين الرذالة والدناءة لفقدهم بعض الميزات المادية التي تعتمدون عليها: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ في هذه الدنيا أو في الآخرة ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من النيات ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المعتدين على حقوقهم إذا قلت ذلك، فإن لله سنته المقررة إن من أطاعه وأطاع رسوله فله في الآخرة جنات ودرجات ورضوان وإحسان، وأما في الدنيا فيختص برحمته من يشاء.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34)﴾

﴿قَالُوا﴾ أي الملأ الذين كفروا من قومه: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ في إثبات مطلوبك ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أي أتيت بنوع واحد وأطلْتَ الكلامَ أو بأنواع كثيرة فلا نستمع لجدالِك بعدُ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في استحقاقنا له، أو في نزوله علينا

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ فليس الإتيان به من شأني ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ له تعالى ومانعين له من إنزاله أو الفرار منه لخلاص أنفسكم ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ أي إخلاصي لكم في الإرشاد، فإن النصح تحري قول أو فعل فيه صلاح للمنصوح له، وهو كلمة جامعة، وقيل: هو إعلام مواقع الغي لُيتَّقى، ومواضع الرُّشْدِ ليقتفى، وهو من قولهم نصحت له الودّ أي خلَصْته ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه وليس ذلك جوابا لامتناع تقدم الجواب على الشرط على الأصح. أي إن أردتم أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي. والجملة كلّها دليلٌ جواب قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ والتقدير: إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نُصحي، والآية من باب ورود الشرط على الشرط. وادعى ابن مالك رحمه الله أن الشرط الثاني مقيد للأول بمنزلة الحال، فكأنه قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: إن أردت أن أنصح لكم في حال إرادة الله تعالى إغواءكم فلا ينفعكم نصحي ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي خالقكم ومالِكُ أمرِكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بما تستحقون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39)﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي بَلْ أيقول قوم نوح إن نوحا إفترى ما جاء به وأسنده إلى الله عز وجل ﴿قُلْ﴾ يا نوح: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ فرضاً ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي وبال إجرامي واكتساب ذنبي لا يتعدى إليكم ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾. ولكن الواقع أنكم مجرمون بنسبة الافتراء إلي، وأنا مُحق في ما بلغته إليكم ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ وهذا إقناط له عليه السلام من إيمانهم، وإعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي فلا تحزن ولا تلتزم البؤس بما يباشرونه من تكذيبك فيما تبلغه إليهم ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ الأمر للوجوب بناء على أن صيانة الروح واجبة، وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب، وأن السفينة وسيلة النجاة من الغرق، واللام في الفلك للعهد، وإشارة إلى ما أوحي اليه عليه السلام أنه سيهلك قومه المعتدين بالطوفان، وينجي أتباعه المؤمنين بالفلك. وقوله: بأعيننا أي برقابة عيوننا وحراستها عن الكفار القاصدين لكسرها. وقوله: ووحينا أي بوحينا إليك كيف تصنعها بحيث تصلح للاستعمال والبقاء ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ولا تشفع إلي في إنجاء الذين ظلموا منهم كلهم أو بعضهم ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي محكوم عليهم منا بالإغراق.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها. وروي أن طولها ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وارتفاعها ثلاثون. وأخرج ابن جرير وغيره عن الحسن قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع، وصنع لها بابا في وسطها، وأتم صنعها على ما روي عن مجاهد في ثلاث سنين، وعلى كل فوسعتها لما حمل فيها كانت بلطف من الله تعالى.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي استهزأوا به في عمله، إما لعدم سماعهم لكلامه وعدم معرفتهم لها، أو لأنهم ينكرون رسالته من الله تعالى، وأن عمله ذلك على علم منه وتعليم ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ أي إن تسخروا منا باشتغالنا في صنع السفينة الوسيلة للنجاة فإنا نسخر منكم في غروركم وعدم مبالاتكم بأمر داع من الله لكم إلى الحق ثم إصراركم على حالكم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ والتشبيه صوري، وإلا فسخريتهم كانت عن جهل وغرور، وسخريته عليه السلام عن علم وشعور ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يذله ويفضحه في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي دائم في الآخرة.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48)﴾

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ غاية لقوله ويصنع الفلك وما بينهما حال من الضمير فيه أو ابتدائية وهي التي يبتدأ بعدها الكلام ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ ونبع الماء منه وارتفع بقوة، وكان التنور تنور الخبز وفي داره عند الجمهور. وكانت داره إذ ذاك بالكوفة، ووزنه تفعول من النور، وأصله تنور، فقلبت الواو الأولى همزة لانضمامها، ثم حذفت تخفيفا، وشددت النون عوضا عما حذف. وقيل: منقول من تنور ماضي باب التفعل من النور ثم غيرت بنقل التضعيف والتشديد من الواو إلى النون، وقيل: أعجمي ولا اشتقاق له. والمشهور أنه مما اتفق فيه لغة العرب والعجم كالصابون والسَّمور ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ أي في الفلك وتأنيث الضمير باعتبار معنى السفينة ﴿مِنْ كُلٍّ﴾ بالتنوين أي من كل نوع من الحيوانات التي تريد بقاءها ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وهو تثنية زوج بمعنى الفرد الواحد المزدوج بآخر من نوعه، فالمراد به فردان من نوع، ولذا عقبه بقوله ﴿اثْنَيْنِ﴾ وحاصل المعنى احمل ذكرا وأنثى من كل نوع من الحيوانات ﴿وَأَهْلَكَ﴾ معطوف على زوجين، أي احمل أهلك. والمراد بأهله امرأته المسلمة وبنوه منها.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين لكفرهم وظلمهم، ومنهم زوجته الأخرى وتسمى واعلة بالعين المهملة وابنه منها. وهو كنعان! ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ معطوف على الأهل أي المؤمنين والمؤمنات من غير أهلك ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ والرواية الصحيحة أن عدد غير أهله وعائلته اثنان وسبعون نفراً.

﴿وَقَالَ﴾ أي نوح عليه السلام: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ مصدران ميميان أو اسما زمان أي اركبوا فيها قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسائها أي حركتها واستقرارها ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ لمن أراد أن يغفر له و﴿رَحِيمٌ﴾ لمن أراد أن يرحمه ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾ أي والسفينة تجري بهم في موج من الماء، والموج ما ارتفع منه عند اضطرابه، واحده موجة ﴿كَالْجِبَالِ﴾ صفة للموج أي في موج مرتفع متفاوت في الارتفاع كالجبال. وقوله تعالى ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ استئناف لبيان حال سيدنا نوح مع ابنه الداخل في من سبق عليه القول، فيقول: ونادى نوح أي قبل ركوب السفينة وانقطاع علاقتها بالبر ابنه كنعان ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته، ومن آمن من قومه، والمراد بعده عنهم ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ وبني بضم الباء وفتح النون والياء المشددة وحذف يائه مصغر ابن مضاف إلى الياء، وكل من التصغير والإضافة لإفادة الرحمة واللطف به باقتضاء الغريزة الأبوية وظنا بأن فيه إيمانا بقرينة قوله ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ أي أنت مؤمن وهم كفار، فلا تكن معهم ﴿قَالَ﴾ معلنا لانقطاعه عنه وعدم مبالاته بندائه وبالطوفان ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ﴾ مرتفع ﴿يَعْصِمُنِي﴾ ويحفظني ﴿مِنَ﴾ الغرق بـ ﴿الْمَاءِ قَالَ﴾ نوح موضحا له حقيقة الأمر: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي لا حافظ اليوم من نفاذ حكم الله بالطوفان وغرق الناس به ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي رحمه

الله بنجاته من هذا البلاء. ﴿وَ﴾ بينما يتحاوران إذ ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ أي حال بين نوح عليه السلام وابنه الموج من الماء ﴿فَكَانَ﴾ ابنه ﴿مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ والحكم لله رب العالمين.

﴿وَقِيلَ﴾ من جانب القدّوس ربّ العالمين: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ والبلع يستعمل للمأكول والمشروب. قال الليث: يقال: بلع الماء إذا شربه، والمراد هنا انشفي وتَيَبسي ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ أي أمسكي عن إرسال المطر. يقال: أقلعت السماء إذا انقطع مطرها ﴿وَ﴾ التزم كل منهما الأمر المقدس فـ ﴿غِيضَ﴾ الماء ونقص ونضب. قال الجوهري: غاض الماء إذا قل ونضب، وغيض الماء فُعِل به ذلك. والمآل النقص والنضوب ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي نفذ ما وعد الله به عبده نوحا عليه السلام من إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي استقرت السفينة ورست على الجبل المشهور بالجودي، وهو جبل بالموصل. وقيل: بالشام، والمشهور الأول. وكان استواؤها عليه يوم عاشوراء عاشر محرم الحرام. أخرج أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود، وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: ما هذا الصوم؟ فقيل: هذا اليوم أنجى الله تعالى فيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكرا لله تعالى. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أنا أحق بموسى عليه السلام وأحق بصوم هذا اليوم)) فصامه، وأمر أصحابه بالصوم. وأخرج الأصبهاني في الترغيب عنه رضي الله عنه

أنه اليوم الذي ولد فيه عيسى عليه السلام أيضا، وأن صيامه يعدل سنة.

وكان ركوبه عليه السلام السفينة فيما روي عن قتادة، في عشر خلون من رجب ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكا لهم، واللام صلة المصدر ثم ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ عند امتناع ابنه من الركوب معه وقبل علمه بغرقه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾ بنجاة أهلي ﴿الْحَقُّ﴾ كسائر وعودك، ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ في الحكم بنجاته أو بهلاكه. ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية، وقد انقطعت بالكفر ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي ذو عمل غير صالح ناشئ من كفره بربه فلا يناسب الشفاعة وقبولها ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي فلا تسألني مطلبا لا تعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة ﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾ أي أرشدك وأمنعك ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بما يجوز وما لا يجوز وعفو الكافر المصر غير جائز. ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ وأكرره وأعود عليه ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي وإن لا تغفر لي ما فرط مني من السؤال لنجاة ابني وترحمني بالتوبة والتفضل عليّ أكن من الخاسرين أعمالا. وتأخير ذكر هذا عن مناسبه، وهو قوله تعالى ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ لأنه أمر مستقل بالعناية والرعاية حيث إنّ فيه موعظةً عامةً هي أنّ قرابة النسب لا علاقة لها بقرابة العقيدة والحسب، وأن المعتمد في أصول الدين هذا.

وسياق ما يأتي دليل على أن الله تعالى أكرمه وأنعم عليه بزيادة لطف وإحسان. ولذلك خوطب من جانب الحق ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ روي أن السفينة استوت على

الجودي في عاشر ذي الحجة فأقام بمن معه هناك شهرا، ثم قيل له: اهبط فهبط بأرض الموصل، وبني قرب الجبل قرية يقال لها (قرية الثمانين) أي قيل له بوحي من الله يا نوح اهبط من السفينة إلى الأرض متلبسا بسلام وأمان من جهتنا، وبركات وخيرات نازلة عليك وعلى أمم ناشئة ممن معك، والمراد بهم أولاده، فالعبارة من إطلاق العام وإرادة الخاص، فالناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ والله قادر على ما يشاء وقوله تعالى ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ جملة مستأنفة ﴿وَأُمَمٌ﴾ مبتدأ حذفت صفته المخصصة وقوله تعالى ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ خبره أي وأمم منهم سنمتعهم أو مبتدأ وسنمتعهم صفته، والخبر محذوف أي وأممٌ سنمتعهم تبقي في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ﴾ فيها أول في الآخرة ﴿مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جزاءً لما اقترفوه من الأعمال السيئة والعقائد الفاسدة.

هذا ومما يحسن الإطلاع عليه أنه دار الكلام بين المفسرين ولاسيما المتأخرين منهم حول عموم الطوفان للكرة الأرضية أو اختصاصه بالإقليم الذي كان فيه سيدنا نوح عليه السلام، ونحن إذا نظرنا بدقة إلى النصوص القرآنية علمنا عمومه لها وذلك من وجوه:

الأول: إن سيدنا نوحا عليه السلام دعا ربه وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ودعوة الأنبياء مستجابة.

الثاني: قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ الآية... بالحصر المعلوم منها.

الثالث: إن الطوفان كان قويا وصاعدا وهائجا جدا بنص قوله تعالى ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ فإن الموج المشبه بالجبال بصورة الجمع وعدم العهد ظاهر في أن ارتفاع الماء كان متصاعدا فوقها.

الرابع: قوله تعالى ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ النص في ارتفاع الماء فوق مستوى جبل الجودي ونزوله فوقه بعد نضوب الماء.

الخامس: قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ الآية... فإن ظاهرة يدل على أن الماء كان نابعا من جميع بقاع الأرض ونازلا من جميع أقطار السماء.

فوجود هذه الأدلة يرشدنا إلى عموم الطوفان جميع الكرة ولا محيد عنه إلا إذا كان هناك برهان قاطع يجبرك على تأويل تلك الآيات بما يوافقه وأنّى ذلك!

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ أي قصة نوح التي مَرَّتْ عليها القرون ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾بعض من أخبار الغيب التي لها شأن واعتبار، فهي قصة نَتَجَت من سوء معاملة الأمة العاصية القاسية التي اغترت بنفسها، ولم تُصغ لأوامر الله تعالى ونواهيه. وعلاوة عليه قد تمردت وتجاسرت على رسولِهِ الكريم.

وقد ذكروا أن الغيب قسمان: غيب مطلق؛ وهو الذي لم يتعلق به علم مخلوق أصلا كمبدأ حدوث العالم، ونهايته، وأمور كثيرة مما وراء الطبيعة، منها سر القضاء والقدر... وغيبٌ مضافٌ؛ وهو الذي للعلم به سبيل إما على صورة خرق العادة كما للأنبياء والمرسلين بالوحي، وللأولياء بالإلهام، ولسائر الناس بالأسباب والأجهزة كالعلم بما في رحم المرأة من الجنين وأمثال ذلك... فليس علم الغيب أبدا صفة ذاتية لغير الله، وما يمكن علمه هو

الذي أعلم الله به بعضا ممن ارتضاه وأعلمه، أو وفقه لتحصيل أجهزةٍ تكون وسيلة لاستكشاف المجهولات.

﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ لتعلمها ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي من قبل هذا الوقت ولما علمت بما جرى على نوح عليه السلام ﴿فَاصْبِرْ﴾ أنت أيضا على مشاق التبليغ وأذى القوم الظالمين ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ الحميدة بالظفر في الدنيا والفوز بالنعيم والرضوان الأتمين الأكملين ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الحائزين أعْلى درجاتِ التقوى، وأنت من المتقين.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم في النَّسب وواحداً منهم لا أجنبيّا لا يعرفونه أو غريبا لا يحترمونه ﴿قَالَ﴾ استئناف بياني، كأنه قيل ماذا قال لهم؟ فأجيب بأنه قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده حيث كانُوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إذ ليس لكم إله تعبدونه ويستحق العبادة غيره ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ عليه تعالى بارتضائه شريكا أو شركاء له في العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا. ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على هذا التبليغ ﴿أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقني وأبدعني من العدم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتقبلوا نصيحة الناصح الأمين.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك الذي هو أعظم الجرائم عند الله ولا خلاص منه إلا بالرجوع إلى التوحيد ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ بالطاعة والسعي في امتثال الأوامر واجتناب المناهي، وإذا استغفرتم وتبتم ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾ بالمطر ﴿مِدْرَارًا﴾ كثير الدر والخير لكم ولأنعامكم ومزارعكم وبساتينكم وسائر ما يحتاج إلى الماء ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ بزيادة الأحفاد على الأولاد وزيادة الحجم والقوة في الأجساد، وبتكثير المعدات الحربية لطرد الأعداء عن البلاد ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تستدبروا عن طاعة الله حالكونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على الإجرام والآثام.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57)﴾

﴿قَالُوا﴾ في جواب نصيحته الصافية الواضحة: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بدليل ساطع وبرهان قاطع على دعواك، لأن الماديين لا يقبلون إلا الملموسات المادية، ولا يقتنعون إلا بالشهوات العادية ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا﴾ أي بتاركي عبادتها التقليدية ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ بسبب قولك المجرد عما نريده ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بل ﴿إِنْ نَقُولُ﴾ لك أي ما نقول لك ﴿إلا﴾

أنه ﴿اعْتَرَاكَ﴾ أي أصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ وهو إزالة الشعور عنك، ولما أدرك هود منهم تلك الردود الفاسدة، وعلم أنهم لا تلينُ عريكتهم لعبادة الله وحده، بل أحس منهم نية السوء ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ تعالى وكفى به شهيدا، ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ﴾ أي من عبادة الآلهة التي تشركونها لله، او من إشراككم لله تعالى ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ أي إن صح ما أشرتم إليه من قدرة آلهتكم على إضرار الناس فاستعملوا على طرق الكيد بجميعكم أنتم وشركاؤكم، ثم لا تمهلوني أحيْا وأبقى زمانا ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ تعالى وحده ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي خالقي وخالقكم ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ﴾ تعالى وحده ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي قادر عليها يصرعها متى شاء واين اراد ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إن ربي ليس برب يعبد بالتقليد والاصطناع والأوهام والابتداع، وإنما هو خالق للحقائق وجارٍ على صراط مستقيم، وهو طريق سنته الكونية التي لا تبديل لها، يخلق من يشاء كما يشاء ويكلف العقلاءَ منهم بالشرائع، فإن أطاعوه بها فبها ونعمت، وإلا دمرهم وقهرهم ونَصر جنوده عليهم، وهذه سنة الله في العالمين.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ بحذف إحدى التاءين أي تتولوا فلا بأس عَلي ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿يَسْتَخْلِفُ رَبِّي﴾ عنكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ بأن يقهركم ويغلب عليكم بعض جنوده ممن يعاديكم، أو يدمركم ببلاء خارج من الأرض أو نازل من السماء فتهلكون، فيأتي بقوم من غيركم بجعلهم في محلكم. وكم فَعَلَ مثلَ هذا بالأقوام الأولين؟ والحالُ إنكم ﴿لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ من الضرر ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ حافظ وشهيد.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ

الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي ولما وقع أمرنا بالعذاب، ونزل العذاب على عادٍ ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ﴾ وكانوا أربَعة آلافٍ، وقيل: ثلاثة آلاف، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ مختصة بهود وَمَنْ آمن به وسببها الإيمان ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهي الريح التي كانت تهدم المساكن المستحكمة، وتحمل الظعينة، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم. ﴿وَتِلْكَ﴾ القبيلةُ الهالكة بِذلك العذابِ ﴿عَادٌ جَحَدُوا﴾ وسبب نزوله عليهم أنهم جحدوا ﴿بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ النازلة بالوحي على هود وجحدوا الآيات الآفاقية التي تدل على عظمته وَوَحْدَته وقدرته على الانتقام، وبالآيات التي ترد على الكفار المعاندين من أنواع العذاب ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ من هود ومن سَبَقَه لأنه كان يذكر لهم هلاك قوم نوح وغيره نتيجة الطغيان، أو لأن تكذيب رسول تكذيب رسل لأن مبادئهم المهمة متحدة ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ والجبار هو الذي يجبر الناس على ما يريد.

أو العظيم في نفسه المتعاظم على غيره. وقال الراغب: هو المعجب بما عنده. والجوهري: هو من خالف الحق ورده.
والمقصود أنهم اتبعوا أمر رئيسهم وكل من كان يبلغ أوامره ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي طردا وإبعادا عن رحمة الباري ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي وفي يومها فهم المتبعون باللعنة في الدارين ﴿أَلَا﴾ أيها العقلاء الناظرون ﴿إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي كَفَروا وَحْدَته وانكروا نعمته وعاندوا رسوله ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ومن

تفكر في صياغةِ الجمل المتوالية تنور بمعرفة أبعادِ ابعاد الذين يَجْحدون بالله ورسوله ويحيدون عن سُبُله في الدين.

ذكر الزمخشري في الفجر أن عقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح يقال لهم عاد كما، يقال لبني هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم عاد الأولى، وإرم تسميةً لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم عاد الأخيرة. هذا.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي وأرسلنا إليهم أخاهم نسبا يعرفون حاله ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا به شيئا ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ وابتدأ خلقكم منها، والخالق هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ الاستفعال بمعنى الإفعال يقال: أَعْمرتُهُ الأرض واستعمرته إياها إذا جعلته عامِرها، وفوَّضت إليه عِمارتها. وقال زيد بن أسْلَم: إن المعنى أَمَرَكمْ بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء المساكن، وحفر الأنهار وغرس الأشجار... فالسنين المطلب، أي طَلَبَ منكم إعمار الأرض.

واستدل بها على أن العمارة منها واجبة، وهي ما يحتاج إليها لحفظ النفوس، وأداء العبادات الواجبة، والسير عليها لتحصل الأرزاق كالقناطر والجسور، ومنها مندوبة كعمارة المساجد فوق الحاجة الضرورية، ومنها

مباحة كعمارة المنازل للترفّه، واضافة الواردين. ومنها محرمة كعِمارة المَنازل التي تشرب فيها الخُمور ويَطربُ فيها أهل الفجور.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي فاطلبوا منه أوّلاً مغفرة الذنوب والجرائم المكتسبة ثم ارجْعوا إلى طاعته وملازمة عبادته ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ كَرَماً ورحمةً لمن استغفره ودعاه و﴿مُجِيبٌ﴾ للدعاء والإنابة والتوبة. ﴿قَالُوا﴾ متأسفين على ما قاله لهم: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أي فاضلا كريما يرجى منك الخير لقومك ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ أي قبل هذا الوقت الذي باشرت بدعوتنا إلى ترك ما كنا عليه ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا﴾ وهذا لا يتصور من رجل يُرْجى خيره ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد وترك الإشراك والاستغفار والتوبة ﴿مُرِيبٍ﴾ لنا وموقعٍ لنا في الريبة والقلق. وليس المراد بالشك ما هو المعروف من تصور طرفي النسبة على المساواة، بل المراد به التوهم أو التخييل حيث كانوا مذعنين بخلاف ما يدعوهم إليه ومعتقدين اعتقادا متينا بما هم عليه من الكفر والإشراك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آَيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخْبِروني ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ أي حجة واضحة تدلكم على أني مُحِقّ في دعواي، وتلك البينة أتتني ﴿مِنْ رَبِّي﴾ أي من وهبه لا من مفتعلات كسبي ﴿وَآَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي

نبوة منه ثم خالفته وما بلغت ما أمرت به ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ ويمنعني من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ بالكسل في تبليغ أوامره ومنع الناس عن الإشراك به ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي فإن كان الأمر كذلك فما تزيدونني شيئا غير تخسيري وإيقاعي في الخسارة.

وقوله تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ واقع بعد قصةٍ مقدرة مقررة في غير هذه السورة بيانها: أنهم طلبوا منه معجزة تقهرهم على الإيمان، بطلب من الله تعالى خلق ناقة معها، فصيلها من صخرة معلومة لهم في محل بروزهم لمراسم الأعياد، وقالوا له: إن خَرَجَتْ مِنها ناقة كذلك آمَنا بك، فطَلَب صالح ما أرادُوه فخلق الله لَهُمْ نَاقةً من الصخرة وخرجت منها مع فصيلها. وبعد ذلك قال لَهم صالح عليه السلام ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ التي لا يقدر على خلقها إلا هو خرجت حالكونها معجزة ﴿لَكُمْ﴾ وآية دالة على اني صادق في دعوى الرسالة ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ بنَفْسِها بدُونِ مؤونة عليكم ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ﴾ منصوب بأن لوقوعه جوابا للنهي بعد مسها ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ لا يتأخر عنه إلا قليلا. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي فخالفوا نهيه وعَقَروها. والعقر النحر. ويجئ بمعنى الجَرح، وقيل: قطع عضو يؤثر في إزهاق الروح. والعاقر هو قدار على وزن هَمام صيغة مبالغة، ويقال: إنه أحمرُ ثمود، أو اشقرُ ثمود. وبه يضرب المثل في الشؤم ونُسِب الفعل إلى القوم لرضاهم بفعله ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ أي في بلدكم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ فقط ثم يأتيكم عذاب الدمار ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (68)﴾

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي أمرنا بنزول العذاب ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي بسببها، أو متلبسين بها ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ لأن المعمول لا يعطف على عامله فهو متعلق بمحذوف هو المعطوف، وقيل: الواو زائدة والمقصود نجاتهم من الهلاك بالصيحة مثل القوم. وأعتقد أنه لا حاجة إلى تقدير العامل لأن المقصود من قوله تعالى نجينا صالحا والذين آمنوا معه أن الله تعالى وفقهم على خُروجهم من ديار القوم مع أنه كانوا يقتلونهم إذا انتبهوا أنهم يخرجون للخلاص من العذاب للعداء الواقع بين الفريقين. فالتقدير نجينا صالحا والذين آمنوا معه من تعرض القوم لما خرجوا من الديار برحمة منا ومن خزي يومئذ، فما دخلوا في الهلاك بالصيحة. فقوله تعالى ومن خزي معطوف على مقدر، أي تعرض القوم ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ﴾ أي ونجينا هودا والذين آمنوا معه ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو عذاب قوم هود الكافرين في يوم القيامة، أي كما نجيناهم في الدنيا من تعرض القوم ومن الهلاك بالصيحة كذلك نجيناهم من العذاب الوارد على القوم يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا حبيبي يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي القادر على كل شيء والغالب عليه في كل وقت ومكان.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي قوم هود الكافرين ﴿الصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة جبريل، أو صيحة سماوية فيها كل صاعقة وصوت مفزع ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ أي في منازلهم وديارهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ هامدين مَوْتى لا يتحركون ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي فانقَطَع تمتعهم بها، كأنهم لم يقيموا بها

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ وَمن مَنَع ثمود عن الصرف نظر إلى القبيلة، ومن صرفه نظر إلى الحي أو الأب الأعلى المسمى بثمود.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ المراد بالرسل الملائكة الكرام. روي عن ابن عباس أنهم كانوا اثني عشر ملكا أرسلهم الله تعالى بالبشرى له بالأولاد ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي سلمنا أو نسلم عليك سلاما ﴿قَالَ﴾ إبراهيم في جوابهم: ﴿سَلَامٌ﴾ أي وعليكم السلام، وقد حياهم بالجملة الاسمية وهي دالة على الدوام والثبات ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي فما أبطأ وما تأخر إبراهيم عن مجيئه إليهم بعجل سمين أو بعجل مشوي، فوضعه بين أيديهم للأكل فامتنعوا عنه ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي

لا يَمُدّون الأيدي إليه، والمقصود أنهم لا يأكلون ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي أنكر ذلك منهم ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أي أضمر (في نفسه) منهم ﴿خِيفَةً﴾ أي خوفا، وأصلها الحالة التي عليها الإنسان من الخوف، وظن أنهم أرسلوا لعذاب قومه أو لأمر أنكره الله تعالى، فلما أحسّوا بخوفه أمّنوه و﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ عليه السلام خاصة، ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ وهي سارة بنت هاران بن ناحور وهي بنت عمه ﴿قَائِمَةٌ﴾ في الخدمة. قال وهب: كانت قائمة وراء الستر تسمع محاورتهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ وكان الضحك سرورا بزوال الخوف عن إبراهيم، وقيل: كان سرورا بهلاك أهل الفساد. ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ أي عقبنا سرورها بسرور أتمَّ مِنهُ، وذلك على ألسنة رسلنا.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ من الويل وهو الخزي ويستعمل في كل أمر فظيع، والمراد بها هنا التعجب وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء، والألف بدل عن ياء المتكلم، قيل: إنها كانت إذ ذاك ابنة تسعين سنة ﴿وَهَذَا﴾ الذي تشاهدونه ﴿بَعْلِي﴾ أي زوجي وأصل البعل القائم بالأمر، فأطلق على الزوج لقيامه بأمر الزوجة ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة سنة، ونصبه على الحال عند البصريين والعامل فيه معنى الإشارة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الأمر المذكور من حصول الولد من هَرِمَين ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ لم تَجْرِ به عادة الله تعالى في عباده ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي من قدرته وحكمته ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ﴾ المتوالية ﴿وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ منصوب على الاختصاص أو على النداء ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ في كل فعاله ﴿مَجِيدٌ﴾ كثير الإحسان والخير ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي زال عنه الخوف ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بالولد والحفيد ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي يجادل رسلنا في حالهم وشأنهم وربما يقول لهم في جدالِهِ: كيف يأتيهم هذا العذاب الشامل وفيهم الصبيانُ المعصومون والرّجال البعيدون عن تلك الأفعال، والنساء العفائف وغيرهن

من الأجانب من النساء والرجال؟ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ﴿مُنِيبٌ﴾ راجع إلى الله تعالى، ولهذه الأوصاف كان يجادلهم ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ أي قالت الملائكة: يا إبراهيم ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدال ﴿إِنَّهُ﴾ الشأن ﴿قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وصدر المرسوم الإلهي به ﴿وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ﴾ لا شك في إتيانه في وقته المحدد، وذلك العذاب ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ بجدال ودعاءٍ وغيرهما، لأن القضاء المبرم لا يَدْفَعُه شيء.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ أي انطلقوا من عند إبراهيم عليه السلام إلى قرية لوط عليهما السلام، وكان بين القريتين أربعة فراسخ، ودخلوا عليه في صورة غلمان حسان الوجوه، وذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ لخوفه من قومه الفساق المتعرضين للواردين بالسوء ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي طاقة وجهدا، وهو في الأصل مصدر ذرع البعير بيديه في مسيره إذا سار مادا خَطْوَهُ، مأخوذ من الذراع، وهي العضو المعروف، ثم توسع فيه فاستعمل في محل الجهد والطاقة ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي يوم شديد.

وأصله من العصب بمعنى الشَّدِّ. قال أبو عبيدة: سمي بذلك لأنه يعصب الناس بالشر.

﴿وَجَاءَهُ﴾ أي وجاء لوطاً وهو في بيته مع أضيافه ﴿قَوْمُهُ﴾ الفساق ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يستحثون إليه كأنه يَحُث بعضُهم بعضا أو يَحُثُّهم كبيرهم ويسوقهم، أو يسوقهم الطمع في الفاحشة، والعامة على قراءته مبنيا للمفعول، والجملة في موضع الحال من القوم. ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ جاء لبيان أنهم كانوا مُتَعودين على فعل المنكرات، ولذلك سلبوا جلباب الحياء، فلذلك أسْرعوا لطلب الفاحشة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فتزوجوهن، وكانوا يطلبونهن من قبلُ ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم، فجاءته المصيبة من القوم الفاسق، وكان يرضى بأن يداريهم لعلهم ينتهون ثم يتفاهَمُونَ على قواعِدِ الزواج المشروعة في شريعتهم الثابتة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي واتقوا الله بترك الفواحش، ولا تخزوني بسوء المعاملة مع ضيفي فإن إخزاء الضيف

إخزاء المضيف ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق وَيَرْعَوي عن الباطل؟ ﴿قَالُوا﴾ أي قومه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ ما لنا ﴿لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي قضاء الشهوة، أو مالنا في بناتِك الآن رغبة في زواجهن بالصورة المشروعة عندك. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من عمل الفحش بهن ﴿قَالَ﴾ لوطٌ عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لو ثَبت أنّ لي قوةً متلبسة بكم بالمقاومة على دفعكم بنفسي لفعلتُ ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي أو أنضمّ إلى قوي أتمنع به عَنكُم وأنتَصِرُ به عليكم. فالمراد بالركن وهو في الأصل الناحية من البيت أو الجبل هو الملاذ القويّ من رئيس عشيرةٍ أو مَلك جبار. وهذا بحسب ما يجري في الدنيا من امتناع الإنسان عن المخازي بقوة نفسية أو بالالتجاء برئيسه.

روي أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافِهِ، وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوّر الفساق الجدار لدخول الدار.

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي لما رأت الملائكة ما على لوطٍ من الكَرب قالوا: يا لُوطُ إنّا رسل ربكَ أي إنا ملائكة مرسلون من ربك لإهلاك قومك الفاسقين فَلَنْ يصلوا إليك بضرر ولا مكروه، فافتح الباب واتركنا وإياهم، فَفتحَ الباب فدخلوا فأذهب الله نور أعينهم، فانطلقوا عميا يركب بعضهم بعضا، وهم يقولون: النجاء النجاء فإن في بيت لوط قوماً سَحَرةً! ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقطع الهمزة مِن الإسراء ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي بطائفة منه ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا يتخلف، أو لا ينظر إلى ورائه ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ بالنصب استثناء من قوله ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ويدل عليه قراءة عبدالله ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ وضميرُ إنه للشأن و﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ مبتدأ ﴿مُصِيبُهَا﴾ خبره. والجملة خبر إنّ ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ﴾ موقع العذاب، وإنما جعل ميقات عذابهم لأنه موقع الراحة وما من أحد إلا ﴿الصُّبْحُ﴾ أي موعد هلاكهم الصبح ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ تأكيد للتعليل المأخوذ من الجملة السابقة. فإن قرب الصبح داع للإسراع بالتباعد عن

وهو نائم في ذلك الوقت، فيكون العذاب أشملَ، أو لأنه وقت الراحة ومجيء العذاب في وقتها أفَظع وأشَد وقعاً ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي أمرنا بالعذاب أي وقته ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وضمير عاليها سافلها لمدائن قوم لوط المعلومة من السياق وهي المؤتفكات، وهي خمس مدائن: ميعة، وصَعْره، وعَصره، ودَوْما، وسَدوم، وهذه أعظمها وكان فيها لوط عليه السلام.

والمروي أن جبريل عليه السلام قلع المدائن بيده بالقدرة المودعة له، في صورة بركان هز المدائن وقلعها من محلها وطيرها الى ارتفاعٍ بقدرٍ ما شاء الله، فَقَلبها من فوق وحطها في محلها فكان ما كان.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي على المدائن أو على شذاذ أهلها ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ والسجيل الطين المتحجر، وذلك زيادة في تفظيع حالهم أي إنه لم يكتف بقلبها بل زيد عليه مقدار آخر حتى لا يتوهم خروج شيء من آثار القوم الهالكين ﴿مَنْضُودٍ﴾ أي نضد ووضع بعضها على بعض مهيأً لعذابهم، أو نُضدَ في الإرسال ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي مُعْلَمَة للعذاب. وقيل: مُعْلَمَةً ببياض وحمرة. أو بما تتميز بها من حجارة الأرض، أو باسم من يرمى بها. ولا شك أن التسويم كان من الله سبحانه وتعالى، أي في خزائنه الغيبية العلمية، أبْدَعَها متى شاءَ، أو في خزائنه الحسية المغيبة عنا ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فإن الطريد يرمى بالحجارة زيادة في التحقير والخسارة. والمواد الحديدية من الحجارة جنسا، وإن لم تكن من نوعها وإمطارها على الناس الظالمين تطبيق للمقررات الإلهية كما يراها الناس في عصرنا.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)﴾

قوله تعالى ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرْسلنا إلى أولاد مدين ابن ابراهيم ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ نسيبهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فلا تشركوا به أحدا ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ عند المُعاملة أي لا تنقصوا حجم المكيال والميزان أو لا تنقصوا الناس من المكيال والميزان بأن تكيلوا الناس وتزِنوهم مخسرين وتكيلوا وتزنوا منهم مستوفين ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي متلبسين بمال زائد وثروة واسعة فلستم في حاجة إلى أمثالِ هذه اللّجاجة ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ أي عذابا في الدنيا أو في الآخرة لا يُخلص منه أحدٌ منكم إن خالفتموني فيما نصحتكم به.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي وأتِموهما بالعَدل من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي ولا تُخْسروا الناسَ في ما يتعاملون عليه مكيلاً أو موزونا أو معدوداً أو مذروعا ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولا تُفْسِدوا فيها بتنقيص الحقوق حالكونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ لها ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ﴾ أي ما أبقاه الله لكم من الحلال ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مما تجمعون من المال بالغش والخديعة ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

أحْفَظُكم من القبائح بَل عليكم حفظ أنفسكم منها.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا﴾ من الأصنام ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أو أن نترك فِعْلَنا ما نَشاء في أموالنا من التطفيف وغيره ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ على ما علمنا من صفاتك سابقا فكيف تأمر وتنهى على خلاف ما يقتضيه الحلم والرشد. أو جملة خبرية واستعارة تهكمية كما تقول للضعيف أنت قوي عزيز. أو قدر فيها الاستفهام الإنكاري أي أَأِنك لأنت الحليمُ الرشيدُ؟ وليس غيرك موصوفا بهما حتى تتحامل علينا بهذه العبارات.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي كنت على حجة دالَّةٍ على صدقي في دعوى الرسالةِ واستحقاقي لنُصحكم ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي ورزقني منه النبوة والرسالة والحكمة وانشراح الصدر، هل يصح لي أن أترككمْ ولا أبلغكم رسالاتي

والأحكام التي أُمرت بتبليغها ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يعني ولا أريد على عادة الحيالين الذين يَنهَوْنَ الناسَ عن بعضِ الأمور، ورأيهم على خلافِ ما يقولون ويرتكبونها غياباً، فأنا لا أريدُ أنْ أخالفكم في تلك الأمور وأميلُ غياباً إلى ما أنهاكم عنه، بل عقيدتي وإيماني على أنّ ما ترتكبونه فاسد ولا ينبغي للعاقل ارتكابه، ولستُ بمرتكب له بتوفيقِ الله تعالى ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ أي ما أريد بما أقوله لكم إلَا إصلاحَكُم وإصلاح عقيدتكم مِن الإشراك إلى التوحيد، ومن الخيانة إلى الأمانة والانصات ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي مدة استطاعتي لذلك ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي وما تيسير الأسباب لي موافقا لما يرضاه ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وعونه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت في كافة شؤني ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع في تحصيل ما أعْمَلهُ أو أنا راجع إليه بكل قواي بالمعنى الكامل للإنابة.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ أي لا يَحْملنكم ولا يُكْسِبَنّكم شقاقي ومعاداتي لكم ووقوعي في شق مقابلٍ لشقكم أي استمراركم في العناد والكفران وعبادة الأوثان ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ مصيبة ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق بالطوفان ﴿أَوْ﴾ أصاب ﴿قَوْمَ هُودٍ﴾ من الهلاك بالريح العاصفة ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الهلاك الرجعة والزلزلة والصيحة المفاجئة. فكلمة لا للنهي ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بمعنى يكسبنكم من باب الإفعال و﴿شِقَاقِي﴾ فاعله، ونسبة الفعل إليه مجاز عقلي و﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ في تأويل المصدر ومنصوب بنزع الخافض أي على أن يُصيبكم، ومثل فاعل له ومُضاف إلى ما بعده ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ زماناً وهلاكهم معلوم لكم، ولم يكن الّا من ارتكاب الفواحش والتمرد على النظام الإلهي.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ الذي خلقكم من عبادة غيره ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ واختَصُّوا به بكل قلوبكم ليغفرلكم ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وربكم ﴿رَحِيمٌ﴾ عظيم الرحمة جسيم النعمة ﴿وَدُودٌ﴾ كثير الود والمحبة فيتوب على من تاب ﴿قَالُوا﴾ أي أولئك المتمردون لشعيب مع سلاسة كلامه وسهولة معناه واشتماله على غاية الرقة والموعظة، استهزاءً وسخريةً، أو استهتاراً وتعنتاً به ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ والمقصود إنك تتكلم معنا كثيرا، وكثير من كلامك غير مفهوم لنا وما لا يفهم كثيره لا يفيد يسيره ﴿وَإِنَّا﴾ إذا استمعنا لكلامك استمعنا له تَرَحُّماً مِنّا وشَفَقَةً عَليك لا تَرَهُّبا منك لأنا ﴿لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا مَنَعَةَ لك ولا قُدرةَ وراءك تَنْصُرُك ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ ورعاية جانبهم لبعض الاعتبارات ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ بالحجارة حتى تموت محقرا ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ومحترم حتى نتأسف عليك بعد موتك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92)﴾

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام بعدما استفاد من كلامهم المبني على سلب جميع وجوه المنع من رعايته إلّا رعاية رهطه وملاحظة عزتهم عندهم: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ مع أن العزة لله جميعا ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ لعدم اعتدادكم به وبرسوله الذي لا يبلغ إليكم إلا ما أمر به ﴿وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي شيئا منبوذا إلى ما وراء الظهر لا يُنْظَرَ إلَيه وكادَ أن يكون منسيا؟ والظهري منسوب الى الظهر، وأصله المرمى إلى الظهر، والكسر من تغييرات النسب، كما يقال في النسبة الى أمس إمسي بكسر الهمزة. وإلى الدهر دُهري بضم الدال. ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم بكل

ما فيه من الطغيان والتمرد والغرور والتباعد من الحق وقد جرت سنته على نصرة دينه والقائمين به بحق.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا بكل قوة على قدر مكانتكم واستطاعتكم ولا تقصروا في ما تريدون من التمرد على الله وقضاء ما يقتضيه طبعكم وإيذائي و﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي حسبما يؤيدني ربي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ إخزاءً أفظع مما هَدَّدتمُوني بهِ مِنَ الرجم بالحجارة فإن رَجمَ شعبٍ أخزى من رجم شخص ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾هل أنا كما كان يظهر من نسبة دعواي إلى الهراء والهذيان وغير المفهوم، أو أنتم وأنتم أهل الافتراء والكذب على الله كما هُو معلوم؟ ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ لِما يجري في المستقبل ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾لما يجري فيه.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بتعذيبهم ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وهو الإيمان الذي كانوا مختصين به بين القوم ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإشراك والانهماك في الشهوات ﴿الصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبرائيل الأمين على القوم الخارجين على الرسول الأمين، فهي كانت صيحة على الحقيقة، وكذا إذا كانت الصيحة صيحة صاعقة نارية سماوية عليهم. وما جوزه البلخي مِن

أن المراد بها نوعٍ من العذاب، والعرب تقول صاحَ بهم الزمان إذا هلكوا مجازاً، مأخوذ من هذه الحقيقة فافهم هذه النكتة فإنها دقيقة.

﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أي قوم شعيب عليه السلام ﴿فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هامدين ميتين، وهنيئاً بموتى القلوب مَوْتُ القوالب وصاروا في انمحاء الآثار ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي في تلك الديار. ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ والكفارُ كلهم مَصيرُهم النار.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آَلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآَخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا﴾ وهي الآيات التسع: العصا واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص

في الأموال والأنفس ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي المعجزات الباهرة التي قهرت أشَدَّ الناس في الديار ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ ينهى فرعون عن الجريمة العظيمة الشنعاء التي كان يدعيها من أنه رب الناس وآلهتهم وملأه من أتباعه فيها، وعن سائر المعاصي التي كانوا يرتكبونها من إيذاء المستضعفين، ويأمر بإطلاق سراح بني إسرائيل من القسر والأسر ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي اتبعوا أمر فرعون ببقائهم على الكفر وإطاعة نفسه والتمرد على موسى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي براشد.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي يتقدم على قومه يوم القيامة إلى جهنم فيورد قومه النار السعير الملتهبة وهو أمامهم ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ وبئس الشراب الذي يتناولونه نار جهنم. فإن الورد عبارة عن شراب يوتى به لتسكين التهاب العطشان. والنار تزيد من الالتهاب وتفتت الأعضاء والأكباد ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ أي فرعون وملأه ﴿فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم الصالحة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي بئس العطاء المُعْطى لهم. والرفد بمعنى العطية ويأتي بمعنى العون. وفي الآية استقباح وتحقير فوق التحقير ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما قصصنا عليك من أنباء الأمم السابقة ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ الـمُهْلكَة بالعذاب ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ لننورك بالعلم بها وتبليغها كاملة إلى الناس كي يتعظوا فيسلكوا مسلك الخير وهو الإسلام الموجه إلى دار السلام ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ لم يحصد بالخسف ﴿وَ﴾ منها ﴿حَصِيدٌ﴾ قد خُسِف ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي أهل القُرى ﴿وَلَكِنْ﴾ هُمْ ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بترك اتباع الرسل في بيان السبل ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آَلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ﴾ أي يعبدونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئا من الإغناء أو شيئا من الأشياء ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي وقت ورود العذاب عليهم من أمر

ربك ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ أي الآلهة ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي غير تخسير وجعلهم في الخسارة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكالأخذ للأقوام السابقة أخذ الأقوام إذا أخذهم الله تعالى في حال ظلمهم واستغراقهم في ظلمات جهالاتهم ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي أن أخذ الله للفرد وللأمة وجيع لا يرجى منه الخلاص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ النبأ المقصوص عليك ﴿لَآَيَةً﴾ وعبرة ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآَخِرَةِ﴾ فإنه هو الذي يتعظ بأخبار الهالكين بالعذاب ﴿ذَلِكَ﴾ أي يوم القيامة المفهوم من عذاب الآخرة ﴿يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي يجمع فيه الناس كلهم الجن والإنس للمحاسبة على المكاسب وأخذ الجزاء على المراتب ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي يوم القيامة يوم مشهود فيه، يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109)﴾

قوله ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي وما نُؤخر ذلكَ اليومَ الملحوظ بعنوان الجمع والشهود إلا لانقضاء مدة محدودة في علمي

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلكَ اليَوْم بانقضاء أجَله ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ أي لا تتكلم نفسٌ بما يفيدها النَّجاةَ من الحساب أو الميزانِ أو الشفاعة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي إلّا بإذن الله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي فَمِن أهل الموقِفِ إذ ذاك صنف شقيّ وصنفٌ سعيدٌ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ والزفير: إخراج النَفَسِ، والشهيق: ردّه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في تلك النار ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ والمراد بالسماوات والأرض سماوات الآخرة وأرضها لأن كل مسلم عاقل يعلم أن عالمي الجنة والنار عَالمان عينيان مَوْجُودان محققان، وكل موجود عيني من الممكنات التي تدخل في حيطة الزمان والمكان، له أرض تقله وسماء تظله، ألا ترى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾... الآية ولا شك أن من تبوأ في الجنة حيث شاء له سماء حيث كان، وكذلك أهل النار له محل للاستقرار بالنسبة إليه أرض وفوقه شيء يظله وغيره وهو السماء. وصحة إرادة ذلك مما لا ينبغي أن يتنازع فيه مؤمنان. وقد يقال: إن ذلك الكلام عبارة عن التأييد وعَدَمِ الانقطاع على نَمط قول العرب. (لا أفعل كذا ما لاح كوكبٌ وما أضاء الفجرُ وما اختلف الليل والنهارُ). إلى غير ذلك من كلمات الاستمرار والتأبيد.

وقوله تعالى ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الضمير المستتر في خالدين وتكون ما واقعة على نوع من يعقل كما في قوله تعالى ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أو واقعة على من يعقل على مذهب من يرى وقوعها عليه مطلقا، والمراد بما شاء بمعنى من شاء فُسّاقُ المُوحدين فإنهم من الأشقياء بالمعنى العام ويَدْخلونَ النارَ، ولكنهم يُخْرَجُون منها بعد مدة عذابهم كما نطقت الأخبار. وذلك كاف في صحة الاستثناء وإن لم يشمل أحدا من

أشقياء الكفار لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض أو يراد الكفار أيضا، والاستثناء لانتقالهم من النار إلى الزمهرير.

والحق الذي لا يجوز غيره هو أن الاستثناء في الآيتين مبني على مذهب أهل الحق المقرر في العقائد من أن الله تعالى لا يجب عليه شيء وهو المختار في كل أفعاله فيجوز له أن لا يعذب الكفار أبدا، كما يجوز له أن لا يثيبَ المؤمنين. فالاستثناء معناه استثناء من شاء أن لا يعذبه من الأشقياء لكن ذلك لا يقع لإخباره تعالى بأنه لا يغفر أن يشرك به، فالاستثناء حينئذ في قوة التعليق بالمحال لأنه أخبر بأن مشيئته لذلك لا تتحقق أبدا. ويناسب ذلك جدا قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ فلو شاء لهدى الناس جميعا ولو شاء لأخرج الكفار من النار، لكنه لا يشاء ذلك لما تواتر من الآيات والأخبار.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي ما دامت سماوات الجنة وأرضها، أو أنه مبني على ما جرت به عادة العرب، وإن قلت في الإيجابيات كقول القائل: أنا خادمك ومحبك ما دامت السماوات والأرض. وقوله تعالى ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي إلا من شاء الله تعالى أن يخرج عن الجنة ويسيح في ملكوت العالم الموجود أو يتشرف بلقاء الله المعبود، فإن أهل الجنة طلقاء في عالم البقاء. ويناسب ذلك قوله ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي عطاء غير مقطوع عنهم ﴿فَلَا تَكُ﴾ الخطاب للحبيب، أو لكل مخاطب يخاطبه ﴿فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ أي فلا تشك في أن عبادتهم لهم ضلالة وجهالة ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم المبنية على تقليد فاسد وهَوىً كاسد ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ أي وإنا لموفوهم نصيبهم من العذاب بلا نقصان.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي في أنه من عند الله أو من موسى نفسه، فآمن به قوم، وكفر به آخرون، فلا تبال باختلاف قومك في القرآن الكريم، فإن الناس ناس، والشيطان لباس. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ولولا كلام سبق من ربك في القضاء بتأجيل العقاب على المستحقين ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المخلتفين في التوراة، وكذا في القرآن الكريم، ولكن القضاء سبق فلم يقض بينهم عاجلا. والمقدم والتالي متساويان فصح إنتاج رفع المقدم لرفع التالي ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي كفار قومك ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع لهم في الريبة. ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي وإن كلّا من الفريقين المختلفين المؤمنين والكافرين لمن جمع والله ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي ببواطن أعمالهم خبير فلا يفوته الجزاء ولا مقداره. فكلمة إن مشددة، وكلا اسمه منصوب والتنوين عوض عن المضاف اليه، أي كل الفريقين۔ وأصلُ لما بالتشديد: لمن ما باللام المفتوحة ومِنِ الجارة، وما الموصولة، بمعنى الجمع أو الفريق، قلبت النون بما لتوالي الأمثال، وحذفت إحدى الميمات، وأدغمت إحدى الميمين في الأخرى، فما موصولة، وجملة ليوفينهم قسمية صلة الموصول، وهو وصلته خبر إن هذا.

وإنما فسرت الآية الكريمة على هذه القراءة أي بتشديد إن ولما لأنها قراءة ابن عامر وحمزة وحفص وأبي جعفر وهي القراءة الدائرة عندنا. ومما

يحسن هنا نقل عبارة الصاوي لإيضاحه المقام ونصها:
والاعراب السالم من ذلك كله أن يقال إن القراءات السبعية أربع تخفيفهما وتشديدهما (أي إن ولما) وتخفيف إن فقط وتخفيف لما فقط مع نصب (كلا) في الجميع. فعلى الأول إن مخففة من المثقلة وكلا إسمها واللام الأولى لام الابتداء وما اسم موصول، واللام الثانية موطئة للقسم محذوف، ويوفينهم جواب القسم، وجملة القسم وجوابه صلة الموصول، والموصول وصلته خبر إنْ.

وعلى الثانية إن عاملة ولما أصله لمن ما بدخول اللام على مِنِ الجارة قلبت النون ميما لتوالي الأمثال، وحذفت إحدى الميمات، وأدغمت إحدى الميمين في الأخرى، فما اسم موصول، وجملة ليوفينهم قَسمية صلة الموصول، وهو وصلته خبر إن.

وعلى الثالثة: فإن المخففة عاملة، وأصل لما لمن ما فعل بها ما تقدم.

وعلى الرابعة: إن المشددة عاملة، واللام لام الابتداء، وما اسم موصول، وليوفينهم جملة قسمية صلة الموصول وهو وصلته خبر إن، فتحصل أن إن عاملة، وما اسم موصول في جميع الأوجه كلها، واللام الثانية موطئة للقسم، والأولى لام الابتداء فتأمل. وما قررناه زبدة كلام طويل في هذا المقام فليحفظ.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115)﴾

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الآية... لما أطنب الباري سبحانه وتعالى في ذكر أحوال الأمم السابقة وتمردها، ثم إهلاكها في الدنيا والتوعد على تعذيبها في الآخرة، وأن ذلك داء عضال لا دوام لها إلا إطاعة الباري سبحانه وتعالى بإخلاص كامل في الاجتناب عن المحرمات والأداء للواجبات، وأن ذلك لا ينفع إلا مع الاستقامة والاستمرار.. قال تعالى خطابا لسيد العابدين المجاهدين المجيبين بقوله الكريم: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ إعلانا لأن ملاك النجاة من أهوال الدين وعذاب الآخرة هو الاستقامة على فعل الواجبات وترك المحرمات. ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص والزمان والمكان، وإن كان هناك قدر مشترك بين الكل من أركان الإيمان والإسلام وترك المحرمات. فالاستقامة بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على تبليغ الأحكام الاعتقادية والعملية والقيام بوظائف الرسالة وإلى غيره بما هو فيه ومكلف برعايته كما قال صلى الله عليه وسلم ((كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته))، وهناك حدثان شريفان مرويان:

أحدهما قوله صلى الله عليه وسلم: ((شيبتني هود وأخواتها)) وليس في الأخوات الأمر بالاستقامة. وإنما فيها ذكر الأمم وإهلاكها، ولكنه يضاف إليها في سورة هود قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ فكل من الموضوعين أي موضوع إهلاك الأمم والاستقامة في الدين من أهم المهمات، وإن كان الثاني أهم.

والثاني ((شيبتني هود)) وما روي أنه صلى الله عليه وسلم سئل: هل شيبك منها إهلاك الأمم؟ فقال: لا بل قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ليس معناه أن إهلاك الأمم لا دخل له في التشييب، بل أراد أن

الاستقامة هي أشد ما يخاف منها أن الاستقامة تنشأ عن صفة نفسية وهي مراقبة عظمة الله تعالى وأهمية مخالفته والانحراف عن شريعته، وذلك أمر عظيم وخطب جسيم كاد أن تذوب منه الجبال لو كان عندها إدراك الحال قال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي وليستقم من رجع معك إلى الله تعالى بالإيمان به وبوحدته والتزام الامتثال للأوامر والاجتناب عن المناهي.

وقوله ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي ولا تنحرفوا عن حدود الله تعالى وراعوها حق الرعاية ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي كل ما تعملونه من الخفايا التي لا تدرك بالعين فإنه عند الله مشهود، ويبصره الباري، فبصره وإن كان للبصارة لكنه يعمل عمل البصيرة أيضا، فيجازيكم على كلها خفيها وجليها ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي لا تميلوا أدنى ميل بالمحبة والوداد إلى الذين ظلموا أنفسهم بالإشراك وارتكاب المعاصي، والمراد بالموصول المشركون كما روى ذلك ابن جرير. وقد يفسر بما هو أعم من ذلك، ويشمل النهي حينئذ مداهنتهم وترك التغيير عليهم مع القدرة وتعظيم ذكرهم ومجالستهم بلا موجب شرعي، وقوله ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي سواء عملتم بما عملوا به أم لا، وذلك لأن الميل القلبي والمحبة المكسوبة بالنسبة إليهم محبة من حيث أنهم ظلموا، ومحبة الظالم من حيث أنه ظلم محبة لظلمه فتوجب عذاب النار. نعم إن الميل الغريزي كميل الوالد الى ولده الظالم الا من جهة ظلمه فلعله مسموح به، وإلا لم يخلص كثير من الناس عنه. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من أنصار يمنعون عذابه عنكم، ويبقى عون الباري لكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد ميلكم إليهم ﴿لَا تُنْصَرُونَ﴾ من جهته تعالى لمخالفتكم له في ذلك.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي أد الصلوات المفروضة أداء حسنا ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ منصوب على الظرفية للأمر أي أوله وآخره، ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ والزلف جمع زلفة والمعنى ساعات قريبة من النهار، والمراد بطرفي النهار وقتا الصبح والعصر، وبصلاة الزلف المغرب والعشاء. فلا يدخل الظهر هناك. وارتضي بعضهم تفسير طرفي النهار بالصبح والمغرب، أما الصبح فبالحقيقة وأما المغرب فلان الطرف القريب من الشيء كأنه منه، وزلف الليل بالعشاء والتهجد. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ في قوة التعليل لما قبله، يعني إن الصلاة من الحسنات والحسنات يذهبن السيئات، والنتيجة، إن الصلوات يذهبن السيئات، والمراد بالسيئات الصغائر بدليل مورد النزول وهو أبو اليسر قال: أتتني امرأة تبتاع تمرا، فقلت لها: إن في البيت تمرا أطيب من هذا. فدخلت معي البيت فقبلتها، فأتيتُ أبا بكر ذكرتُ ذلك له، فقال: استُرْ على نفسك وتب ولا تخبر أحداً. فأتيتُ عُمَر فذكرتُ ذلك له فقال: استُرْ على نفسك وتب ولا تخبر أحداً. فلم أصبر حتى أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فذكرتُ ذلك له فقال ((أخُنْتَ رجلاً غازيا في سبيل الله في أهلِه بمثل هذا؟ !)) وأطْرَقَ طويلاً حتى أوحِي إليه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ إلى ال ﴿ذَّاكِرِينَ﴾ فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلتُ: ألِيَ هذا خاصة ام الناس عامة؟ فقال: ((بل للناس عامة)).

وللمفسرين هنا آراء كثيرة يمل ذكرها. والقول الفصل أن اللام في الحسنات والسيئات إما للاستغراق أو للجنس المتحقق في ضمن البعض الغير المعين المفسر بالعهد الذهني، أو للجنس المتحقق في ضمن الأفراد بدون التعرض للكلية والجزئية أو للعهد الخارجي، ولا شبهة في أنها ليست للاستغراق، لأن كل حسنة مهما كانت لا تُذْهِبُ كلَّ سيئة، ولا للجنس

المتحقق في ضمن البعض الغير المعين لأنه بديهي تقريبا نظر إلى الأدلة الدينية العامة ولا يحتاج إلى الذكر، وليس للعهد الخارجي إذ لا جمع معهودا هنا. وإنما هناكِ في مورد النزول حسنة خاصة أذهبت سيئة خاصة، فتعين أنها للجنس المتحقق في ضمن الأفراد بدون التعرض للكلية والجزئية، كما في قولهم الرجل خير من المرأة، أي ما من مرأة إلا وفي الرجال من هو خير منها.

ومعنى الآية على هذا: إنه ما من سيئة إلا وتُذْهبها حسنة في مقابلها، فالكفر يذهبه الإيمان، والمعاصي التي عليها الحدود تذهبها حسنات إجراءِ الحدودِ، فإنها كما أن تطبيقها من جانب الإمامِ حَسَنَة كذلك التزامُها من جانب الجاني حَسَنة والأموال المغصوبة تُذهبها حسنة ردها، أو الاستعفاء من الغاصب والعفو من المغصوب منه. وترك الصلاةِ والصيامِ والزكاة يذهبه قضاؤها. والذنوب الصغائر تُذهِبها مكفرات كثيرة منها: اجتناب الكبائر، ومنها الوضوءُ، والصَلَوات النافلة، وصيام الايام المحبوب صيامها. فإن السيئة في مورد النزول أذهبتها صلاة الرجل، وذلك لأن الأدلة القطعية دلت على أن حقوق الناس لا بَراءةَ منها إلّا بردها أو الاستعفاء والعفو من الجانبين.
والأحاديث الواردة في تكفير بعض العبادات لجميع ما تقدم من ذنب العابد محمولة على ما إذا اجتنب الكبائر كما صَرَّحَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم بهذا الشرط في كثير من الأحاديث.

والتوبة الماحية للذنوب مشروطة بشروطها من: ردّ المظالم بقدر الإمكان، أو الاستعفاء من أصحابها وعفوهم عنها، وكذلك الواجبات الفائتة من الصلاة والصيام وغيرها يكفرها قضاؤها. نعم من ارتكب المعاصي أو كان عليه حقوق الناس، أو عليه حقوق الله تعالى ثم تندم عليها متأسفا تأسفا عميقا وعزم على عدم العود إليها، ثم حال دون أدائها الأجلُ أو الهَرَم المُفني والفقر المُدْقعُ بحيث لم يتمكن من أدائها وتوفاه الله فالمرجو من رحمته

الواسعة العفو عن جميعها، وذلك أيضاً للأدلة القاطعة الدالة على أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعَها. وهذه هي الطريقة السليمة الجامعة بين الروايات والأقوال الكثيرة المتضاربة في هذا الموضوع والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي ذلك البيان الشافي المذكور ذكرى وموعظة للذاكرين المتعظين فإنهم هم المُنْتَفِعُون بإلقاء الآيات البينات۔ ﴿وَاصْبِرْ﴾ أيّها الرسول على مشاق امتثالِ ما كُلفت به من التبليغ، والصبر على أذى المبلغين كما صبرَ أولو العزم من الرسل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ والصابرون هم الصف السابق منهم.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)﴾

قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ تحضيض فيه معنى التفجع اي فهلا كان!

أي لم يكن ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي من أهل القرون الفائتة من قبل زمانكم ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أي قوم ذَوو خصلة

باقية واقية من العقل وحصافة الرأي يَنهَوْنَ الناس عن الفساد في الأرض ويعاونون الرسل في مهامهم الصعبة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين هديناهم برحمتنا وجعلناهم متظاهرين على الحق واتّبَعُوا المرسلين، وأما الكثيرون منهم فكانوا ظالمين غير ناهين عن الفساد بل كانوا آمرين به وناهين عن سلوك سبيل الرشاد ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسَهم بعدم النهي عن الفساد ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي ما اُنْعِموا فيهِ مِن الثروة والعيش الناعم والشهوات الدنيوية ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي مرتكبي الجرائم مما لا يعلمه إلا العليم الخبير.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي وما صحّ وما وافق حكمة ربك حسب جريان عادته أن يهلك أهل القرى والمجتمعات بدوية أو حَضَرِيّة حالكونه تعالى متلبسا بظلم وأهلُها مُصلحون. أي في حالِ أنَ أهلها مُصْلِحون لِعقائدهم وأعمالهم ومُراعون لنظام العدل الإلهيّ. والمراد بها تنزيه الله تعالي عن ذلك على أبلَغ وَجْه، وإلا فلا ظلم منه تعالى فيما يَفْعَلُهُ بعبادِه مطلقا. أو المراد بالظلم التجاوز عن مُوافقَة العادةِ والأنظمة؛ فقتل الإنسان القاتل قصاصا ليس بظلم، وقتل الإنسان السالمِ ظلمٌ أو المراد بالظلم الشرْكُ. والمعنى أن الله لا يُهلِك القُرى بَسببِ إشراك أهلها إذا كانوا هُم مصلحين في أعمالهم، ولم يتجاوزوا حُدُودَ الحق في النظام حَتى خَرَجوا عنها وأضافوا إلى شركهم فُسوقاً وفجورا وطغيانا وغرورا.

ولذلك يقال (الدنيا تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الجور) وهذا ضعيف لأن الإشراك بالله تعالى أفسد المفاسد.

ومنه تتبع المنكرات والبغي والفحشاء فلا يكون الأهل مع الإشراك من المصلحين.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مجتمعين على الدين الحق، كما أنه لو شاء لجعلهم أمة واحدة مجتمعين على الكفر والضلال، ولكن مع إدخالهم في دائرة القسر والإلجاء، ولا فضلَ عند ذلك في إيمان المؤمن كما لا نقص في الكفر، لأن الاختيار لا يبقى مع الإلجاء وإنما يبقى ذلك الفرق في هذه الطريقة الجارية وهي أن الله تعالى خلق الإنسان على الاستعداد للجانبين، وأرشده إلى الخير وميزه عن الشر برسالة رسله، ووهب لهم العقول المميزة لهما، فمن صَرَف طاقته في الخير فهو فاضل ومن صرفها في الشر فهو سافل ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في اختيار أحد الطرفين في كل شيء، وتوحيد الناس إنما هو في الفترات المعينة بالقوة الغالبة عليهم قدسية كنور الأنبياء أو نفسية كسطوة الأمراء ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أي إلا من رحمة الله ربك بتوجيه قلوبهم إلى اتباع الحق، فهناك يتفقون عليه ويؤيد بعضهم بعضا، وعلى هذا الاتفاق نتج ما نتج من الخير والرحمة في أي عصر من العصور، فإن الناس إذا اتفقوا ملكوا وإذا اختلفوا هلكوا.

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي ولصيرورة حالهم وتوجهها إلى الاختلاف خلقهم لكن على معنى العاقبة لا على معنى الغاية، أي إن عاقبة أمرهم ذلك وهو الذي يعلم عواقبهم، وذلك لآيات كثيرة دالة على أن الحكمة في خلق العالم العلوي والسفلي والإنس والجن السعادة والعبادة. قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ والحقيقة أن الله تعالى خلق الإنسان والجن للعبادة والسعادة والخير ويحبها ولا يحب غيرها، إن الله لا يرضى لعباده الكفر، ولكنه عالم بأعمالهم وصرف استعدادهم، فيريد كل ما صرفوا فيه الاستعداد، ولكنه يحب الخير منها لا الشر. نعم إذا خص بعض عباده برحمةٍ فهو أهلها يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي نَفَذَ قضاؤه وعلمه إذ يستحيل جهلُ الباري بشيء من

الأشياء، وهذه الجملة متضمنة لمعنى القسم ولذا جيء باللام في قوله الكريم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ والجنة والجن بمعنى واحد، ويطلق كل منهما على الواحد والجمع وتاء الجنة للمبالغة. وإذا كان الجن يقع على الواحدِ فالجِنة جمعُه على ما قاله ابن عطية رحمه الله تعالى.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أي ونقص عليك كل نبأ من أنباء الرسل الدّارجة مع أمِتهم إجابة وردا. وقوله ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ عَطف بيانٍ للأنباء ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف، أي وهو ما تُثبت به فؤادَك على التزام ما أودعَ إليك ورعايتهِ بقدر الإمكان. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وجاءك في هذه السورة الأمر الثابت المطابق للواقع، وهو أن الله واحد لا شريك له وأنه أرسل الرسل لبيان السبل، وأن من تمرد عليهم وعاندهم فعاقِبته الهلاكُ، وأن الله قادر على كل شيء ومريدٌ لكل ما كان ويكون. وأنّ مَنْ عَمِل الخير فجزاؤه خير ومن عمل الشر فجزاؤه شرّ، وأن الله يجازي المكلفين بالجنة والنار حسب الاستحقاق ولا شك أن ذلك موعظة وذكرى للمؤمنين المتثبتين في اعتقادهم وأعمالهم.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي قل لهم: اعملوا كلّ ما تريدون عمله في معارضة الرسالة الإلهية على كل إمكانيتكم وجهات قدرتكم ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على مكانتنا وجهات قدرتنا في

تبليغ رسالتنا ﴿وَانْتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أن يحيق بكم ما يُبيدُكُم، والأمر للتهديد، وقد حاق بهم ما لم يترك لهم أثراً إلا في الحكايات.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أيْ وفي قبضة قدرته كل ما غاب عنكم وثبت في السماوات والأرض وفي دائرة علمه، وهو قادر على أن يتصرف فيها ويَجعلَ بعضها وسيلةً لإنماءِ البَعْض أو لإمحائه.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي إلى الله لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُ الْأَمْرُ﴾ والقضاء والقدر بالسلب والإيجاب ﴿كُلُّهُ﴾ فيرجع بلا شبهة أمرك وأمرهم إليه تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فاعبده وحده وتوكل واعتمد عليه في منع الأعداء ورد البلاء وجلب النعم والآلاء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم ويعملون هم.

سورة يوسف، مكية، وهي مائة وإحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآَنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)﴾

قوله تعالى ﴿الر﴾ الكلام فيه كما في أشباهه ﴿تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ﴾وتلك إشارة إلى آيات السورة المعلومة لله المنزلة لنا منزلة المحسوس. و﴿الْمُبِينِ﴾ من أبان بمعنى بان أي ظهر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي ذلك الكتاب حالكونه ﴿قُرْآَنًا عَرَبِيًّا﴾ أي مقروءً على الألسنة عربيا باعتبار المفردات

وأساليب التركيب، ولا يقدح في ذلك التوصيف أمثالُ التنور والسجيل، إما لأنّها من أصلِ اللغة العربية، وإن وافقتْ سائرَ اللغات، وإما لأنها مُزِجت وأُدرِجت في التركيب المفهوم المعنى بحيث لا يتصور عربي أنَه غير عربي.

والقرآن: اسمُ جنسٍ يقع على الكثير والقليل، فكما يُطْلق على الكل يطلق على البعض، نعم إنه غَلَب على الكلّ عند الإطلاق معرفا لتبادره. وهل وصلَ بالغلبة إلى حد العلمية أولا؟ فيه خلاف، والحق أنه يستعمل للكل ولكل جزء مركب منه، فالقول بالوصول إلى حد العلمية للكل بعيدٌ. وقد يقال إن له وضعين وضعاً للكل ووضعا لما يعمه. والبعض أعني اللام المنقول في المصحف تواترا كما ذكر في كتب الأصول.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا معانيه وتحيطوا بدقائق أسراره البلاغية، أو تعقلوا أن هذا الكلام المنزل باللغة العربية ليس من كلام البشر، فإن البشر لم يتكلم بهذا الأسلوب لا من حيث المجموع، ولا من حيث تركيب سورة من أقصر سُوره كما تحدى بها ربُّ العالمين الجن والإنسَ، فلم يأت أحد بما يدانيه. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي نحكي ونذكر لك أحسن حكايةٍ وذكرٍ إن كان القَصَص مصدراً بمعنى الاقتصاص. أو أحسن ما يُقَصّ ويُحكى اِن كان صفةً مشبهة على فعل كالقبض بمعنى المقبوض.

ووجه كونه أحسنَ اشتمالُه على العجائب الكثيرة: منها أن الحسد غريزة وقلما يخلو منه أحد. ومنها أن الرؤيا حق، وأنّ كتمها عن الحاسدين مستحب، ومنها أن أثر النجابة والكرامة يبدو من أوائل نشوء الإنسان. ومنها أن الأولاد قد يتجاسرون على الآباء فيما كان هناك تصور منافع مادية.

ومنها أنهم لا يهتمون بقدسيتهم وذلك لمزيد الألفة وارتفاع الهيبة عن صدورهم. ومنها اتقاء مواضع التهم بقدر الإمكان. ومنها اختيار النَّصب على زوال الحسب. ومنها اشتمالها على سير الملوك والمماليك ومكر النساء.

ومنها دفاع الله سبحانه وتعالى عن كرامة أهل العفة واظهار براءتهم عن التهم. ومنها العفو بعد الاقتدار. ومنها، وهو أهمها، أن لا ينقطع رجاء البائس عن رحمة ربه مهما بلغ الأمر. ومنها أن للأمور المقدرة أسبابا مقررة لا يعلمها إلا الله. ومنها أن الله غالب على أمره وإذا أراد إعزاز عبدٍ أعَزّه او اراد إذلاله أذله... إلى غير ذلك من الأمور.

ولا يلزم أن يكون أحسن القصص مطلقا لجواز اعتباره بالإضافة إلى بعض أوجه الاقتصاص إذا كان القصص مصدراً، وإلى بعض قصص وحكايات إذا كان صفة مشبهة، أو أن يعتبر بالنسبة إلى هذا الموضوع بالذات، وان كان موضوع ذكر الإلهيات ذكر الإلهيات مثلا أرفَع وأحْسَنَ من كل ما يقص ويحكى.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآَنَ﴾ أي بإيحائنا إليك هذه السورة ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي وإن كنت قبل حكايتنا لك من الغافلين عن هذه القصة ولم تخطر ببالك ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ منصوبٌ بإضمار أذكر، أو بدل من أحسن القصص بَدَلَ اشتمال لاشتمال الظرف على المظروف ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿يَا أَبَتِ﴾ أصله يا أبي فعوض عن ياء المتكلم تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ رأيت من الرؤيا الحلمية لا من رؤية البصر بدليل قوله ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ روي عن جابر رضي الله عنه فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت، فنزل جبريل فَأخبَره بذلك فقال صلى الله عليه وسلم: إذا أخبرتك

فهل تُسلم؟ قال: نعم. قال: جَرِيّانُ، والطّارِق، والذيّال، وقابِس، وعمودان، والفَليقُ، والمِصْبَحُ، والضَّروح، والفَرْغ، ووثّاب، وذو الكتفين. رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له. فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها.
وهذا الحديث، وإن أنكره أبو ذرعة وابن الجوزي، وقال إنه منكر موضوع، لكن قال الحاكم: إنه صحيح على شرط مسلم. وجملة ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ إما تأكيد للأولى لطول العهد، وإما استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها يوسف عليه السلام ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ تصغير ابن صغره لصغر سنه إذ ذاك لكونه ابن ثنتي عشرة سنة، أو للشفقة ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمة لا تقدر على دفعها، أو دقيقة لا تعلم بها حتى تدفعها ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة فلا يقصر في تمويل إخوتك وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على ما لا تُحمد عواقبه لا سيما وأن إذلال أهل بيت النبوة يحصل به فجوة واسعة لشياطين الإنس وبث السموم في قلوب المسلمين البسطاء.

وفي حقيقة الرؤيا أقوال وآراء في حاشية السيالكوتي على شرح المواقف ما نصه: في الطيبي شرح المشكاة قال المزنى: مذهب أهل السنة أن حقيقة الرؤيا خلق الله في النائم اعتقادات كخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ولا يمنعه نوم ولا يقظة، ويخلق هذه الاعتقادات علائم على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال كالغيم عَلَما على المطر انتهى. والمراد بالاعتقادات ما يعم المتخيلة والمتحققة ليشمل القولين المذكورين في المتن أعني كونها خيالا باطلا أو حقا. إنتهى.

وفي روح المعاني بعد نقل ما تقدم وقيل: هي أحاديث الملك الموكل بالأرواح إن كانت صادقة، ووسوسة الشيطان والنفس إن كانت كاذبة،

ونسب هذا إلى المحدثين وقد يجمع بين القولين بأن مقصود القائل بأنها اعتقادات يخلقها الله تعالى في قلب النائم أنها اعتقادات تخلق كذلك بواسطة حديث الملك أو بواسطة وسوسة الشيطان، مثلا المسببات في المشهور عن الأشاعرة مخلوقة له عند الأسباب لا بها فتدبر. وقال غير واحد من المتفلسفة: هي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك. والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك. ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبها فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة. ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت عن التعبير وإلا احتاجت إليه.

والذي أعتقده: هو أن عالم المثال الذي يقول به الأولياء الكاملون موجود، سواء كان هو اللوح المحفوظ او غيره، وفيه صور جميع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، بل وما يجري فيه من صورة البعث والحشر والنشر والحساب، والعبور على الصراط، والجنة والنار، وما ناسبهما.

ووجودها فيه بحيث لا يعلمها إلا من كوشف بإدراكها والإطلاع عليها، والنفس الناطقة الإنسانية كيفما كانت مشغولة في حال اليقظة بتدبير البدن وما يحتاجه عادة. وإذا فرغت عنه بواسطة النوم تفرغت وتعلقت بذلك العالم وعلمت وأدركت ما شاء الله إدراكها له من الصُّور، فإن كانت النفس صافية عن الموانع والأكدار في تلك الحالة رأتها وحفظتها كما هي، وبعد الانتباه يستحضرها واضحة لا تحتاج إلى التعبير، وإذا كانت مكدرة بالعوارض والموانع من أي جانب كان أدركتها بصور تناسبها، وتحتاج إلى التعبير والتفسير، وقد لا تدركها الا بعينها ولا بالصور المناسبة، بل تدركها إدراك الجاهل بالجهل المركب، فلا يستفيد هو منها مطلقا. ومثال ذلك ملاحظة طلاب العلوم

للكتب العالية؛ فمنهم من يفهمها حق الفهم، ومنهم من يفهمها أدنى من ذلك، ومنهم من لا يفهم منها شيئا إلا ما سولت له نفسه وعبرت له بالعلم وهو الجهل المركب المشهور.

وسر النهي في قول يعقوب عليه السلام ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ أنه علم بالوحي أو فهم من حسن صورته وسيرته أن له حظا من النبوة والرسالة وأنه إذا قص عليهم رؤياه فهموا ذلك لظهور تعبير رؤياه واحتالوا عليه بما يخاف منه. والرؤيا مصدر كالرؤية ولكنها مختصة بالرؤية الحلمية فميز بينهما باختصاص كل بعلامة من علامتي التانيث وهي التاء للبصرية والألف للحلمية كالفرقِ بين القُربَة بمعنى التقرب إلى الله، والقُرْبى للقرابة النّسبية.

والإخوة جمع الأخ والمراد بهم الإخوة الذين يخشى عواقبهم وغوائلهم. و﴿يَكِيدُوا﴾ منصوب بأن مضمرة لوقوعه في جواب النهي وعدي باللام مع أنه متعد بنفسه لتضمنه معنى الاحتيال. والتأكيد بالمصدر وتعليل الحكم بالجملة بعد للاهتمام.

ومما ينبغي أن يعلم هنا أن الذي عليه الأكثرون سلفا وخلفا أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء أصلا، وليس في القرآن الكريم، ولا في ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم أن الله تعالى نبأهم. والمراد (بالأسباط) في آيتي البقرة والنساء ذرية يعقوب عليه السلام لا أولاده من صُلبه. وقوله تعالى ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ صريح في أن المراد بالأسباط هم الأمم من بني إسرائيل من ذرية يعقوب لا أولاده من صلبه. وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، وإنما سموا أسباطا من عهد موسى عليه السلام ومما يؤيد ذلك أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية

إبراهيم قال ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ولم يذكر الأسباط. ولو كان إخوة يوسف قد نبئوا كما نُبئ لذكروا كما ذكر.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي وكما اجتباك واختارك لهذه الرؤيا الدالة على عاقبة حسنة لك يختارك ربك للنبوة والملك ولأمور هامةٍ تقوم بها. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ ربك ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي من تأويل غوامض كتب الله تعالى، وسنن الأنبياء، وكلمات الحكماء والآراء الواقعة في إدارة الملك وسياسة الأمة من الأصول الجارية المحكية المحتملة لوجوه كثيرة فتفهم الحق منها وتطبقها. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بأن يضم إلى نبوتك واجتبائك لها الملك والاحترام وكثرة الذرية والنسل ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ بالخلاص من المكاره من القحط والبلاء وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصى ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ فأتم النعمة على إبراهيم بانتصاره في المناظرة مع نمرود، وإنجائه من النار، ومن سيطرة أعوانه على أتباعه المهاجرين، ومن ميلان قلب ملك مصر إليه بعد الهجرة، وإلهامه أن يذهب بإسماعيل وأمه إلى أرض مكة وحفظ الباري لهما حفظا لا يدانيه حفظ، وبإنجائه من ذبح إسماعيل، وبتوفيقه لبناء الكعبة الشريفة... إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله، وعلى إسحق بإخراج يعقوب من صلبه وتكثير الذرية الكبار في الدنيا والدين من نسله او غير ذلك مما هنالك. ولا يلزم من إتمام النعمة على آل يعقوب اختيار أولاده من صلبه للنبوة غير يوسف لأن المراد بالآل معنى عام يشمل أولاده الصّلبية وغيرهم من الذرية القريبة أو البعيدة، وكان فيهم ما كان من المُلْك والنبوة ويكفي ذلك لإتمام النعمة عليهم، ولا يلزم من التشبيه اشتراك الطرفين في كل ما يتحقق به المناسبة والمشابهة وذلك واضح لدى كل ذي بصيرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء و﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعله.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آَيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10)﴾

ولما ذكر الباري سبحانه وتعالى ما ذكر من رؤيا يوسف عليه السلام وحكايته لها عند أبيه ونهيه عن بيان القصة عند إخوته علم الناسُ أن هناك وقائع هامة وانتظروا بيانه. فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ المذكورين من أبيه ﴿آَيَاتٌ﴾ علامات عظيمة في الدلالة على قدرته القاهرة الباهرة على حفظ مَن شاء وتدريجه على مدارج الصعود إلى حيث يشاء بحيث يعجز عن الإحاطة بأسراره قلوب العارفين. وتلك الآيات نافعة ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ الطالبين لكشفها المعتبرين بها، وإلا فالكلام مع من ليس له طلب واهتمام كالكلام مع القوم النيام. ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ حيث يألفهما ويخصهما بالكلام والدَلال وحُسْنِ المقال وبذل المالِ وغيرِها من الأحوال ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي والحال أنّا أولادَ يعقوب من غير أم يوسف جَماعَةٌ أقوياء على العمل لكسب المعيشة وقادرون على حماية البيت وخدمة الضيوف وطرد الاعداء. والعصبة عشرة فما زاد ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ واضح اذ يخصه وأخاه بمزيد العناية ونحن احق بها منهما. ومن جملة مقولهم ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ حتى لا يبقى له أثر ما ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعيدة من العمران، مهجورة عن العبور عليها حتى يموت

﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ مجزوم بحذف اللام على أنه جواب الأمر، أي يْصُف لكم ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ ولا يزاحِمُكُمْ في التوجه إلينا غيركم، أي وأمّا بنيامين فنظره إليه بالتبع لا بالاصالة ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي مِن بَعْدِ موته، أو بعده عن أبيه ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تائبين إلى الله، ومسامحين مع أبينا بجلب قلبه إلينا.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ أي أحد الإخوة المجتمعين للتآمر عليه وإبعاده عن وجه أبيهم ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ لأن القتل جريمة كبيرة وهو أخونا ومعصوم ويُورِث قتلهُ موتَ أبينا من الأسف، وفي الغائب أمَل.

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ أي في قعر البئر وغوره. والظاهر أن الجبّ كان معهودا بينهم، ولم يكن ماؤه مُغْرِقاً، وإلا فهو قتل بغير المحدّد. وقال الهروي: الغَيابة في الجبِّ شِبْه كهف أو طاق في البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون، والجُبُّ الرَّكِيَّةُ التي لم تُطْوَ، فإذا طُويت فهي بئر ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي يأخذه على وجه الحفظ والصيانة عن الضياع بعض جماعة تسير في الأرض ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي إن كنتم عازمين على تفريقه من أبيه واتفقوا على هذا الرأي كما سيظهر من النص.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15)﴾

ولما اتفقوا عليه ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي شيء حصل لك حالكونك لا تَجعلنا أمناءَ على يوسف مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا؟ وظاهر الكلام أنه سبق منهم سؤال أن يخرج معهم فلم يرض أبوهم به ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ نريد به الخير والنمو في الجسد والعلم والأدب ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ﴾ مجزوم في جواب الأمر أي يتسع في أكل الفواكه أو المواد الصحراوية ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بوجوه الألعاب الدائرة إذ ذاك ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ أي قال: لا أرضى بذلك لأمور، منها: أنه يحزنني بالتأكيد أن تذهبوا به الى الخارج ويفارقني، لأن مفارقته أصعب شيءٍ على نفسي. ومنها أنه أخاف أن يأكله الذئب. والمشهور أن الأرض كانت مَذأبةً ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لاشتغالكم بألعابكم، أو لذهابكم الى الاصطياد، أو لغير ذلك. وجاء بهذه الجملة تنبيها على أنه لا يتهمهم بالخيانة، وإنما يخاف عليه من السباع الضارية في وقت غفلتهم عنه.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي قالوا: والله لئن أكله الذئب والحال أنا جماعة مُستعدة لمراقبته حتى لا يتعدى عليه الذئب، وإن تعدى عليه فمن شأننا أن ندفعه عنه ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ أي ضُعفاء مغبونون، أو واقعون في الخسارة المادية والمعنوية بإضاعة أخينا وإزعاج أبينا وتشهيرنا لأنفسنا بالضعف وعدم الإفادة ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ الجبُ: البئر التي لا حجارة فيها من الجب وهو

القطع، وغيابتها حفرتها وقرارها. وسميت الحفرة غيابة لغيبتها عن النظر. وهو مصدر مفرد على وزن فَعالة بفتح الفاء كزهادة، وقرئ بالإفراد وهو ظاهر، وبالجمع لأن كل جانب منها غَيابَةٌ. قيل: هو بئر على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي من الأردن. وجواب لما محذوف إيذانا بظهوره وإشعاراً بأن تفصيله لا يحويه فَلَكُ العبارة. ومجمله فَعَلوا ما فَعَلوا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي إلى يوسف بالمنام كما قيل، أو بالإلهام، أو بإرسال مَلك والموحى إليه ما بعده من قوله تعالى ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أوحينا إليه أنك تخلص من هذه البئر وسيكون لك شأن ومقام، ويأتيك إخوتك محتاجين إليك فتخبرهم عند ذلك بأنكم فَعلتُم بأخيكم يوسف كذا وكذا وهم لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف. وكان الايحاء إليه مقصورا على ذلك، ولم يكن إيحاءً به وبالشريعة لأنه كان مراهقا عند ذلك ولم يبلغ الحلم، وغالبُ الأنبياء بل جمهورهم آتاهم الله النبوة في الأربعين من أعمارهم. ولقوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. نعم أوحى إلى عيسى ويحيى عليهما السلام في الصغر.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)﴾

قوله تعالى ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ أي وجاؤا إلى أبيهم يَعقوبَ عليه السلام في عشاء اليومِ الذي ذَهَبُوا فيه، أو في عشاءِ يومٍ آخر. والعشاء لغة من صلاة المغرب إلى العتمة، أي ظلام الليل، وتخصيصه بالوقت المقرر لصلاته عرف الشرع.
والحاصل أنهم بَعْدَ أنْ فعلوا ما فعلوا لطخوا قميص يوسف بدم سخلة ذبحوها في الصحراء. وقوله تعالى ﴿يَبْكُونَ﴾ أي متباكين لأنهم كانوا في غاية الفرح من عملهم ولم يكن عندهم أي خوف لكنهم تكلفوا في البكاء ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي إنا لما وصلنا محل اللعب المقرر ذهبنا متسابقين في العَدْوِ على الأقدام، أو في الرمي بالسهام، أو في أعمال نتوزعها من سقي ورعي واحتطاب، أو في الصيد وأخذه كما قيل ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ أي ما تتمتع به من الثياب والأزواد ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ عقيب ذلك من غير مضي زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد، فكأنهم قالوا إنا لم نقصر في محافظته ولم نغفل عن مراقبته، وتركناه في مجمعنا بمرأىً منا وما فارقناه إلا ساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة، فصار ما صار ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي ما انت بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا صادقين في الواقع. وذلك لفرط محبتك ليوسف وسوء ظنك بنا، فكيف إذا كنا كاذبين فيه وغير متثبتين في كلامنا كما هو شأن الكَذَبَة؟ ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ﴾ أي قميص يوسف ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي بدم معه دعوى كاذبة، وهي أن هذا الدم دمُ جسد يوسف من عَضّ الذئب وتمزيقه له. ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام بعد السماع لكلامهم والنظر إلى ارتباكهم في البيان ولهجة التقرير، وسلامة القميص من أثر عض الذئب، وتجربة أعمالهم السابقة السالفة مع يوسف وغيره: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ التسويل: تفعيل من السول أي الأمنية. ومعناه تزيين النفس لِما تحرص عليه وتصويرُ القبيح بصورة الحَسَن أي بل زينت لكم أنفسكم أمراً منكراً وهو إفناء يوسف أو إبعاده عن أبويه

بشبهة استيلائكم على أمنياتكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل على قضاء الله بدون التشكي إلى الناس وتفويض الأمور داءً ودواءً إلى الله تعالى ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي والله هو الذي يطلبُ منه العون على كشف ما تذكرونه، أو على الصبر على أكل الذئب ليوسف.

وإنما أحال الأمر إلى الله تعالى مع أن الرضاء بالقضاء وان كان واجبا فالسعي في إزالة المقضي بطريق مشروع أيضا واجب أو مستحب أو مباح؛ فإن من انكسرت رجله وجب عليه أن يجبر كسرها، ومن هاجمه العدو استعان بمن ينجيه من العدو، لأمور منها احتمال أن الله سبحانه وتعالى ألهمه بما استراحت به نفسه من أن يوسف حيّ مرزوق ويعود إليه ولو بعد زمان، كما ذكر بعد بيان يوسف لرؤياه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ومنها أنه أراد وهو رسول من الرسل الدّوام على الصبر في المحنة لزيادة المنحة من الله. ومنها أنه لو كان يستعين بأتباعه المؤمنين في القضية لكانوا يفتشون أطراف المحل لأثر من آثار جسد يوسف، وبعد التحقق من أنه لا أثر هناك كانوا يقتلون أولاده المحتالين، وهم وإن كانوا مبغوضين لسيدنا يعقوب على عملهم المنكر لكنهم كانوا محبوبين على اقتضاء الغريزة الأبوية. ومنها خوفه منهم لو كان يعمل شيئا من هذا القبيل لأنهم بعد ارتكابهم هذه الجريمة كانوا مستعدين لقتل أبيهم وابنه بنيامين وأمه وغير ذلك من المحذورات. ومنها أنه بما علم من شريعة البيت وكرامة أهله وسعادتهم وصبرهم وتوجيه الأمور إلى الله لم يشأ أن يأتي بأعمال انتقامية حتى يتجاسر أعداؤه بإطالة اللسان وإلقاء الكلمات الفاسدة إلى الناس، فَأراد أن تنطفئ النار في المنار ولا تسري إلى إحراق الدار، والله أعلم.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ شروع في بيان ما جرى على يوسف في الجبّ. والسيارة جمع سائر أي مسافر، سموا بذلك لسيرهم في الأرض وكانوا رفقة تسير من جهة مدين إلى مصر. وكان ذلك بعد ثلاثة أيام مضت من زمن إلقائه. وقيل في اليوم الثاني. والظاهر أن الجُبّ كان في طريق سيرهم المعتاد لأن إخوته في القرار الأخير قرروا أن لا يقتلوه ويلقوه في جب ليلتقطه بعض العابرين ﴿فَأَرْسَلُوا﴾ أي السيارة ﴿وَارِدَهُمْ﴾ وهو الذي يرد الماء ويسقي لهم، وكان ذلك مالك بن زعر الخزاعي. والتأنيث في جاءت والتذكير فيما بعد باعتبار اللفظ والمعنى ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي فأنزل هذا الوارد دلوه الى محل الماء من الجب ليخرج الماء فلما ملئت، وأخذ الوارد يرفعها تعلق يوسف عليه السلام بعلاقتها فرفعه معها، ولما وصلت الدلو الى حافة البئر ومعها يوسف عليه السلام ﴿قَالَ﴾ الوارد: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ والبشرى: البشارة ونوديت على سبيل الاستعارة، أو المنادى محذوف أي يا أصحابي بشرى لكم. والغلام الولدُ الطارُّ الشاربِ

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أي أخفاه الواردُ ومن معه مِن سائر القافلة حالكونه بضاعةً لهم أخذوها من بعض الناس ليبيعوه في مصر، وكان إذ ذاك بيعُ الغلمان معتادا. وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيه إشارة إلى الوعيد للوارد وأصحابه على أنهم جَعَلوه كبضاعة مُسلمة إليهم ليَبيعوه، ولم يُعلِنُوا أمره حتى يعلم الناسُ به ويرجعوه إلى أبيه، لأن المسافة بين البئر والقرية كانت قليلة. أو على أنه ما أظهروه بين الرفقة ليعيش معهم عيشا رغدا في مدة السفر، أو على أنه قَرَعت سمعهم حادثة البيت، ولكنهم لم يهتموا بها.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي ولما وصلوا مصر باع الوارد وأصحابه يوسف عليه السلام بثمن ناقص لا يعبأ به، وأبدل عنه دراهم معدودة، أي والثمن كان دراهم لا دنانير، وكانت قليلة حيث كانت العادة وزن الكثيرِ وعد القليل ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي وكان الوارد وأصحابه من الزاهدين أي الراغبين عنه وعن بقائه في أيديهم. والحاصل أنهم نظروا إليه نظرة السارق للمال المسروق، وأرادوا خلاصهم منه ولو بثمن تافه وذلك إمّا لإخفائه عن أهل القافلة، أو لأنهم عرفوا أنه هو ولد يعقوب عليه السلام وأنه لو بقي عندهم لأمكن أن يعرفه بعضُ الناس ويقعوا في بعض محنة وبلاء. وبعد بيعه بذلك الثمن البخس أخذه المشتري وَعَرَضَه للبيع في السوق، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ وزنه مِسكا، ووزنه وَرِقاً، ووزنه حريراً!ـ فاشتراه العزيز الذي كان على خزائن مصر، أي مثل وزير المالية في عصرنا هذا واسمه (فطفير)؟؟؟؟.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ أي هذا العزيز الوزير على المالية، فهذه الصفقة غير الصفقة السابقة، وذلك لأمرين: الأول أن الأولى كانت بثمن بخس وهذه كانت بمال محترم. والثاني: أنه لو كانت عين الأولى لم تبق لقوله

﴿مِنْ مِصْرَ﴾ فائدة كثيرة، لأنّ القافلة وردت مصر، وكان البيع الأول هناك بلا شبهة، وكان الملك يومئذ الريّان ابن الوليد العمليقي، وآمن بيوسف عليه السلام، ومات في حياته فَمَلَك بعده قابوس ابن مصعب فدعاه إلى الإيمان فأبى ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾ وهي راعيل بنت رعابيل المشهورة بزليخا على هيئة المصغر، ومقول قوله ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي اجعلي محلَّ ثوائه وإقامته كريماً حَسَناً مرضيا، وذلك كناية عن إكرامه، إذ المقصود أحْسِني تَعَهُّدَه والنظر في شؤونه ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أي في قضاء حاجاتنا ورعاية مصالحنا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي نتبناه ونقيمه مقام الولد، لأنه كان عقيما وذلك لما تفرس فيه من الرشد والكمال، علاوةً على حسن الصورة والجمال. ولذلك قيل: أفرسُ الناسِ ثلاثة: عزيزُ مصر حين تفرس في يوسف وقال لامرأته أكرمي مثواه... الآية. وابنة شعيب حين تفرست في موسى الأمانة علاوةً على قوته في رفع الحجر ووضعه على رأس البئر. وابو بكر الصديق حين تفرس في عُمر العدلَ والقوة والأمانة واستخلفه.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وكما مكنا ليوسف في قلب العزيز حتى وصى امرأته بإكرامه واحترامه مكنا ليوسف في أرض مصر في أيامه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ عطف على مقدر مفهوم، أي ليتصرف فيها بالأخلاق العالية ونعلمه من تأويل الأحاديث من تعبير الرؤى أو إدارة أمور الناس ورعاية العدالة وفهم أسرار الكتب ووقائع العالم ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي امره المراد له أن يحققه فلا يمنعه عنه أحد، ولا ينازعه في ما يريد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي بلغ زمان انتهاء اشتداد جسمه وهو ما فوق خمس وثلاثين الى غاية أربعين ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ الحكم يكون بمعنى الحكمة وهو في لسان الشرع العلم النافع لكن بشرط العمل ويضعفه قوله ﴿وَعِلْمًا﴾ والظاهر أن المراد

بالحكم نفوذ الأمر حين جعله الملك مأمورا على خزائن الأرض، وبالعلم علم النبوة والرسالة وفهم إدارة الأمور وشؤون الناس، وتعبير الرؤى وسياسة المدن. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الحكم النبوة، والعلم الشريعة، وتنكيرهما للتفخيم، أي حكما وعلما لا يقدر قدرهما ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الجميل نجزي الذين يُحسِنون أفكارَهم وأعمالهم، فإن وصلوا فيهما إلى درجة استحقاق النبوة والرسالة أعطيناهم، أو الى درجة المحبة والولاية أولَيناهم، أو إلى درجة صفاء لقلب والأخذ باللب أصفيناهم. وفوق كل درجةٍ درجةٌ، ولا ينافي ذلك. أن النبوة موهوبة لا مكسوبة لأن الحصول على الإحسان في تلك الدرجات ليس على منهاج اكتسابي مقرر لنيلها إنما هم يحسنون، والله يجزيهم على إحسانهم بالإحسان.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29)﴾

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ والمُراودة المطالبة لأمرٍ ما برفقٍ ولطف من راد يرود إذا رَفَقَ. والموصول وصلته لإفادة وصول يوسف عليه السلام إلى قمة العفة والكرامة لأن مراودة امرأة معروفة بالجمال مع شاب في باكورة الشباب والإقبال في بيت مختص بها لا يدخلها غير من أرادت دخوله فيها بأمر من مقتضيات الغريزة الإنسانية مع صيانة المقابل للعفاف.. أمرٌ فوق طور المدح بالأوصاف، أي وطالبته بغاية الرفق واللطف والدلال المرأة التي هو في بيتها ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ ومن أجل الوصول الى المأمول من نفسه ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ بناء الباب للتكثير أي غلقت أبواب جميع الغرف والمجازات حتى لا يرد عليهما أحد ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي ولما غلقتها وسدت الطرق واطمأنت بالخلوة قالت ليوسف عليه السلام: هَيْتَ لك أي أسرع في المجيء، فهي اسم فعل أمر مبني على الفتح كأين ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ منصوب على المصدرية أي قال يوسف عليه السلام في جواب أمرها معاذ الله بمعنى عذت معاذاً مما تريدين مني. وعلله بقوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي أن الله ربي ومولاي، وأحْسن مثواي، وأكرمني بأن جعلني من بيت النبوة فلا أرتكب ما يخالف دينه. أو أن الشخص الذي أنا في بيته رباني وأحْسَنَ مثواي فلا أخُونه ولا أسيء إلى كرامته. وإذا خالفتُ فقد ارتكبتُ الخيانة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ والجملة تعليلٌ بعد تعليل أي أنه أحسن مثواي وجزاءُ الإحسان هو

الإحسان لا الاساءة. ثم قال: إنه لا يفلح الظالمون أي إن ارتكبت ما تطلبين فقد ظلمت نفسي بالعصيان ولا يفلح الظالمون والضمير للشأن.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ أي والله لقد همّت امرأةُ العزيز بمخالطته. قال الأشموني في كتاب الوقف والابتداء: ومثله وهمت به (أي الوقف هنا وقف كاف كما فيما قبله) وبهذا الوقف يتخلص القارئ من شيء لا يليق بنبي معصوم، وهو أن يهم بامرأة، وينفصل من حكم القَسم قبله في قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ويصير ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ مستأنفا إذ الهم من سيدنا يوسف منفيّ لوجود البرهان والوقف على برهان ربّه، إنتهى المقصود نقله.

ولما كانت جملة وهمّ بها مستأنفة منقطعة عما قبلها كانت جوابا لكلمة لولا. والتقدير على الترتيب لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، لكنه رأى البرهان فَما هم بها قطعا. وقد ذهب إلى جواز تقديم الجواب على أدوات الشرط الكوفيون وأبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد من أعلام البصريين. ويجوز أن نقول: إن جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت كذا. فيقدرونه اِن فعلت كذا فأنت ظالم. والحاصل إنه كان يوجد همه ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لكنه رأى برهان ربه فما وجد الهم منه.

وفي البرهان أقوال منها: أنه رأى جبريل عليه السلام. ومنها: أنه تمثل له يعقوب عاضّاً على أنامِلِه. ومنها: أنه نزلت سكينة على قلبه الشريف ورهبة ربانية شملت قواه النفسية بحيث لم يبق عنده مجال أي خيالٍ كالولد المعصوم. ويدل على ذلك بوضوح قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي فعلنا مثل ذلك التثبيت وأريناه برهاننا لنصرف عنه السوء أي خيانة الرب، والفحشاء أي الزنا، ولما كان الفحشاء هو الزنا والسوء خيانة الرب الشاملة لمقدماته من النظر بشهوةٍ، والقبلة،

والخلوة المحرمة، والهم السيئ عُلِمَ براءته من كُل كَدرٍ هنا.
وأوضح دلالة على نزاهته من الهم وما فوقه قوله تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي من الذين إستثناهم الله تعالى من إغواء الشيطان الذي ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)﴾ لأنه نص قاطع دال على أن العباد المخلصين لا يقدر الشيطان على إغوائهم. وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ نص قاطع أيضا يؤكد على أن يوسف عليه السلام من العباد المخلصين؛ فيرتب برهان من الشكل الأول وهو أن يوسف من العباد المخلصين، وكل من كان منهم لا يستولي الشيطان عليه ينتج أن يوسف لم يستول عليه الشيطان، فإذا شهد الباري سبحانه وتعالى بعصمته وبراءته من هم الفساد لم يبق أدنى رَيب في قلوب أهل الرشاد. والله الهادي الى سواء السبيل.

ولما تبرأ يوسف من الهم المؤسِف وتنازعا فر يوسف من يدها متجها الى الخارج، وكلما اقترب من باب مغلق انفتح له بسلطان الإله الحق، وتَعَقَّبَتْهُ المرأة وتمسكت، بقميصه من الوراء فقدتْه فلم يتوقف يوسف، وهذا هو الذي يقول الباري سبحانه ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي ركض يوسف الى الباب ليخرج والمرأة اليه لتمنعه وترده وتمنعه عن الخروج حتى لا تفتضح عند الناس ﴿وَ﴾ بينما هما في هذا الأمر إذ ﴿أَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي زوجها أي وجد يوسف وامرأة العزيز سيدها أي زوج المرأة ﴿لَدَى الْبَابِ﴾أي عند الباب الخارجي يريد أن يدخل مع ابن عم لها فبادرت المرأة إلى الكلام شاكية اياه عنده ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ عملا سيئا يستقبحه العقل السليم تعني الزنا ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليس جزاؤه إلا أحد الأمرين على طريقة منع الخلو. فكلمة ما نافية ويجوز أن تكون استفهامية، أي ما الجزاء الذي يليق به ويستحقه إلا أحد الأمرين؟

وعند ذلك ﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام دفاعاً عن كرامته وبياناً براءته: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ أي طالبتني بالمخالطة بكمال الدقة والحزم، وقد خالفتُها وفررت منها وعقَّبتْني، وقدَّت قميصي لاسترجاعي ﴿وَ﴾ عند ذلك ﴿شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وهو ابن عمها الذي دخل مع العزيز: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ﴾ أي خُرِقَ ﴿مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾هي لدلالة القد هناك على أنه استقبلها بعزم السوء فمنعته وقدت قميصه مواجهة له ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواه أنها راودته ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ دبره ﴿فَكَذَبَتْ﴾في دعواها ﴿وَهُوَ﴾ أي يوسف ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وما فسرنا به الشاهد قول مرجوح لبعض الناس، والصحيح أن الشاهد كان طفلا رضيعا في المهد أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام إرهاصا لنبوته، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: ((تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، عليه السلام وصاحبُ جريْجٍ، وعيسى ابن مريم عليهما السلام)) وتعقّب ذلك الطيبيُّ بقولِه: يرده دلالة الحصر في حديث الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وصبيٌّ كان يرضع أمَّه فَمَرّ راكبٌ حَسَنُ الهيئةِ فقالت أُمُّه: اللهم اجعل ابني مثل هذا! فترك الصبي الثدي وقال: اللهم لا تجعلني مثله)) إنتهى.

ورَدَّهُ الجلالُ السيوطي فقال: هذا منه على جاري عادته من عدم الإطلاع على طرق الأحاديث، والحديث المتقدم صحيح أخرجه أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، وصححه من حديث ابن عباس، ورواه الحاكم أيضا من حديث أبي هريرة وقال: صحيحٌ على شرط الشيخين، وفي حديث الصحيحين المشار اليه آنفا زيادة على الأربعة

(الصبي الذي كان يرضع من أمه فمر راكبٌ الحديث...)
فصاروا خمسة وهم أكثر من ذلك ففي صحيح مسلم تكلم
الطفل في قصة أصحاب الأخدود.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ السيدُ بعد شهادة الشاهد ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾
اطمأن قلبه بهذه الشهادة القدسية الخارجة عن عادة الناس
بشهادة أهل البلوغ والعقل، وعن قاعدة المحاكم بعدم الاكتفاء
بشهادة أقل من النصاب التي تحول السامع إلى درك الحقيقة
كما هي وتطمئن النفس بإخبار القدس و﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ
إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنه أعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس
لامتزاج داعية المقال بداعية الجمال. وقال بعض العلماء: أنا
أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان؛ فإنه تعالى يقول:
﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ويقول في النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ
عَظِيمٌ﴾ ولأن الشيطان يكيد بالخيال والنساء تكيد بالجمال، وكم
من العوائل ابتليت من النساء بالغوائل دينا وأدبا، وعقيدة
ومذهبا؟ ! وإذا استولت فكرة على ربة البيت استولت منها
على صغار أولادها وبناتها، ورب البيت مجبور ومغمور، وتفصيل
ذلك في التواريخ مسطور.

﴿يُوسُفُ﴾ مُنادىً بحذف الحرف أي يا يوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾
واكتمه وليبْق سِرا عندك ﴿وَ﴾ يا مَرأة ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾
الثابت عندي بالشهادة التي اطمأن بها قلبي وبما رأيت من
العلامة عليه ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أي من القوم
المتعمدين للخطأ بمعنى الجريمة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34)﴾

﴿وَ﴾ لما جرى ما جرى ظهر الأمر وانكشف السر واشتهر بين الناس ﴿قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ على سبيل العادة في اغتياب الناس: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي تطلب موافقته إياها في ما تريده من المؤانسة والمجالسة ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي شَقَّ حُبه شِغاف قلبها، وهو جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إذا نظرنا إلى الضلال وهو أمر معنوي لا يرى بالبصر قلنا: إن الرؤية هنا علمية، وإذا نظرنا إلى إرادة علامات الضلال من المحاورة مع الفتى، وإظهار الأمور المشبوهة، وهي ترى، قلنا: إن الرؤية بصرية، وهذه أيضا لا تخلو عن المجاز لأن تلك النسوة ما رأين تلك المقدمات، ووجه قولهن إنا لنراها في ضلال مبين واضح أنه لا يجوز ولا ينبغي للحرة العاقلة اقتحام أمر هائل مشبوه بدون سبق مقدمات مُعدّة، فكان الواجبُ عليها وهي امرأة العزيز أن تدلل معه وترتب المقدمات إلى أن تعلم علما قطعيا أنه يوافقها في ما تريده، وعند ذلك ما كانت تقع في هذه المشكلة، وأما إذا وجدته في مدة دوامه في

البيت مؤدبا مهدبا أمينا وقورا لا يدخل في ما لا يعني ولا يرتكب ما لا يناسب قدره وعنده الإطمئنان النفسي.. فواجبها أن لا تميل إلى مثل ذلك العمل من غلق الأبواب وتهيئة الأسباب حتى تقع في ما وقعت فيه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي باغتيابهن وسوء مقالتهن أقدمت على عمل معهن حتى يرين من يوسف عليه السلام من الكمال والجمال وحسن الصورة والسيرة ما يبرر توريط زليخا في ذلك الشأن الخطير ولذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلى البيت، فدعت صاحبات المقالات السابقة مع جماعة أخرى ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ يتكئن عليه من النمارق والوسائد ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتستعمله في قطع ما يقدم بين أيديهن من المواد المحتاجة إليه، وغرضها من ذلك أن يقع منهن عمل لا يناسب صاحب الشعور الكامل لتبكيتهن بالحجة، وقدمت إليهن المواد التي تقطع وتؤكل كالنارنج وأمثاله ﴿وَقَالَتِ﴾ امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عند ذلك ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك ليَرَيْنَهُ بجمال صورته فيشغلن به عن أنفسهن، ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي أعظَمنهُ ودُهِشْن بجماله ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جَرَحْنَها بما في أيديهن مِنَ السكاكين لخروجهن عن الحال الطبيعي، وعدم تمييزهن بين أيديهن والمواد المأكولة ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ حاشَ حرف وضع للاستثناء وأصله حاشا اللهِ، وكانت دالة على الاستثناء والتنزيه معاً، ثم نقل وجعل اسماً للتنزيه وتجرد عن معنى الاستثناء، ولم ينون مراعاة لأصله فإن الحرف لا تنون، وزيدت اللام على الجلالة للبيان ومعناه تنزيها لله تعالى عن العيب والاعتراض إذا خلق البشر كالملك لكن ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ فإن هذا الجمال لم يعهد في نوعه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي ما هذا إلا ملكٌ شريف مُحَلّىً بالمحاسن خَلقاً وخُلقاً.

﴿قَالَتْ﴾ أي امرأة العزيز: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي﴾ فيه أي فإذا أدركتن جمال صورة هذا الغلام الخارج عليكن وشعرتن بما عرضت عليكن من الحيرة والدهش فهو الذي لمتنني فيه وفي الافتتان به ومراودته وَعَيَّرتُنَّني في التعلق به ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي ولا أكتم منكن ما في قلبي من الارتباط به والله لقد راودته، وتحايلت بكل نوع معه ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي للاستيلاء على نفسه ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ وأخذ بعصمته على أبلغ وجه ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آَمُرُهُ﴾ في مستقبل الأوقات. وآمر صيغة المضارع للمتكلم وحده من الباب الأول خفف بقلب الهمزة الثانية ألفا ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الفعلان واقعان في جواب القسم المدلول باللام الداخلة على كلمة الشرط، والأول مضارع مجهول مؤكد بالنون الثقيلة، والثاني معلوم مؤكد بالنون الخفيفة، والضميران راجعان إلى يوسف، والفعل الأخير مكتوب بالألف على قاعدة الوقف عليه بالألف، إذ الأصل في كل كلمة أن تكتب أولها بتقدير الابتداء وآخرها بتقدير الوقف، والصاغر هو الذليل المُهان.

ولما سمع يوسف كلامها الكاشف عن سرها وسترها وأنه أعلنت بما في قلبها وبما تفعله عند المخالفة دعا ربه و﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي يا رب السجنُ الذي تَوعدتْني بالحبس فيه على تقدير مخالفتي لها أحب إليّ ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي من ارتكاب العمل الفاحش الذي يدعونني إليه؛ لأن عذاب السجن إما مؤقت أو مستمر إلى موتي ويأتي بعده الثواب. وأما العمل المشئوم المطلوب منّي فيورِثُ عذاباً شديداً في الآخرة وعاراً وعيباً على بيت النبوة في الدنيا. والفعل لجمع المؤنث، والواو لام الكلمة، وإسناد الدعوة إليهن باعتبار قبولهن لمعذرتها، أو أمرهن ليوسف

بموافقتها كما روي ذلك. ولعله كان في ذلك العصر نوعٌ من الاستهتار وعدمِ الاعتبار بالشرف والأعراض، وإلا لم يقبل منها تلك المعذرة السابقة ولا هذا الوعيد اللاحق ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي وإلا تدفع عني كيدهن وحيلتهن بالدلال وعرض محسنات الجمال وذلك بالتبعيد عنهن بحيث لا يصلن إليّ أصب إليهن وأمل إلى ما يملن إليه بمقتضى الطبيعة البشرية وحكم القوة الشهوية، وأكن من الجاهلين أي الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لا رادع له من علمه عن فساد عمله فكأنه لا علم له، وسلك على موجب جهله. وهذا الدعاء فزع منه إلى الله تعالى طلبا للعفة جريا على سيرة الأنبياء والمرسلين في حصر الحول والقوة في الله، لا أنه يطلب الإلجاء إلى عدم وقوع الفساد مع أن في قلبه داعية إليه، وإلا لو كان كذلك لما جرى فإن الأنبياء معصومون من الكبائر والعزم عليها قبل النبوة، كما أنهم معصومون بعدها.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أي أجاب له إجابة أكيدة، وألهم أهل المرأة سِجنه كما قال ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ بأن ثبته على العِصْمَة وحال بينه وبين المعصية ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء المتضرعين ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الراعين لحقوقه.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآَخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آَبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40)﴾

<366>

قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآَيَاتِ﴾ يعني ثم ظهر للعزيز وأشياعه من أهل الرأي بعدما رأوا الآيات البينات الشاهدة ببراءة يوسف وبمراودة المرأة له، وبعد أن قرع أسماعهم أنها دَعَتِ النسوةَ إليها وأمرت بخروج يوسف وما جرى بينهن من كلمات المرأة، وبيانات النسوة، أنه إذا بقي يوسف يتجدد العيب والعار، وإخراجه وبيعه لبعض التجار يوجب نشر المخازي في الديار، وأن الطريق الأقوم الأسلم أن يسجنوه مدة حتى يهدأ الحال ويتقلل المقال. وقوله تعالى ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ بصيغة جمع المذكر الغائب المصدر بلام التأكيد جواب للقسم المستفاد من قوله ﴿بَدَا لَهُمْ﴾ لأن العرب تجري تلك الجملة مجرى القسم. وقال بعض: إن اللام في ليسجننه موطئة لقسم محذوف، والجملة في محل النصب مفعول لقول محذوف، والتقدير: ثم ظهر لهم سجنه قائلين: والله ليسجننه ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ وهو سبع سنين كما هو المشهور، فأرسلوه إلى السجن.

<367>

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ غلامان للملك أحدهما مأمور طعام، والآخر مأمور سقيه اتهما بإرادة تسميم المطعوم والمشروب لقتل الملك، وبقوا في السجن زمانا، واتفق أن كلا منهما رأى رؤيا. ولما كانا مرتاحين من صحبة يوسف في تلك المدة واعتقدا فيه الفراسة والعلم بالتعبير. جاءا إليه لحكاية الرؤيا له وأخذ تعبيرها ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ وهو الشرابي: ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ أي رأيتني في المنام ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنبا. روي أنه قال: رأيت جملة من كرم حسنة لها ثلاثة أغصان فيها عناقيد عنب، فكنت أعصرها وأسقي الملك.

وكلمة خمرا مجاز مرسل بعلاقة الأول ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ وهو الطعامي: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ روي أنه قال: رأيت أني أخرج من مطبخ الملك وعلى رأسي ثلاث سلال فيها خبز، والطير تأكل من أعلاه ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي أخبرنا بتعبيره الذي تؤول إليه ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لطلب التعبير منهما. والمراد من المحسنين لتعبير الرؤى أو من أهل الإحسان وصفاء القلب وهم غالبا أصحاب فراسة وفهم لإدراك الأسرار.

﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ أي لا يأتيكما طعام مما قرر للسجناء ترزقانه وصار رزقا لكما وتأكلانه ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي بإيضاحه وبيان مادته وكميته وكيفيته ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ والمراد بالتأويل الإيضاح والبيان لا تفسير المشكل. وإنما قال ذلك مع أن فيه دعوى اختصاصِه بالمزايا الروحية وكشف الأشياء الخفية للتحدث بنعمة الباري سبحانه وتعالى وإعدادهما لطلب الإيمان منهما بالله الواحد الأحد، فإن الطالب إذا كانت عنده الخوارق اعتبر من الصادقين وأجيب إلى مطلوبه ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ جواب لسؤالهما حيث قالا بعد ما قال الكلام الهام: من أين لك هدا، وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال: ذلكما مما علمني ربي بالوحي أو بالإلهام. واقتصر بعض على الأول

واستدلوا به على أنه عليه السلام كان في ذلك الوقت نبيا، ولما كان كلامه ذلك بعيدا من مستوى أفكارهما وكيف يوحى إلى إنسان كذلك بدون وجود أتباع له قال ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي إني رفضت دين قوم كفار مشركين بالله تعالى ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ خاصة دون باقي الأمة من الكنعانيين الذي هم على ملة إبراهيم عليه السلام ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي وأنا ثابت مستقيم على دين التوحيد الذي جاء به آبائي إبراهيم، وإسحق ابنه، ويعقوب حفيده وهم من الرسل الكرام ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ معاشر الأنبياء المكرمين من الله تعالى المأمورين بتبليغ الأوامر الإلهية ونواهيه إلى العباد لتثقيفهم وتوجيههم إلى الله الواحد الواجب الوجود المعبود ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ جامدٍ أو نامٍ، حيوانٍ أو إنسان فإنه لا يليق بالعقل الإنساني أن ينحط إلى درك يُعتبر فيه المناسبة بين الخالق والمخلوق وبين الواجب والممكن ﴿ذَلِكَ﴾ الدين والتوحيد ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ ومن تأييده ومواهبه الإلهية حيث خصنا برسالته ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ حيث جعلنا وسائط إرشادية لتبليغ الحقائق، وتنوير القلوب، وبث محاسن الاعتقادات والأعمال والأخلاق فيهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله بتوحيده حتى يجعلوه مبدأ ومصدرا للخيرات الواصلة إليهم، ورافعا للبلايا النازلة عليهم، وإلا فكيف يكفرون به وبوحدته؟

ثم بعد بيان ما من الله به عليه، وإصغائهما له، وظنه أن كلامه يؤثر فيهم.. بدأ بعبارة رقيقة لطيفة وبعنوان الصحبة التي هي لأهل الأخلاق من موجبات المحبة يعظهم ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ﴿قَالَ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أي يا صاحبي في السجن العارفين بمجمل أحوالي وحسن جواري أنظروا بعين الاستبصار، وتفكروا بقلب الاتعاظ والاعتبار ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ متعددون كاللات والمناة والعزى لمشركي العرب في عهد ما قبل

الإسلام، وكالأصنام المتعددة المحنوتة المنصوبة في المعابد، أو أأرباب متفرقون مختلفو الأجناس من واجب الوجود وممكنه، أو من الجواهر والأعراض كالنور والظلمة ﴿خَيْرٌ﴾ للعبادة والإطاعة والالتجاء إليه ﴿أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي اَمِ الذاتُ الواجبُ الوجودِ الواحدُ القادرُ الغالبُ على كل ما أرادَ، ولا يُمانَع في أيّ مُراد، مع أن الكثرة والتعدد في الآلهة إن دل على شيء فإنما يدل على عدم استحقاق أي واحد منها للعبادات، لأن كلا من أولئك الأرباب إما كامل أو ناقص، فإذا كان كاملا فالواحد كاف، وإن كان ناقصا فإضافة النقص إلى الناقص لا يجعل الناقص كاملا ويبقى على نقصه، والناقص لا يفيد المقصود، فإن ذاته هو المحتاج إلى الكمال فكيف يورث غيره الكمال مع العلم أن تلك المعبودات المصطنعة ليس لها حظ من الكمال والكرامة قطعا، وإنما هي مواد جامدة منصوبة؟ و﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله تعالى ﴿إِلَّا أَسْمَاءً﴾ أي إلا ألفاظا فارغة لا حقائق لها تعبد، وإنما حقائقها هي المواد المجتمعة من الحجارة والأخشاب وغيرها ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ﴾ أي ذكرتموها واعتبرتموها واحترمتموها وإلا فهي ليست إلا ألفاظا مجردة عن المعنى المقصود. هذا إذا أرجعنا الضمير إلى الأسماء، وأما إذا أرجعناه إلى مسمياته المستفادة من المقام فالمعنى سميتم أنتم وآباؤكم تلك المسميات الجامدة السافلة بتلك الأسماء الدالة عليها.

﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي بتلك الأسماء واعتبارها للعبادة أو بمسمياتها والعبادة لها ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي حجة دالة على صحة الاعتبار بها ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ إن نافية، والحكم بمعنى القضاء الفعلي أو الخطاب المتعلق بأفعال المكلفين، أي لا قضاء في شأن العبادة إلا الله، وقد قضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه، أو لا خطاب مع المكلفين في شأن العبادة إلا الله. وخطابه هو اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وقوله تعالى ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ جملة مستأنفة

جواب لسؤال، وأمر بمعنى قضى وحكم، أو أصدر الأمر بصيغة الطلب وأن مصدرية أي إذا سأل سائل ما هو حكم الله في شأن العبادة؟ فالجواب: حكم وقضى أن لا تعبدوا إلا إياه، أو بماذا أمرَ فالجواب أنه أمر بتخصيص العبادة بذاته تعالى. وقال اختصوا ربكم بها ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي الحكم والقضاء بالتوحيد أو الأمر بتخصيصه بها هو الدين القيم الثابت الحق، وأصل قيّم قويم نقلت الواو الى محل الياء وبالعكس، ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن التوحيد هو الدين القيم. لعدم نظرهم إلى المقدمات القطعية التي يؤلف منها برهان التوحيد.

ومنشأ ذلك الوقف عند المحسوسات والمألوفات وذلك بسبب التوغل في الشهوات النفسية، وهذا بالنسبة إلى الطبقة الأولى. وأما في باقي الطبقات فيضاف إليها رعاية التقليد الأعمى والمشي مع العادة، ومنها تركز في القلوب عبادة الشمس والقمر وسائر الكواكب والجمادات الأخرى بشبهات واهية أوهن من بيت العنكبوت، ومنها نشأ الخروج عن الصراط المستقيم وهو الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه رضي الله عنهم. وقد يضاف إلى ما ذكر المطامع الدنية للأموال المكتسبة من أصحاب الحيل الأجنبية ولهذا الموضوع أفق عريض طويل أعاذنا الله والمسلمين من كل أمر فاسد دخيل. ثم إن سيدنا يوسف عليه السلام بعد إرشاد الصاحبين وتوجيههما إلى الدين القيم أخذ في تعبير رؤياهما وقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)﴾

قوله ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أي يا صاحبي في السجن ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ وهو الشرابي ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي فيخلص من السجن ويعود إلى وظيفته السابقة ويسقي سيده خمرا.

روي أنه عليه السلام قال: ما رأيت مِن حَبْلة الكَرْمِ الحسنة عبارة عن الملك، وأما القضبان الثلاثة، فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعودُ إلى ما كنتَ عليه ﴿وَأَمَّا الْآَخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وهو ما تؤل إليه الرؤيا من نجاة الأول وهلاك الثاني.

أي قضى به الله تعالى وأبَرمَ الأمر.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف: ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ والظن هنا بمعنى اليقين كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ والدليل عليه ما سبق من قوله ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ والمراد بالموصول هو الشرابي. ﴿اذْكُرْنِي﴾ بما أنا عليه من ضيق السجن واغترابي عن أبي وأمي وانا من نسل إبراهيم عليه السلام ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ الذي تسقيه وتلازمه لعله يترحم عليّ ويأمر بإطلاق سراحي ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي فأنسى الشيطان بإلقاء الوساوس وأمور الدنيا في قلب ذلك الناجي ذكر أوضاع يوسف عند سيده؛ فإضافة الذكر إلى الرب للملابسة وهو في التقدير مضاف إلى المفعول وهو الإخبار، أي فأنسى الشيطانُ ذلك الصاحب الناجي ذكرَ أخبار يوسف عند ربه ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي فمكث يوسف عليه السلام بسبب ذلك الانساء في السجن عددا من السنين ما بين الثلاث إلى التسع، والمشهور أنها سبع سنين. أي فلبث بعد قوله ذلك للشرابي بضع سنين أو صار مجموع لبثه من قبل القول ومن بعده بضع سنين.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ وهو الريّان، وكان إذ ذاك كافرا ففي إطلاق ذلك عليه دلالة على جواز تسمية الكافر بالملك ﴿إِنِّي أَرَى﴾ أي رأيت. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ أي ممتلئات لحما وشحما ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي سبع بقرات مهزولة جدا ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبها ﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي وسَبْعَ سنبلات أُخَرَ يابسات قد أُدرِكت والتَوَتْ على الخضر حتى غَلَبَتْها ولم يبق من خضرتها شيء ظاهر ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ هذهِ، وبينوا حكمها وعاقبتها. والخطاب إما للأشراف الملازمين له في مجلسه

الخاص من أهل مشورته، والتعبير هو الانتقال من الصور الخيالية المدركة في الرؤيا إلى الصورة الموافقة للواقع، أو لعلماء البلد المعروفين بالفراسة وتعبير الرؤى بقرينة قوله تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي إن صح ما اشتهر عنكم من أن لكم معرفة بالتعبير. وعليه ففي الآية إيجاز الحذف، أي ثم جمع الملك المعبرين وقال لهم يا أيها الملأ...ـ ﴿قَالُوا﴾ في جواب الملك: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ والعبارة من باب لجين الماء أي أحلامٌ هي كالأضغاث، أي النباتِ المختلط بعضه ببعض لا يعرف أصول طاقاته، ولا يميز بعضه عن بعض، ومرادهم أن هذه الرؤيا مزدوجة من فروع مختلفة التف واختلط بعضها ببعض، فلا يميز بينها، ولا يعرف المقصود منها. والأضغاث: جمع ضِغْثٍ وهو أقل من الحزمة وأكثرُ من القبضة من أخلاط النبات. وفي الكشاف: إن أضغاث الأحلام تخاليطُها وأباطيلُها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان. والأحلام: جمع حلم بضمة وبضمتين: المنامات الباطلة على ما قاله جمع. وقال بعضهم: الرؤيا والحلم. عبارة عما يراه النائم مطلقا. لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على خلافه. وفي الحديث ((الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان)) وقال التوريشتي: الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا، والتفريق من الاصطلاحات التي سنها الشارعُ صلى الله تعالى عليه وسلم للفصل بين الحق والباطل، كأنه. كَرَهَ أن يسمى ما كان من الله تعالى وما كان من الشيطان باسم واحد ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي بتأويل المنامات الباطلة بعارفين. فكأنهم قالوا: هذه رؤيا باطلة، وكل رؤيا كذلك لا نعلم تأويلها.

﴿وَقَالَ﴾ الرجل ﴿الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي من الصاحبين من الموت ورجع إلى وظيفته عند الملك ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي وتذكر ما سبق له مع يوسف

من ذكره عند الملك بعد مدة كثيرة من الزمان: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي أخبركم بتأويل ذلك الذي خفي عليكم بالأخذ ممن عنده علمٌ به لا من تلقاء نفسي ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى صاحبي السابق الذي كان عنده علم بالتعابير. وضمير الجمع إما لتشريف الملك أو لأنه خاطب القوم الحاضرين عنده الذين خفي عليهم التعبير. وفي الآية: إيجاز حذف أي وأرسلوه فأتاه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أي إلى الملك ومن عنده ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويله منك ويعملون بمقتضاه، أو يعلمون فضلك وعلمك وأنت باق على هذه الأحوال.

﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام في جوابه: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي حالكونكم دائبين مستمرين على عادتكم السابقة في الزراعة فهو مال أو زرع دأبٍ وعادةٍ لكم، فهو مفعول مطلق مجازي ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ أي في كل سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ ولا تذروه حبوبا كي لا يأكله السوس كما هو شأن غلات مصر إذا مَضَت عليها أعوام ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في العام فصفوه وكُلُوه ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي ذلك العدد المذكور من السنين السبع الخفيفة ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي سبع سنين صعاب على الناس لقلة الأرزاق فيها ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي يأكلن ما ادخرتم لهن ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي تحفظونه لبذور الزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الزمان المنعوت بما ذكر ﴿عَامٌ﴾ أي سنة ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي يصيبهم غيث أي مطر، فالفعل يائي أو فيه يفرج على الناس بإغاثة الباري تعالى لهم بفيض الرحمة من المطر والوسائل الاخرى الاقتصادية ﴿وَفِيهِ﴾ أي وفي ذلك العام المبارك ﴿يَعْصِرُونَ﴾ الفواكه للمشروبات، والقصب للسكر، والزيتون للدهن، ونحوها...

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52)﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ أي وبعدما رجع السفير من عنده بالتعبير الذي اشتم منه عبير العلم والتدبير، وأدرك من فضله القدر الكثير ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ فإنه مما ينبغي أن يدرك ولا يترك، ويستفاد من علمه وتدبيره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ وهو صاحبه الناجي ودعاه إلى حضور الملك كان يوسف عليه السلام ثابتا على قدم التمكين، ولم يكن عجولا يتحرك لليسار واليمين، وأراد أن لا يرى الملك إلا مع لباس الأمانة، والبراءة من كل خيانة، فلم يذهب و﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي سيدك الملك ﴿فَاسْأَلْهُ﴾ أن يحقق القضية عن أهل بيت العزيز والنسوة المصريات اللاتي عرفتهن امرأته وراودته أيضا حتى يتبين ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ عند خروجي عليهن ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا الطلب من جانب يوسف عليه السلام غاية قوة القلب والاعتماد على الله وأنه ينصر الحق ولا يدحره، ويدحر الباطل ولا ينصره، حيث لم يخف من أن يتكلمن بخلاف الحق فيشتهر بسوء الحال في المآل، ومع ذلك راعى جانب الأدب ولم يقترح السؤال عن امرأة العزيز، كما انه لاحظ الخوف من بيانهن لغير الواقع،

ولذلك قال إنّ ربي بكيدهن عليم. وكان في تدبير يوسف هذا منفعة عظيمه لتطهير ساحته عن الخيانة، فإن كل من كان في موضع تهمة ونسب إليه شيء وجد من الناس من يلوثه بتلك التهمة ولو كان بريئا. ولذا قال صلى الله عليه وسلم: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم)) وأخرج مسلم من رواية أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه وقال: ((هذه زوجتي)) فقال: يا رسول الله من كنتُ أظُنّ به، فلم اكن أظن بك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)).

فلما رجع السفير وقدم التقرير أحضر الملك امرأة العزيز مع النسوة المصريات و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ والخطب في الأصل الأمر العظيم، أي ما هي قصتكن إذ راودتنه. فهل كان هو أساسَ المراودة أو نشأت منكن؟ وهل كان له إجابة لَكُنَّ عندَ المراودة؟ فاجابت نسوة مصر و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيها له وتعجيبا من نزاهته عليه السلام ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ لا في البداية ولا في النهاية والمراد تبرئته بأبلغ وجه. ويستفاد من تقديم قولهن حاش لله تنزيه أنفسهن أيضا عن المراودة لأنهن لو راودنه كان المناسب بعد قول الملك: إذ راودتن يوسف عن نفسه أن يقلن: نحن راودناه ولكن ما علمنا عليه من سوء. ولما جاء دور كلام امرأة العزيز ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر الحق وتبين بعد خفاء مّا. وأصله من الحصة أي تميزت حصة الحق عن حصة الباطل ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لا أنه راودني عن نفسي، وقالت ذلك لتأكيد براءته كما تظهر أيضا من قولها ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله عند العزيز هي راودتني عن نفسي ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾

ذلك من كلام يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن أي ذلك التثبت والوقوف حتى يسأل الملك النسوة وامرأة العزيز ويجبنه بما أجبن به، ليعلم العزيز أو ليعلم كل من يهمه الأمر أني لم أخنه، أي العزيز بالغيب أي غائبا عنه حيث كان في مقر الوظيفة وأنا في داره دار المقامة، وأن الله لا يهدي كيدَ الخائنين. أي لا يهدي من خان وكاد، فإن ذلك مكرٌ سيء ولا يَحيقُ المكر السيئ إلا بأهله.

<378>

الجزء الثالث عشر

<379>

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)﴾

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ أي ولستُ قاصداً بما فعلته تَبرِئَة نفسي عن الخبايا والخفايا، أو أنا بعدما ثبتت براءتي لا أبرئ نفسي ولا أدعي أنه ليس عندها أي رذيلة ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ خِلقَةً وفِطرة ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي إلا وقت رحمة ربي أو إلا ما رحمه الله من النفوس. فما على الأول ظرفية مصدرية زمانية، أي إن النفس لأمارة بالسوء كُلَّ وقت إلا وقت ورود رحمة الباري عليها لحفظها. وعلى الثاني موصولة بمعنى مَنْ، أي إن نفوس الناس لأمارة بالسوء إلا من رحمه الله تعالى وغمره برحمته فنفسه لا تغلب عليه ولا تأمره بالسوء. ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة. فيغفر ما يعتري النفوس بمقتضى طباعها وواسع الرحمة ومبالغٌ فيها فيعصمها من الجَرَيان على مُوجَبِ ذلك.

ومما ينبغي أن يعلم أن للفظ النفس وكذا لكل من الروح والقلب والعقل معنيين:

والأول من معنيي النفس: القوة المودعة في الإنسان الجامعةُ لقوة الغضب والشهوة وسائر الرذائل. وهذا المعنى هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الجامع للصفات المذمومة في الإنسان ولابد من مجاهدة النفس وكسرها. وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: ((أعْدى عدوك نفسُك التي بين جنبيك)) وهي بهذا المعنى صفة للروح الإنساني.

والثاني من معنييها: شخص الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة قال الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28)﴾ والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى، فإنها مُبَعدة عن الله وهي من حزب الشيطان. وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه قال الله تعالى ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء. قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ ويجوز أن يقال: المراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول. فإذا النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان، أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

والأول من معنيي الروح جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والسمع والبصر والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يُدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت الا ويستنير به. والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان. والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه والأطباء إن أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب.

والثاني من معنيي الروح هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان. وهو الذي أراده الله تعالى بقوله ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته.

والأول: من معنيي القلب هو اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح الحيواني ومعدنه.

والثاني: من معنييه هو لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني. وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام، والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان.

والاول من معنيي العقل أنه العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب. والثاني أنه المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة، ونحن نعلم أن كل عالم له في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: ((أول ما خلق الله العقل)) فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق، بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه، ولأنه لا يمكن الخطاب معه، وفي الخبر ((أنه قال له تعالى: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدْبِرْ فَأدبَرَ)) الحديث... فإذا قد انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة، وهي القلب الجسماني والروح الجسماني، والنفس الشهوانية والعلوم. فهذه أربعة معان يطلق عليها

الألفاظ الأربعة، ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها. فالمعاني خمسة والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين. هذا ما أخذناه من أول الربع الثالث من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رحمه الله، لتسهيل فهم الآية الشريفة بواسطته.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي ولما أحضر الملك النسوة وامرأة العزيز وشهدن على براءة يوسف واعترفت امرأة العزيز بخيانتها.. علم الملك أن في يوسف الأمانة ورعاية حقوق المولى والعفة عن الشهوات النفسية... ولما علم بتوقفه عن الخروج عن السجن حتى يحقق الملك معهن علم أن فيه صبرا وثباتا ووقارا وحفظا لسمعته من الإشاعات الكاذبة. ولما وقع في قلبه تعبيره للرؤيا علم أن له علما بالتعبير. ولما ذكر في الرؤيا كيفية استخلاص الأمة من السنين المجدبة علم أن له معرفة بكشف الحقائق، ولياقة بالاستشارة في المهمات... فعلى تلك المقدمات المهمة قال: ائتوني به أستخلصه لنفسي يكون معي في البلاط الملكي للاستفادة من رأيه، والانتفاع من أمانته ورعايته وقدرته على إنجاء الأمة من المشكلات المهمة ﴿فَلَمَّا﴾ أتوا يوسف إليه و﴿كَلَّمَهُ﴾ أي كلم الملك يوسف وقال: إني أحب

أن أسمع منك تعبير الرؤيا فعبرها له، واستحسن الملك حسن المحاضرة، وعرض الموضوع ورأى حسن منطقه وجوابه وحواره ﴿قَالَ﴾ الملك له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ أي ذو مكانة ومنزلة رفيعة و﴿أَمِينٌ﴾ أي مؤتمن على كل شيء من الأسرار والأخبار والأموال، ولم يرد جعل اليوم ظرفا لمكانته وأمانته بل جعله مبدأ لهما مدة بقائه.

ولما علم يوسف عليه السلام أن بقاءه عنده في البلاط يوجب كثرة الاختلاط وكثرة المنافسة والمناقشة مع الأخلاط، وأن مجاورة الملوك مهلكة إلا لأصحاب الاستقامة وحسن السلوك، وأنه لا يحصل منه منفعة عامة للامة حيث أن أموره تنحصر في بعض الاستشارات الخارجية والداخلية، وخاف على نفسه من أمور لا توافق قدسية أهل بيت النبوة، وأنه إذا خول إليه أمور المالية نفع الأمة المصرية، وفي ذلك خير عظيم وفيه جلب لقلب الأمة وتسهيل لأخذ النصائح منه في توحيد رب العالمين ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ في مبادئ جمعها وصيانتها وتنميتها وصرفها فيما يجب صرفه إليه، ولما خاف من أن الملك ربما يتوهم أنه لا مقدرة له على حفظها فإن الأموال منبع الأهوال ومطمح الآمال ومعترك الرجال. أو أنه لا يعرف وجوه صرفها فإن الملوك قد يصرفون آلافا في تأليف شخص واحد أو في دفع شرور إنسان فاسد قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي قادر على حفظ الأموال، وعليم بكيفية صيانتها واستثمارها وصرفها. وإنما سأله هذا المنصب مع أن العزيز كان وزيرا للمالية لمصادفة وصوله إلى الملك وفاة العزيز وشغور محله، ولأنه علم من رؤيا الملك أن الأمة مستقبلة لأحداث هامة، وأن الغلاء والجدب على وشك الحلول فَأَحَبَّ أن يخدم الحق ويرعى الأمة ويفيد أقطار البلاد المجاورة من الخيرات، وكان يعلم من نفسه الكفاءة لذلك المقام بحيث يكون انفع من غيره، وعند ذلك يجوز أو يستحب أو يجب السَّعْي لتحصيل مثل

ذلك المنصب، وبطبيعة الحال ومعرفة يوسف عليه السلام بالحقائق طلب ذلك المنصب بصورة مستحسة مستدعية لإجابة الملك وقبول اقتراحه فأمر به وعينه حافظاً لخزائن مصر، فصار وزيراً للمالية على تعبير أهل عصرنا الحاضر.

روي أن عمر سيدنا يوسف في هذا الوقت كان ثلاثين سنة، وهو في قوة الشباب، فَزَوَّجَهُ الملكُ من راعيل (زليخا) امرأة العزيز، وأخرج الحكيمُ الترمذي عن وهب قال: أصابت امرأة العزيز حاجةٌ فقيل لها: لو أتيت يوسُف بن يعقوب فسالتيه: فَاسْتَشارت الناس في ذلك فقالوا: لا تفعلي فإنا نخافه عليكِ. قالت: كلا إني لا أخاف ممن يخاف الله تعالى فدخلت عليه، فرأته في ملكه، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته. ثم نظرت إلى نفسها فقالت: الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدا بمعصيته! فقضى لها جميع حوائجها ثم تزوجها.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ومثل ذلك التمكين البديع العجيب مكنا ليوسف وجعلنا له مكاناً في أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي يستقر ويأخذ الدار والقصور حيث يشاء من البلد أو الضواحي أو على حافة النيل ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ بمقتضى حكمتنا ورحمتنا، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالإيمان والصدق والصبر والأمانة والعفة والوفاء، فلهم أجورهم كاملة غير منقوصة ﴿وَلَأَجْرُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الكفر والكبائر ورذائل الأمور.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ يعني وجاء إخوة يوسف إلى مصر، وسبب مجيئهم أنه حَلّ بأرض كنعان، محل يعقوب وأولاده وسائر من حوله، غَلاءٌ شديد فقال لأولاده، ماعدا بنيامين: يا بني بلغني أن بمصر ملكاً صالحا يبيع الطعام فاقصدوه بما عندكم من البضاعة لعلكم تشترون منه طعاما يفيدكم في هذه الظروف القاسية، فجهزوا ما عندهم وقصدوا مصر فوصلوا إليها ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف وهو في مجلس ولايته ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوة فهمه ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أي والحال إنهم منكرون له لنسيانهم إياه بطول العهد وبُعْدِ مظنة وصُول يوسف إلى هذا المقام الرفيع.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أي قضى حاجتهم وأصلحهم بما جاؤا له من الحبوب وسائر الأطعمة ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ قيل إن طلبه ذلك لأنهم طلَبُوا منه الطعامَ بقدر عَدَد رؤوس أهل البيت، وَعدّوا بنيامين، فقال: ما دام أنتم صادقون في قولكم ذلك فأتوني به لأعرفه ويأخذ حصته وتقعون موقع الثقة مني، وحرضهم على امتثال أمره

بقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ يعني ألا تعلمون أني اعطيكم الطعام المقصود بمعيار واف غير ناقص ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي خير المضيفين والمحسنين في إنزالكم وضيافتكم ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ أي بأخيكم من أبيكم ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ في المرة الثانية فضلا عن إيفائه ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ بدخول بلادي فضلا عن الإحساس في الإنزال والضيافة ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي سنخادع أباه ونستميله بكل ما عندنا من اللطف والحيلة ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي لقادرون على ذلك لا نعجز عنه، أو إنا لفاعلون ذلك بحسب قدرتنا ولا نتكاسل فيه.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ وقال يوسف عليه السلام لغلمانه الكيالين: اجعلوا بضاعَةَ كل واحد منهم، أي المتاع الذي جاء به ليشتري بمقابله الطعام في رحله، أي في الظرف الذي على ظهر مركوبه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ أي يعرفون أن البضاعةَ بضاعتهم وما لهم عينه إذا رجعوا إلى أهلهم وفكوا الأحمالَ، ويطمئنوا بحسن مُعامَلتي معهم في هذه السنة المُجْدِبة والغلاء الفاضح ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إليّ مع أخيهم من أبيهم، وأقضى اشتياقي من أخي الشقيق.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ﴾ في أرض كنعان ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ وحكم بمنعه بعد هذه المرة إن لم نذهب بأخينا من أبينا بنيامين حسب أمْرِ الملك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر ﴿نَكْتَلْ﴾ مِنَ الطعام ما نريده ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ مِن أن يصيبه مكروه ﴿قَالَ﴾ أبوهم يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على بنيامين، والاستفهام إنكاري ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي قبل هذا الزمان، وقد قلتم في حفظه ما قلتم، ثم صار ما صار، ومع ذلك لما كان الأمر خطيراً والغلاء بلاءً مَريراً، أوافقكم على ما تريدون في أن

تذهبوا بأخيكم بنيامين إلى مصر، وقال ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي وما دام الأمر كذلك فأرجوا أن يحفظني ربي. ويرحمني في عدم عود مثل مأساة فراق يوسف إلى نفسي لأن الله خير حافظ وهو أرحَمُ الراحمين. وحافظا منصوب على التميز كالمشتق في لله درّه فارسا.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65)﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ الذي جاؤا به من مصر ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ التي سلموها ثمنا للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ وهي في رحالهم، ووجَدَ كل بضاعته عنها في رحلِهِ، ولما اطمأنوا بذلك على كرامة الملك ومروته ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي ما الذي نطلب وراء ما أحْسَنَ إلينا الملك ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ لنشتري به مثلَ ما اشترينا في المرة الأولى بشرط أن يكون معنا أخونا بنيامين ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب لهم الميرة وهي طعام الإنسان أي يجلبه من بلد إلى بَلَد ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ﴾ بواسطته ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي مقداراً يحمله البعير وهو وِسقٌ مَن الطعام ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي ذلك الذي أخذناه في المرة الأولى مكيل يسير قليل لا يكفي أولادَنا وأضيْافنا.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ يعني أن الموافقة التي أبديتها لكم كانت شيئا مبدئيا ولكنه لها شرط، وعلى ذلك ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ﴾ أي أخاكم بنيامين ﴿مَعَكُمْ﴾ إلى مصر ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ﴾ أي تُعطوني ﴿مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي ما أتوثق به من جانب الله تعالى ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ أي والموثِقُ هُو أنْ تَحلفُوا لَتأتُنني بُهِ ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي تحلفوا بالله وتقولوا والله لنأتينكَ به إلا أن يُغلَبَ علينا من جانب المخالف، فلا نقدرَ عَلى ذلك. ولما قال يعقوب عليه السلام ذلك واشترط عليهم إيتاء الموثق والحلف بالله حلف كل منهم حسب ذلك ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ وحلفوا بالله تعالى ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي مطّلع ورقيبٌ ﴿وَ﴾ لما اطمأنّ الطرفان ﴿قَالَ﴾ يعقوبُ عليه السلام ناصحاً لهم: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا﴾ مصرَ ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ لأنكم جماعة ذاتُ شأن، وعَرَفَ الناس أن لكم شأناً عند الملك، فأخاف أن تُصابوا بِعُيُونِ الحاسدين ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ حتى لا تُرى لكم الأَبَّهَةُ الحاصِلَة من الاجتماع ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ولا أدفع عنكم القضاء من الله من أي قضاء صدر منه، سواء بالإنزلاق فقط، أو به وبكسر عضو

منكم، أو بالقبض عليكم من جانب الحكم، أو بالقتل، أو بغير ذلك. فان الحذرَ لا يُغني من القدر لكنا أُمِرنا بالحذر حِفظا لنظام سنة الله في الكون، حيث لا ندري أن في هذا اليوم قضاءً أو لا، وإلا فاذا كان اليوم يوم القدر فلا يفيد الحذر، وإلا فلا خطر حتى يُحذر ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ أي ما الحكم مُطلقا ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد فيه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في صيانتي وصيانتكم وفي سائر الأمور لا على غيره ﴿وَعَلَيْهِ﴾ جلت قدرته لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي المريدون للتوكل.

وما ذكر في بيان جهة خوف يعقوب عليه السلام من إصابة أولاده بأثر عين السوء هو الراجح، فان العين حق كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بزيادة: ((ولوكان شيء سابق القدر سَبَقَته العينُ، وإِذا اسْتُغْسلتُم فاغْتَسلوا)). وقَد وَردَ أيضا ((إن العينَ لتدخِلَ الرجلَ القَبرَ والجمل القِدْرَ)) وقد كان صلى الله عليه وسلم يُعَوِّذُ الحَسنَيَين رضي الله عنهما بقوله: ((أعيذكما بكلمات الله تعالى التامّة من كل شيطانٍ وهامة، ومن كل عين لامَّةٍ)) وكان يقول: ((كان أبوكما يُعَوِّذ بهما إسماعيلَ وإسحاق عليهم السلام)).

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَمَر العائِنَ بالوضوء، ومن أصيب بالاغتسال. وكيفية ذلك: أن يغسل العائن وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه، وداخل إزاره، أي ما يلي جسده من الإزار، ويصب الغسالة على رأس المعين. وقد مر: وإذا استغسلتم فاغتسلوا. وهو خطاب للعائنين أي إذا طلب منكم ما اعتيد من الغسل فافعلوا. والأمر للندب عند بعض. وقال الماوردي تبعا لجماعة: للوجوب. فيجب على العائن أن يغسل ثم يعطي الغسالة للمعين، لأنه الذي يقتضيه ظاهر الأمر، ولأنه قد جرب ذلك وعلم البرء به، ففيه تخليص من الهلاك كإطعام المضطر. وذكر أن ذلك

امر تَعبُّدي. وفي روح المعاني: ولبعضهم في هذا المقام كلام لا بأس بالإطلاع عليه، وهو أن تأثير شيء في آخر إما روحاني أو جسماني، وكل منهما إما في روحاني أو جسماني، فالأنواع أربعة يندرج تحتها ضروب الوحي والمعجزات والكرامات والإلهامات والمنامات وأنواع السحر والأعين والنيرنجات ونحو ذلك...

أما النوع الأول، أعني تأثير النفساني في النفساني، فكتأثير الباري تعالى في النفوس الإنسانية بإفاضة العلوم والمعارف عليها. ويندرج في ذلك صنفان أحدهما ما يتعلق بالعلم الحقيقي بأن يُلقِيَ إلى النفس المستعدة لذلك كمال العلم من غير واسطة تعليم وتعلم حتى تحيط بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية، كما اُلقي الى نبينا صلى الله عليه وسلم علومُ الأولين والآخرين، مع أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يتلو من قبل كتابا ولا يخطه بيمينه. وثانيهما ما يتعلق بالتخيل القوي بأن يلقى إلى من كان مستعداً ما يَقوى به على تخيلات الأمور الماضية والإطلاع على المغيبات المستقبلة. والمنامات والإلهاماتُ داخلة في ذلك النوع، وقد يدخل تحته نوع من السحر وهو تأثير النفوس البشرية القوية التي فيها قوتا التخيل والوهم في نفوس بشرية أخرى ضعيفة هاتان القوتان كنفوس البله والصبيان والعوام الذين لم تقو قوتهم العقلية، فتتخيل ما ليس بموجود في الخارج موجودا فيه وما هو موجود فيه على ضد الحال الذي هو عليها.

وأما النوع الثاني، أعني تأثير النفساني في الجسماني، فكتأثير النفوس الإنسانية في الأبدان من تغذيتها وإنمائها وقيامها وقعودها الى غير ذلك. ومن هذا القبيل صنف من المعجزات وهو ما يتعلق بالقوة المحركة للنفس بأن تبلغ قوتها إلى حيث تتمكن من التصرف في العالم تمكنها من التصرف في

بدنها كتدمير قوم بريح عاصفة، أو صاعقة، أو زلزلة أو طوفان. وربما يستعان فيه بالتضرع والابتهال إلى الله تعالى كأن يستسقي للناس فيسقون ويدعو عليهم فيهلكون ولهم فينجون.

وأما النوع الثالث، وهو تأثير الجسماني في الجسماني، فكتأثير الأدوية والسموم في الأبدان، ويدخل فيه تأثير بعض المركبات في بعض بسبب خواص فيها، كجذب المغناطيس للحديد، واختطاف الكهرباء لِلتبن.

وأما النوع الرابع، وهو تأثير الجسماني في النفساني، فكتأثير الصور المستحسنة أو المستقبحة في النفوس الإنسانية من استمالتها إليها، وتنفيرها عنها، وعد من ذلك تأثير أصناف الأغاني في بعض النفوس، وتأثير البيان في من له ذوق، كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم: ((انّ من البيان لسحراً)) إنتهى باختصار على المقصود.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ من الأبواب المتفرقة من أبواب سور البلد ﴿مَا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من جانبه سبحانه وتعالى ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مما قضاه سبحانه ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ استثناء منقطع أي ولكن حاجة في نفس يعقوب عليه السلام وهي شفقته ورحمته الأبوية وحِرازته من أن يُصابُوا بالعين قضاها وأظهرَها. وجوز الطيبي كونَ الاستثناء متصلا على أنه من باب:

ولا عيب فيهم غيرَ أن   بهنّ فلول من قراع الكتائب

فالمعنى ما أغنى عنهم ما وصاهم به أبوهم شيئا إلا شفقته التي في نفسه، ومن الضروري أن شفقة الأب مع قدر الله تعالى كالهباء، فإذن ما أغناهم شيئا أصلا.

واعترض بأن الغرض لم يكن إلا دفع اصابة العين عنهم، وقد حصل بدخولهم متفرقين، فكيف يقال ما كان يغني عنهم من الله من شيء؟ وأجيب بأن المراد بدفع العين أن لا يمسهم سوءٌ مّا، وإنما خصت إصابة العين لظهورها. وقد أصابهم شر آخر لم يخطر بباله كجعل السقاية في رحل أخيه وإخزائهم في وجدانها فيه، واضطراب قلوبهم من ذلك، فلم يفد دفع ما خافه شيئا. وحينئذ يدعي أن دخولهم من حيث أمرهم أبوهم كان مفيدا لهم من حيث أنه دفع العين عنهم إلا أنهم لما أصابهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك مع أخيهم بوجدان الصواع في رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم.. لم يعد ذلك فائدة فكأن دخولهم لم يفدهم شيئا.

والحق إن الإنسان مأمور بأن يراعي الاسباب المعتبرة في هذا العالم ومأمور أيضا بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلّا ما قدره الله، وأن الحذر لا يغني من القدر، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة والأغذية الضارة، ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان، ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازما بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى، ولا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله. فقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم، وقوله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة من كل شيء سوى الله تعالى.

وقول القائل: كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين فهذا السؤال غير مختص به، وذلك لا نزاع في أنه لابد من إقامة الطاعات والاحتراز عن المعاصي والسيئات مع أنا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه وأن الشقي من شقى في بطن أمه فكذا هنا نأكل ونشرب ونحترز عن

السموم وعن الدخول في النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى؟ فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام بل هو بحث عن سر مسألة القدر والجبر، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة، وبعد ذلك السعي البليغ والجهد الجهيد فإنه يعلم أن كل ما يدخل في الوجود فلابد أن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته.

قال الامام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى في باب التوكل في الجزء الرابع من كتابه إحياء علوم الدين: إعلم أن الضرر قد يَعْرِض للخوفِ في نفسٍ أو مال، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً، أمّا في النفس فكالنوم في الأرض المَسْبَعَة أو في مجاري السَّيل من الوادي، أو تحتَ الجِدار المائل والسقف المنكسر... فكل ذلك منهي عنه وصاحبُه قد عَرَض نفسه للهلاك بغير فائدة.

نعم تنقسم هذه الأسباب الى مقطوع بها ومظنونة والى موهومة. فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتُها إلى دفع الضرر نسبة الكيّ والرقية. فإن الكيّ والرقية قد يقدم به على المحذور دفعاً لما يتوقع. وقد يستعمل بعد نزول المحذور للازالة. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك الكيّ والرقية والطيرة، ولم يصفهم بأنهم إذا خَرَجوا إلى موضع بارد لم يَلبَسوا جبة، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الأسباب. نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهييجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها، فيكاد يقرب من الكيّ بخلاف الجبة.

ولترك الأسباب الدافعة، وإن كانت مقطوعة، وجه إذا ناله الضرر من انسان، فانه إذا أمكنه الصبرُ وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل

الاحتمال والصبر قال تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)﴾ وقال عز وجل: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وقال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)﴾ وهذا في أذى الناس. وأما الصبر على أذى الحيّات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل في شيء اذ لا فائدة فيه، ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانته على الدين، وترتب الأسباب هنا كترتبها في الكسب وجلب المنافع فلا نطول بالإعادة، وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج، ولا بأن يُعْقَل البعير، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للاعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله: ((أعْقَلها وتَوَكَّل)) وقال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وقال تعالى لموسى عليه السلام ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ والتحصن بالليل اختفاءٌ عن أعين الأعداء ونوعُ تَسببٍ واختفاءُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاءٌ عن أعين الأعداء دفعا للضرر، وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب، فإنه دافع قطعا، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون. وقد بَيَّنا أن المظنون كالمقطوع وإنما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه.

فإن قلت: فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك! فأقول: وقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه. فلا ينبغي أن يغرك ذلك المقام، فإنه وإن كان صحيحا في نفسه فلا يصلح

للاقتداء بطريق التعلم من الغير، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات، وليس ذلك شرطا في التوكل، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها. إنتهي بنصه فاحفظه، فإنه نافع جدا.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي يعقوب ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ جليل موافق للواقع ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي لتعليمنا إياه بالوحي والإلهام ونصب الأدلة على أن الحذر لا يغني من القدر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي من عدا من علمناه ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ أي أولاد يعقوب ﴿عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي ضمه إليه وأسكنه معه ﴿قَالَ﴾ أي يوسف لبنيامين: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي في الزمان الماضي من الجور والغدر معنا. أو لا تحزن بما أنا سأعاملهم به، فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك سرقت لِيُمكِن لي ردك بعد تسفيرك معهم، وهم يتكلمون بعض الكلام ويعملون بعض الأعمال فلا تهتم بهم.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77)﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أي فلما وفي لهم الكيل وأعطاهم ما أرادوه كاملا غير منقوص ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ وهي إناء يشرب به الملك وبه كان يكال للناس. وقيل: كانت تسقى بها الدواب، ويُكال بها للحبوب، وكانت من فضة مرصعة بالجواهر ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين من حيث يدري أو لا يدري ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ بعد ارتحالهم من محل الاكتيال، ونادى بملء صوته: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ والعيرُ الإبل التي عليها الأحمال، سُميت بذلك لأنها تعير أي تذهب ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي قال إخوة يوسف عليه السلام والحال إنهم أُقبلوا بوجوههم وصدورهم على المؤذن وزملائهِ إقبالَ رجال أُمَناء كُرماءَ لا خائنين لئاماً وذلك لصفاء صدورهم اذ ذاك من غبار الغباوة والخيانة.. ماذا تفقدون؟ أي ما الذي ضيعتموه وتسعَوْنَ وراءه لتجدوه ﴿قَالُوا﴾ أي المنادي ومن معه ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي مكياله الذي يكتال به للناس ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ﴾ إلينا من عند نفسه أو غيره ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ جَعالةً له في مقابلة ذلك ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي وأنا به كفيل خاص يطلبه مني إذا جاء به. وذلك من كلام المنادي.

﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ التاء حرف قسم وأصل برأسه، وقيل بدل من الباء، لأنه الأكثر استعمالا فيه، وقيل من الواو كما في تراثٍ وتقوى. أي قالوا لهم في تبرئة أنفسهم من الموضوع: نقسم بالله أنا ما جئنا لمباشرة الخيانة التي هي بذرة الفساد في الأرض، ولاسيما السرقة التي تجمع إلى الخيانة دناءة الطبع ﴿وَمَا كُنَّا﴾

سابقا من مبادئ نشوئنا ولا من ديدن آبائنا ﴿سَارِقِينَ﴾ متعودين على هذه الرذيلة ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي فما جزاء الكيل وأخذه على وجه الخيانة ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ أي اَخذُ مَن وجد في رَحْله واسترقاقه مدة حياته، وكان ذلك شريعة عندهم، فالحكم قد تم ببيان طرفيه. وأما قوله فهو جزاؤه جاء به لبيان أن ذلك الحكم حق، لأن نفس السارق دنيئة وحق الدنيء استرقاقه ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ بارتكاب السرقة ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي فبدأ المنادي بتفتيش أوعية الإخوة لأبي يوسف عليه السلام قبل تفتيش وعاء أخيه الشقيق حتى لا يتهم بأنه هو الذي أخفى الصواع فيها ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ﴿كَذَلِكَ﴾ الكيد المشروع ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي صنعنا له ودبرنا لأجل الاستيلاء على أخيه يعني جاء بيان ذلك الحكم على ألسنة إخوته وسنة دينهم ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي ما كان يوسف عليه السلام قابلا ومستعدا ومستحقا لأن يأخذ أخاه جزاءً لوجود الصواع في رحله على وجه السرقة في دين الملك وسلطان شريعته في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله تعالى لذلك بأن يوافق شريعة من وجد في رحله. فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا وحاصل المعنى: إن شريعة الملك لم تكن على أخذ السارق إلا إذا وافقته شريعة السارق، كما هنا فتتوافق الشريعتان على أخذه وإرقاقه. ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا أي ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك وشريعته، ولكن أخذ بشريعة يعقوب لمشيئة الله تعالى لأخذه.

﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف عليه السلام بعد إخراج المنادي الصواع من رحل بنيامين ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ أي بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي إن يسرق هذا فلا تعجب منه لأنه تَعَوَّدَ السرقة من أخيه فقد سرق <399>

اخٌ له من قبل أي من قبل هذا الزمان يريدون بهذا الإسناد ما جرى عليه من جهة عمته. فقد روي أنها حضنته فاحبته بحيث لا تطيق فراقه فطلبه يعقوب عليه السلام وكانت لها منطقة أبيها إسحاق فشدتها على جسد يوسف من تحت بعض ثيابها، ثم فقدتها فاكتشفوها على يوسف، وأخذته وبقي عندها إلى أن ماتت فرجع إلى بيت أبيه. واعترض على هذه الرواية بأن الدقة فيها تشهد بأنها كذبة مفتعلة، فإن أخت يعقوب الناشئة من بيت الكرامة والنبوة لا تكيد لأخذ ابن أخيها بتلك الطريقة. وكيف لا يدري يوسف بما شُدَّ على جسده حتى يحكي ذلك لوالديه؟ وكيف يسند السرقة إلى صبي ابن اربع سنين أو اقل؟ وأي حاجة الى هذا الافتعال مع أن عمته أمكنها أن تبقى في بيت أخيها يعقوب وتنظر الى يوسف على العادة؟ فهذه الروايات لا عناية بها. وإنما أرادوا سرقة شيء طفيف جرت بينهم في الصبا، واتهموه اتهاما ناشئا من الحسد الواقع من بعضهم على بعض بلا تثبت. ويشهد بذلك تصدير الجملة بأل الشرطية الغالبة في الجمل المزعومة الموهومة، وقالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴿فـ﴾ حصل في قلب يوسف عليه السلام من إسناد ذلك إليه حزازة نفسية ولكنه ﴿أَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ واضمرها ﴿فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ أي لم يظهرها ﴿لَهُمْ﴾ ولم يواجه إخوته بجواب مُخزٍ مُحزنٍ بل ﴿قَالَ﴾ أي في نفسه او قال لهم ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ ومنزلة في الطبع والخلق من هذا الولد لأنه فرد من أفراد عائلتكم، ومن غير الغالب أن يَتَعوَّدَ وَلد في بيت رفيع صفةً رذيلة إلّا وهي عادة فيهم، أي فإن كان هو سارقا فأنتم أيضا من السارقين ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منّا ومنكم ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ وتذكرونه أي يعلم علما لا شبهة فيه أن الأمر ليس كما تذكرونه فليس هو سارقا ولا أخوه فانتهى الأمر إلى هذه الدرجة، وانفضوا على حزن شديد مما جرى عليهم، وقرروا بعد <
400>

المشاورة أن يأتوا إلى يوسف ويترجوا إطلاق سراح أخيهم وأخذ واحِد منهم كرهن عنده فَأَتوْهُ.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79) فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ يعني بعدما اعتقدوا أنه لا يفيد الكلام في حضرة يوسف إلا بالاسترحام والاستعطاف يا أيها العزيز ﴿إِنَّ لَهُ﴾ أي لهذا الولد الباقي عندك وهو بنيامين ﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ طاعِناً في السِنّ جليل القدر، لطيف القلب، قليلَ الدّم، إذا علم ببقائه في بلد آخر كاد أن يتوقف قلبه ويموت ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ بدلا عنه، ولسنا مثله في العلاقة القلبية ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فنرجو قبول رجائنا بإحسانك ﴿قَالَ﴾

يوسف عليه السلام في جوابهم: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أي نعوذ بالله من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أي إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ﴿لَظَالِمُونَ﴾ حَسَب شريعتكم وليس لنا ذلك.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ﴾ أي يئسوا من إجابة يوسف عليه السلام لهم ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي انفردوا واعتزلوا الناس حالكونهم نجيا بعضهم مع بعض ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ أي رئيسهم وهو شمعون: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي عَهداً يوثقُ به وهو حلفهم بالله ليرجعون بنيامين الى أبيه إلا أن يُحاط بهم ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي ألم تعلموا جريمتكم وتفريطكم السابق في شأن يوسف واعتذاركم لأبيكم بالأكاذيب، فإذا أضفتم التهاون في شأن بنيامين إلى جريمتكم كاد أن يتقطر عرق الانفعال من الجبين وأنا لا أتحمل هذا الحال ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالرجوع إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بخلاص أخي بنيامين بسبب من الأسباب ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يحكم إلا بما فيه الحكمة ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا﴾ له: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ مكيال الملك ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ من سرقته حيث شاهدنا إخراج الصُّواع من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي وما كنا مطلعين على الأمر الغائب عنا، وهو أنه سيسرق عندما أعطيناك الميثاق على الإتيان به إليك ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ وهي مصر ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي واسأل أصحاب العير التي توجهنا معهم إلى مصر أو أقبلنا معهم إليك عند الرجوع من مصر ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿قَالَ﴾ أبوهم يعقوب عليه السلام ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ حين قلتم إن يسرق فقد سرق اخٌ له من قبل، وإلّا فملك مصر من

أين يدري أن العائلة قد وقع فيها ما وقع ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري ﴿صَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لا يكون فيه شكوى إلى الناس أو صبر جميل وهو ما لا شكاية فيه إلا الى الله أجمل من الصبر الذي فيه الشكاية إلى العباد ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ أي بيوسف وأخيه بنيامين ومن معهما ﴿جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يبتلى ويرفع البلاء حسب الحكمة البالغة.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86)﴾

قوله تعالى ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ جملة مستأنفة بيانٌ لِما عَرض على يعقوب عليه السلام بعد وصول أولاده إليه وإلقاء هذا الخبر المحزن عليه. فيقول وتولى وأعرض عنهم أي عن أولاده الواصلين الموصلين إليه هذه الأحزانَ واختلى، لأن الإنسان إذا رَابَهُ ما خَرج عَن طاقته أحَبَّ أن لا يراه الناس على تلك الحال، وينفرد بنفسه حتى يقضي ما عنده من البكاء والحزن، ويتبرد ما عنده من اللهيب على فراق الحبيب. وقال منادياً الأسى والأسفَ من أي جانب كان ومن أي طرف ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى﴾ أي يا أسفي تعال إلى كَنَفي فهذا أوانُكَ وأوانُ احتضانك، ولم ترَ وقتاً مثل هذا الوقت لظهورك، ولا أحَداً من إخوانك مثلي، أناديك ﴿عَلَى﴾ فراق ﴿يُوسُفَ﴾ فإنه كان يؤسِفني فراقُه واشتياقه، وأضيف إلى ذلك فراق شقيقه بنيامين، ولم يبق لي مؤنس إلا رحمة أرحم الراحمين ﴿وَ﴾ قد ﴿ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ لأن الحزن يوجب فوران القلب

وفيضان الماء الحار إلى الدماغ وسيلانه إلى العيون وتمحق سوادها وتقلبه إلى البياض. والفاء في قوله ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ لعطف السبب على المسبب أي وعلة ما جرى عليه أنه كان كظيماً مملوء الصدر من الحزن، وصار ذلك سببا لفوران القلب، وفيضان العبرات الحارة على العيون، وهي من أسباب انمحاق سوادها وظهور بياضها هذا.

ولا يرد أن هذه الحال تنافي مقام النبوة والرسالة واستعراق القلب في الحضور والنور؛ لأن المنافي لذلك المقام هو القيام بما لا ينبغي من التشكي عند الأنام وإظهار ما يخالف الأدب والنظام، وإلا فالإنسان ما دام إنسانا يتعذب من احتراق الجسد، ولهيب القلب والكبد فإن الغريزة غريزة والألفة بالأولاد والأحباب عزيزة، ألا تَرون أن سيد الرسل صلى الله عليه وسلم لما توفى ولده إبراهيم بكى عليه وقال: ((إن العين تدمع، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وانا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون)) رواه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنهم.

﴿قَالُوا﴾ أي أولاده لما ظهر حزنه وارتعاده: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تفتأ تذكره ولا تزال على ما أنت عليه حتى تكون حرضا، أي مريضا مشرفا على الهلاك أو تكون من الهالكين فعلا. والحرض كحسن صفة مشبهة وهو من أذابَهُ هم أو مرض وجعله مهزولا نحيفا.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام في جواب هذا الملام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ وأعتزل الأنام وأتوجه إلى العلام كي يوفقني على الثبات والاستقامة على طريق الآباء الكرام ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأرجو من رحمته الاستقامة ومن كرمه السلامة.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)﴾

قوله تعالى ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ روي أنه رأى رؤيا وبشر في المنام بأن يوسف حي مرزوق وأنه سيراه مع أخيه فانتبه واستبشر برؤياه هذه. وبينما هو كذلك إذ تهيأ أولاده لسفر آخر إلى مصر للميرة فقال لهم: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا﴾ لمهمتكم ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ وتعرفوا ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ واطلبوا من أهل الأمانة والخبرة وجودهما وأحوالهما ﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمته وفَرَجِه، فإن انتظار الفرج من الله عبادة ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وهم إذ يئسوا يئسوا من رحمته بصفة أنه إله واحد لا شريك له، فالكافر إما يكفر بوجوده أو بوجوب وجوده أو بوحدته وكرمه وجوده. قال ابن عباس رضي الله عنهما (إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء).

وفي حقيقة الأمر إن الكافر على طرف النقيض من المؤمن فلا يرجوه في البلاء ولا يحمده في الرخاء.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف عليه السلام بعدما وصلت قافلتهم إلى مصر وقد جاؤا للطعام ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمور الاقتصاد في البلد ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي الهزال من الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أي بمتاع مدفوع مطرود عند التجار غير مرغوب فيه. اسم مفعول من باب الإفعال وفعله أزجاهُ أي دَفعه. قيل كان من متاع الأعراب صوفا وسمنا ونحوهما ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي أتممه إتماما لائقا بمقامك لا بمتاعنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بما تزودنا به زائدا على الاستحقاق كما هو شأن الأمراء من ذوي الأخلاق ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ على بني الإنسان بموائد الكرم والإحسان.

فلما سمع منه الكلام المملوء من الاستعطاف والاسترحام امتلأ صدره من نور خلق الشفقة والرحمة زائداً على ما عنده من غريزة العطف وإفاضة النعمة فعزم على إظهار العلاقة الأخوية والشفقة النسبية، و﴿قَالَ﴾ لهم مؤنبا ولائما ومصرحا بجريمتهم ومعتذرا: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أما بيوسف فبإلقائه في غيابة الجب وتعريضه لمتاعب وأذى في مستقبل حاله، وأما بأخيه فبتفريقه عنه، وبهما معا بتفريقهما من الوالدين، وذلك ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ بقبح فعالكم وسوء جزائها في مآلكم. فلما صرح بذلك وأوضح ما هنالك، علموا أنه يوسف فاستفهموا استفهام تقرير: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ أي نعم أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ بنيامين بن يعقوب ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بإنجائنا من البلايا، وإبعادنا عن الخطايا، وبتقريرنا على الفضائل والمزايا، وقرب كُلًّا منا عن الاخر بْعَد أن بعد كلامنا عن الآخر

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني إن من يتق الله في جميع أحواله، ويصبر في آلامه في نفسه وماله، فإن الله لا يضيع أجره لأنه من أهل الإحسان، والله لا يضيعُ أجر المحسنين ﴿قَالُوا﴾ أي إخوته: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آَثَرَكَ اللَّهُ﴾ واصطفاك ﴿عَلَيْنَا﴾ بحسن الصورة والسيرة وفضلك علينا بالمواهب الجزيلة والعطايا الجميلة ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي والحق إنا كنا من مرتكبي الخطأ والذنب متعمدين له. ولما أقروا بذنوبهم فاضت نفس يوسف عليه السلام لعفوهم و﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ولا تجريح ولا تقريع ﴿عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ من جانبنا فقد عفونا عنكم و﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من التبعات الثابتة من حقوقنا، وأما من جانب الله تعالى فالكرم أوسع ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فنرجو أن يغفر الله لكم ذلك أيضا.

ثم قال لهم بعد هذه الملاطفات: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يصير بصيرا، وإنما علم ذلك بالوحي أو الإلهام، وكلٌّ من مميزات الكرام، أو ألقوه على وجهه فيعاد له نور عينيه ويأتي إلى مصر فيراني بعينيه فيعرفني كما كنت لديه ﴿وَأْتُونِي﴾ أنتم ﴿بِأَهْلِكُمْ﴾ من النساء والذراري والأولاد والبنات والخدام والخادمات وأولي العلاقات والقرابات... ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا تتركوا منهم أحداً. وبهذه المحاورات اللطيفة قد زال عن قلوبهم غبار الأكدار وامتلأت من المسرة والاستبشار، واستعدوا للرجوع إلى أرض كنعان بنور ولمعان.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)﴾

قوله تعالى ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي لما خرجت العير من عريش مصر قاصدة أرض كنعان مكان يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي لأشم رائحته بإشمام الله لشامتي لإحسانه إلي وكرامتي ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تنسبوني إلى الكذب لعلمتم بما قلته لكم فالجواب محذوف بقرينة ما تقدم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي لفي انحرافك عن الرأي المصيب كما كنت سابقا. وهذا، والعياذ بالله، نشأ من سوء تفكيرهم وقلة عقلهم وتدبيرهم، وإلا فلا معنى لأن يختار الله إنسانا ويجعله مظهرا لوحيه ورسالته ويخوله إرشاد الأنام إلى أصول الأحكام وفروعه على مر الأيام، ومع ذلك يكون ذلك الرسول ضعيف العقل سخيف الرأي عديم البصيرة، ومع الأسف إن الناس منهمكون في الشهوات ولهم مزيد ألفة بالماديات فلا يعترفون بالمعنويات، ولا سيما إذا كان صاحبها ممن لهم معه ألفة ومجاورة مزيلة للمهابة والاحتشام، وهذه العلة سارية في أغلب الناس، فعقولهم تابعة لحواسهم، وهذا لعوام الناس لا لخواصهم ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ مستعجلا قدام العير ﴿أَلْقَاهُ﴾ أي القميص ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي وجه يعقوب ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ معجزة لصاحبه يوسف عليه السلام إن لم تشترط بالتحدي وإلا فكرامة له. وروي أنه أخذه وشمه فجعله على وجهه وعينيه وارتد بصيراً ﴿قَالَ﴾ يعقوب بعدَ وجدان هذه المعجزة الكبيرة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فلما تبين الأمر وانشرح الصدر وظهر القدر ﴿قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف عليه السلام معتذرين إلى الوالد المحبوب ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾

بما فعلنا مع يوسف وأخيه ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ متعمدين للذنوب ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ في الكلام إيجاز والتقدير: فرحل يعقوب عليه السلام بأهله من أرض كنعان إلى مصر، وساروا حتى أتَوا يُوسف، فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه، أي ضمهما إليه واعتنقهما. والمراد بالأبوين أبوه وخالته ليا لوفاة أم يوسف سابقا، ونزلت منزلة الأم لكونها زوجة ابيه وخالته، ولأنها ربته قبل ما جرى عليه، فكانت كأمه.

وفي التوراة أنه عليه السلام أعطى لكل من أخوته خلعة، وأعطى بنيامين ثلثمائة درهم وخمس خِلعٍ، وبعث لأبيه بعشرة حمير موقرة بالتحف وبعشرة أخرى موقرة برّا وطعاما. إنتهي.

وما هو المعقول المعتقد في الموضوع أنه قد أكرم أهل بيته بما يكون سببا لإجلالهم عند ورودهم مصر من شتى الجهات. ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ أي تمكنوا منها واستقروا فيها ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ﴾ والتعليق بالمشيئة للبركة إذ بعد الدخول ليس للتعليق قبول. وقيل: إن الكلام فيه إيجاز حذف. والأصل إن يوسف قد خرج من مصر مع أتباعه وحشمه مستقبلين لهم خارجه، فلما دخلوا على يوسف هناك آوى إليه أبويه في الخيمة المضروبة لهم، وبعد فترة الراحة ومراسيم الاستقبال طلب منهم دخول البلد وقال لهم: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين من كل مكروه مادي أو معنوي، فهناك لقاآن ودخولان، أحدهما خارج مصر، والثاني لقاء ودخول في بلدة مصر والله أعلم.

﴿وَرَفَعَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿أَبَوَيْهِ﴾ عند نزولهم داره بمصر ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله بإخوته ﴿وَخَرُّوا﴾ أي أبواه وإخوته ﴿لَهُ﴾ ليوسف ﴿سُجَّدًا﴾ أي على الجباه سجود تشريف كما كان عادة الواردين على الملك ووزرائِه في ذلك العهد تحية وإكراماً مثل القيام وتقبيل اليد والمصافحة ونحوها في عصرنا. وقيل المراد بالسجود إنحناءٌ كالركوع دُون وضع الجبهة. وقيل: التواضع والكل خلاف الظاهر. ويدفع كل ما يورد خيالا أن ذلك كان من التحية الإعتيادية عند لقاء الكبار. و﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي مطابقاً للواقع، ولم يقتصر الباري عز شأنه على ذلك فقط بل عاملني بأشياء أخرى ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ﴾ الله ﴿بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ الذي طَلَبته بنفسي بَدَل ما أرادته مني نسوة المدينة، وجَعَلَني متمكنا في الأرض معروفا بالقدر والمقام بَعد أن كنت

غلاما مبيعا في سوق الأنام ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي بادية كنعان وضمكم إليّ ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي أفْسَدَ ما بيني وبينهم ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ في التدبير ﴿لِمَا يَشَاءُ﴾ فيجعل الصعب سهلا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بأسباب ما أراد حصوله ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقها حتى يوصل إلى كل شخص محْصُولَه.

روي أن سيدنا يوسف طاف بأبيه في خزائنه وأراه ما عنده من الإمكانيات، فقال: يا بني أنت لما وصلت إلى هذا المقام ما منعك عن إرسال كتاب إليّ تخبرني ببقائك ومقامك حتى نصل إلى لقائك؟ فقال: أمرني جبريل عليه السلام بالتوقف عن ذلك لحكمة هنالك، وهي نيل كل منا جزاء الفراق في تلك المدة. وقد كانت المدة أربعين سنة، وقيل خمسا وثلاثين، وقيل ثماني عشرة سنة، والله أعلم.

ثم استقر أبواه وإخوته وأتباعهم في مصر وهو على مقامه حسب مرامه إلى ما شاء الله تعالى من الزمان. ولما قَرُبَ أجَلهُ دعا ربَّه وقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ ما أتملك به زمام أمري، وأتنعم به حَسَب قدري، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي بعضا من ذلك من تعابير الرؤى على اختلافها، وفهم دقائق الأمور على أصنافها، ومن أسرار الكتب الإلهية الدائرة بين أهل النبوة وأشرافها ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يا خالقهما ومبدعهما في الطول والعرض ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾ ومتولي أموري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي﴾ واقبض روحي ﴿مُسْلِمًا﴾ مطيعا لك ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من عبادك، وعاملني بما يليق بكرمك وإحسانك. وأورد على ذلك أن طلب الموت لا يستحب لأهل الخير بدون ضرورة، وأجيب بأجوبة:

الأول: أنه أوحي إليه أنه اقترب أجله فطلب من الله تعالى أن يقبض ولا تنحط درجته عن الإيمان التفصيلي، فالمشرك المصدق بوجود الصانع روحه على ذلك الوجه الجميل.

والثاني: أن طلبه عند شدة اشتياق لقاء الباري غير مكروه بل هو حسن ممدوح.

والثالث: أنه كلما استمر الزمان عليه بين المصريين أتاه ما لا يعجبه من اضطراب الناس الطغاة، وإلقاءِ الشكوك على الأنام كما ذكر الباري تعالى بقوله في سورة الغافر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ الآية... فطلب من الله تعالى أن يقبض روحه الشريفة بأمان وتسليم حتى يخلص منهم ويلقى وجه ربه الكريم.

روي أنه عليه السلام لم يمر عليه أسبوع حتى توفاه الله تعالى. وروى المؤرخون أن يعقوب عليه السلام عاش مع يوسف أربعا وعشرين سنة، ثم توفى وأوصى أن يُدْفَن بالشام إلى جَنب أبيه، فذهب به يوسف عليه السلام ودفنه ثمة. وأن يوسف عليه السلام عاش مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من امرأة العزيز أفرائيم وهو جد يوشع عليه السلام، وميشا، ورحمة زوجة أيوب عليه السلام. ولما توفى يوسف جعلوا جنازته في صندوق الـمَرْمَرِ ودفنوه في مصر. ثم أخرجه موسى عليه السلام ونقله إلى مدفن آبائه ودفنه هناك. والحمد لله الذي لا يبقى إلا وجهه، ولا يدوم إلا ملكه، وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (104) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)﴾

قوله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما قصه الله تعالى من أنباء يوسف عليه السلام. والكاف للخطاب مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، أي ذلك المنزل عليك ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الذي لا يحوم حوله أحد. وقوله ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ وقوله ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ خبره وقوله ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي لدى إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي إذ قرروا مطلوبهم وهو جعله في غيابة الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أباهم ويتوسلون لإبعاد يوسف عليه السلام، فبيان تلك الأنباء الغيبية دليل قاطع على رسالتك، وإن تلك الأنباء جاءتك بالوحي ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على أن يؤمنوا بالله ورسوله ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لتمردهم وعنادهم وغلبة الشهوات النفسية على أنفسهم ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ تأخذه منهم كما هو عادة الأحبار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وهو كالعلة لما قبله، لأن الوعظ والتذكير أمر عام ليس مختصا بأحد أي واجب كل إنسان عاقل فاهم أن يعظ ويرشد بقدر الإمكان، وواجبه أيضا أن يتعظ ويسترشد كذلك، فلا معنى لأخذ الأجرة على مثل ذلك لأنه كالإرشاد إلى طريق عام للعابرين، أو لأن هذه الذكرى بالنسبة إلى الرسول تبليغ للوحي والتبليغ من واجباته

الخاصة، وهي لا تؤخذ الأجرة عليها إلا إذا أفضى ترك الأجرة إلى إهمال ذلك الواجب، كأن يكون المبلغ لا يعيش بدونها ولا يمكنه الوفاء بواجبه.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يعني وكثير من الآيات الدالة على وجود الباري ووحدته وانفراده بالخلق والإبداع كائنة تلك الآيات في السماوات من: الكواكب وحركتها، وأضوائها وسرعتها وبطئها في الحركة، ودلالتها على المواسم والفصول. والأرض من الصحارى القاحلة، والجبال الموحشة الهائلة، وما فيها من المعادن والنبات والحيوان، على أنواع كثيرة وأصناف وفيرة، مع اختلاف الألوان والأشكال والأصوات والنبراتِ، ومن البحار المائجة، والأسماك الهائجة، وأصناف الأصداف، والمنافع المستخرجة منها، يمرون أي الكفار المشركون عليها ﴿وَهُمْ عَنْهَا﴾ وعن التدبر فيها وفي آثارها النافعة الدالة على الله تعالى ﴿مُعْرِضُونَ﴾ كبصير يمرُّ على الجواهر فيتعامى، وسَميعٍ يسمع الحقائق فيتصامم. فإذا كان الأمر كذلك تبين أنهم بعيدون عن الإيمان لا يؤمنون ﴿وَ﴾ إن آمنوا فـ ﴿مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ بوجوده ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ به في عبادته وطاعته ما لا يستحق فضلا، وليس لتقديره أهلا. وهل يستوي الواجب والممكن والصانع والمصنوع والقوي والضعيف؟ فجملة ﴿وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ حال وكلمة إلا للاستثناء من أعم الأحوال. أي لا يؤمنون على شيء من الأحوال إلا على حال الإشراك بالله المتعال. وهذا الايمان المقارن للاشراك هو الايمان اللغوي المستعمل بمعنى التصديق المجرد بشيء ما. وأما الإيمان في عرف الشرع الشريف الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الله وهو الإيمان بالله تعالى على ميزان ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾ وعلى منهاج ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وعلى وزان

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

وعلى أساس تبليغ محمد صلى الله عليه وسلم لذلك مع الإيمان برسالته وجلالته، فيشهد المؤمن ويقول بقلب سليم ولسان فصيح: أشهد أن لا إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.. فهو الإيمان في عرف الشرع ولا يمكن مقارنته مع الإشراك بأي وجه من الوجوه.

قال السعد في شرح العقائد النسفية: وإذا عرفت حقيقة معنى التصديق فاعلم أن الإيمان في الشرع هو التصديق بما جاء به النبي من عند الله تعالى أي تصديق النبي عليه السلام بالقلب في جميع ما علم بالضرورة مجيئه به من عند الله تعالى إجمالا، وأنه كاف في الخروج عن عهدة الإيمان. ولا تنحط درجته عن الإيمان التفصيلي، فالمشرك المصدق بوجود الصانع وصفاته لا يكون مؤمنا إلا بحسب اللغة دون الشرع لإخلاله بالتوحيد، وإليه أشار بقوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ إنتهي.

وعلاوةً على ذلك يعتبر في الإيمان الشرعي الإقرار بكلمتي الشهادة المصرحتين بتوحيد الباري تعالى ورسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. والتوحيد هو التوحيد في وجوب وجوده تعالى، وفي أنه خالق. وفي أنه هو المعبود، ألا لَه الخلق والأمر. والآية الكريمة نزلت في أهل مكة آمنوا بالله وأشركوا به، كانوا يقولون في التلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكُه وما مَلك! وعن مجاهد: أن كفار العرب مطلقا أقروا بالخالق الرازق المميت، وأشركوا بعبادة الأوثان والأصنام. وقيل غير ذلك. والحق أنه وإن كان هناك مورد خاص لكنه يشمل كل كافر له إيمان بالله ويشرك به غيره في وجوب الوجود، أو في الخلق، أو في استحقاق العبادة، فإن أركان التوحيد توحيد في الذات، وتوحيد في الخلق، وتوحيد في العبادة.

ثم رجع الباري سبحانه يهدد المشركين بقوله الكريم ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتشملهم كالاحتراق بالنار، والغرق

<415>

في البحار، أو الإباده بايدي الاشرار، او الحرب المدمرة، او العلاء الشاملة للديار والعياذ بالله منها ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة من غير سابقة علامة، كما في مجيء زلزلة الساعة عند غفلة الناس عنها، فمنهم من ينظف، حوض مائه، ومنهم من يَحْلب حلائبه، ومنهم من يزرع زرعه ولا يقدرون على إتمام العمل إلا والدنيا تزلزلت! أو مجيء أمر مباغت على قوم مخصوص كالبركان والعواصف والقواصف السماوية وغيرها... والعياذ بالله وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بما يداهمهم من الطامة الكبرى أو الصغرى.. ولا ملجأ من الله إلا إليه رب العالمين.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لكل من يسمع الكلام: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي إرشاد الأنام إلى الإسلام سبيلي وطريق سلوكي في حياتي ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره جميع الأنام إنسا وجنا إلى الإيمان والاسلام، الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وإلى شهادة ثابتة نابتة من القلب شهادة بتوحيد الله سبحانه وتعالى ذاتا وصفة وفعلا، وشهادة برسالة النبي الأمي العربي القرشي الهاشمي محمد ابن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم الى كافة الثقلين. حالكوني ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ والبصيرة إدراكٌ بانتباه بلا شبهة واشتباه، يميز بين الحق والباطل في العاجل والآجل.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي وأُسَبّحُه سبحانا وأنزهه تنزيهاً من كل ما لا يناسب كمال ذاته وجمال صفاته ﴿وَمَا أَنَا﴾ ولا من يتبعني بالبصيرة ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ رد لقول المشركين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ ويستفاد منها حصر النبوة والرسالة في الرجال أي إن اِرسالَ النساء أو الملائكة لم يكن من سنتنا في إرشاد المكلفين، ولم نتعود أيضا إرسالَ كبارِ رجال الأمة من الملوك والجبابرة، وإنما تعودنا على أن أرْسَلنا قبلك رجالا خيرةً منتخبة ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ فالذين آمنوا بهم أمنوا من عذاب الدنيا والآخرة، والذين كفروا بهم نالوا شقاءهم فيهما ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين للرسل كقوم نوح وعاد وثمود ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الكفر والكبائر، لا دار الدنيا فلا خير فيها، أو دار الآخرة أحسن من دار الدنيا لهم، وإن كان فيها محاسن ولذات مباحة أيضا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الحقائق حتى تميزوا بين خيرها وشرها. وقوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾ غاية لمحذوف معلوم من المقام، تقدير الكلام فاستمر الرسل في أداء الواجب والكفار في التمرد على أهل المراتب، حتى إذا استيأس الرسل من النصر عليهم في الدنيا أو من إيمانهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ أي كذبتهم أنفسهم قبل الاقتحام في الآلام بالوعد بالانتصار على الكفار ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ أي مَنْ شئنا إنجاءَهم يعني الرسل وأتباعهم، وأهلك من أردنا إهلاكه وهم الكفار المتمردون، ولم تنفعهم محاولاتهم لرد العذاب والبأس. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي الرسل ومنها قصة يوسف عليه السلام

﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لذوي العقول الصافية عن الأقذار المانعة عن الاعتبار ﴿مَا كَانَ﴾ القرآن المنزل الحاكي عن الماضي والمستقبل ﴿حَدِيثًا﴾ عاديا ﴿يُفْتَرَى﴾ ويختلق ﴿وَلَكِنْ﴾ كان كلاما منزلا من الله إلى الرسول محترما لديه و﴿تَصْدِيقَ﴾ الكتاب ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب النازلة على عيسى وموسى ومن قبلهما ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مهمات ما يسأل عنه ويجاب ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إيمانا كاملا لائقاً بالذين ينقادون للحق ويطيعون رب العالمين.

فهرس الكتاب

وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم.	423